عباس الجراري

مع المعاصرين

أسماء وآثار في الذاكرة والقلب

الجزء الثاني

منشورات النادي الجراري « 24 »

مع المعاصرين

– الجزء الثاني –

منشورات النادي الجراري

- 24 -

عبـــاس الجـــراري

مع المعاصريـن

الجزء الثاني

منشورات النادي الجراري
- 24 -

رقم الإيداع القانوني : 2002/1110

ردمـــــــك : 9981-893-06-4

مطبعة الأمنية

الرباط ربيع الأول 1423هـ = مايو 2002م

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ نحو من سبعة أعوام، كنت أصدرت الجزء الأول من هذا الكتاب : "مع المعاصرين"؛ جمعت فيه جملة من الكتابات التي تسنى لي تقديمها في مناسبات احتفائية أقيمت لثلة من الأعلام المغاربة والمشارقة، أصدقاء أعزاء عليَّ وأسماء بارزة مرموقة؛ في حرص على أن تكون هذه الكتابات جامعة -بتوفيق قدر الإمكان- بين الموضوعية التي يقتضيها التعريف بالعلَم - أي علم - مهما يكن المنهج المتبع في التحرير، وبين الذاتية النابعة مما يتخلل التعريف من مشاعر خاصة وأحاسيس شخصية هي لاشك الحافزة عليه، والدافعة إلى صوغه على نحو متميز.

ولا أخفي أني بهذا النوع من الكتابة، كنت أسعى إلى إيجاد نمط يلتئم فيه ما كان شائعاً عند مؤلفي كتب الفهارس والتراجم والطبقات - ومازال وإن تغيرت أساليب التناول - وما كان معروفاً عند الذين يحبرون المراثي والتقاريظ؛ مع إعطاء هذا الالتئام قالباً جديداً يضعه في سياق متوازن تطبعه سمة أدبية تقربه إلى المتلقي، وتغري بقراءته للاستفادة والاستمتاع والتأمل.

ولقد كان لصدور الجزء الأول من هذا الكتاب صدى طيب، إذ جاء تعزيزاً للكتابات التي تعنى بالتأريخ للأعلام على العموم، والمعاصرين منهم على الخصوص، ولا سيما عبر إقامة مناسبات تكريمية لهم؛ مما سيؤدي حتماً إلى تجاوز ظواهر أليمة متفشية بيننا ومتوارثة، والسعي إلى التغلب عليها ومحو

عارها؛ كظاهرة الإهمال الذي يصيب علماء ومفكرين وأدباء وفنانين، إلى درجة التخلي عمن يعيش منهم آخر عمره يعاني المرض أو الخصاصة. ومثلها ظاهرة التنكر الذي يواجه به أعلام أفذاذ بعد مماتهم، حتى من كان منهم في حياته يعتلي القمة ويحتل مركز القيادة ويحظى بالهيبة. تضاف إليهما ظاهرة النسيان الذي يتعرض له كثيرون، إلى حد يتعذر معه في أحيان غير قليلة، تذكّر أعمالهم وربما أسمائهم، أو تحديد تاريخ وفاتهم، حتى حين لا تكون مضت على هذه الوفاة سوى سنوات قليلة أو شهور معدودة؛ وربما شُك في كونهم مازالوا على قيد الحياة أو انتقلوا إلى رحمة الله.

ولعل هذا الصدى الطيب بما خلف من أثر حميد، هو الذي دفعني إلى مواصلة الإصدار، بنشر جزء ثان آمل أن تعقبه إن شاء الله ومد في الأجل، أجزاء أخرى أتابع فيها الكتابة عن "المعاصرين" بالمنهج الذي بينت، في انضباط بمعيار الإنصاف، وإن من خلال رؤية ما أظنها عند من يمارس البحث العلمي – والأدبي كذلك – إلا ملتزمة خط الصواب أو ما هو قريب منه، بما يعتمد من حقائق موثقة مضبوطة، ومعطيات معيشة ملموسة، وذكريات حية حاضرة، مهما تكن ظلال الذاتية ملقاة عليه ومؤثرة فيه بالتأكيد.

وإذا كنت في الجزء الأول قد وزعت الموضوعات على قسمين : خصصت الأول لما يوحي به التقدير والتكريم، والثاني لما يحث عليه الوفاء والعرفان، فإني في الثاني قد حافظت على هذين القسمين، طالما أن الدافع إليهما قائم، وأضفت إليهما قسما ثالثاً جعلته للتنويه والتعقيب. وفيه أوردت بعض ما كتبت متعلقاً بمنشورات مؤلفين أصدقاء، أو بمراجعات علمية وأدبية مع زملاء باحثين.

وسيلاحظ القارئ أن الموضوعات التي يتضمنها هذا السفر –كسابقه– جاءت في كتابتها متدرجة في الأسلوب، من الشكل المتولد عن الخطاب الارتجالي بكل سماته التعبيرية التلقائية، إلى الشكل الفني ذي الملامح التحسينية المعروفة؛ مما يستجيب في الحالين لطبيعة المناسبة ومقتضى الحال، وإن بغير تكلف أو تصنع في هذا، ولا تساهل مخل في ذاك؛ وقد يقدم النص في قالب شعري إن كانت لذلك أسباب دافعة.

وإني بنشر هذا الجزء، لآمل أن يكون – كالذي صدر قبله وفي حدود مجاله – رمز اعتراف بالناهين والمتميزين، وأن يكون كذلك إضافة للمؤلفات التي تهتم بالأعلام وإغناء لها، وإغراء بفتح آفاق جديدة لمزيد من الالتفات إلى المعاصرين والاعتناء بهم وبإنتاجهم، في حياتهم وبعدها؛ مما هو في صميم ذاكرة الأمة وتاريخها وحاضرها، وما به تستشرف المستقبل وتحض الأجيال، وما به كذلك تحيا وتفاخر، وتقتعد المكان اللائق بها وبأبنائها وما يقدمون لها من جليل الخدمات، وما يبذلون من صادق الجهود، ساعين إلى أن تتبوأ أعلى مراتب الرقي والازدهار.

وبالله التوفيق، ومنه العون والسداد.

الرباط في 3 ربيع الأول 1423 هـ

الموافق 16 مايو 2002م

عباس الجراري

القسم الأول

وفــاء وعــرفان

ثورة الملك والشعب في ذكراها الثامنة والأربعين
(الأسباب والسياق)

نص الكلمة التي ألقيت في الحفل الذي أقامته المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، إحياء للذكرى الثامنة والأربعين لثورة الملك والشعب، عشية الأحد 29 جمادى الأولى 1422 هـ الموافق 19 غشت 2001 م، بقاعة الأفراح التابعة لولاية الرباط. وتجدر الإشارة إلى أن قائد هذه الثورة، جلالة الملك المغفور له محمد الخامس، توفي بعد ظهر الأحد 10 رمضان 1380 هـ = 26 فبراير 1961م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أصحاب المعالي والسعادة

حضرات السيدات والسادة

أود في البدء أن أعرب عن خالص شكري وفائق تقديري لسيادة الأخ العزيز الأستاذ مصطفى الكثيري، إذ دعاني للمشاركة في هذا الجمع الخطابي الحافل الذي تنظمه المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، إحياء للذكرى الثامنة والأربعين لثورة الملك والشعب.

وإنه ليسعدني أن أساهم في هذه المناسبة المجيدة، بكلمة قصيرة للتعريف بالأسباب التي كانت خلف هذه الثورة، والسياق الذي توضع فيه.

أيها الإخوة الكرام

لعل في طليعة السمات التي تميز المغاربة وتطبع تاريخهم، سمة الجهاد للدفاع عن الذات والوطن والدين والكيان، ورد التحديات الكثيرة التي كانت تواجههم طوال الحقب والأزمان .

وإذا كان هذا الجهاد قد تواصل على امتداد العصور والعهود، فإنه في المرحلة الحديثة عرف أوجه وتألقه، لا سيما حين مست سيادة الوطن بفرض

الحماية عليه، سنة اثنتي عشرة وتسعمائة وألف، فهب أبناؤه الأشاوس للمقاومة المسلحة التي لم تهدأ إلا في منتصف سنوات الثلاثين، وهي هدأة دخل بعدها الكفاح من أجل استرجاع الحرية، مرحلة جديدة التف فيها الشعب - بقيادة الحركة الوطنية- حول الملك المجاهد مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه.

وتجدر الإشارة في هذه المرحلة إلى ثلاثة جوانب تشكل السياق الذي ستتمخض عنه ثورة الملك والشعب.

الجانب الأول : يتمثل في الإصلاح الفكري، إذ أدرك — قدس الله روحه- أن تحرير المغرب من نير الاستعمار، لا يمكن أن يتحقق إلا بهذا النوع من الإصلاح الذي ينطلق من التمسك بالعقيدة، على أساس من الكتاب والسنة، وتصفيتها من كل الخرافات والضلالات التي كانت تشوب الوعي وتعوق تجديده .

وإيمانا منه — رحمه الله - بأن التعليم هو السبيل الوحيد للتصحيح، فقد أولى عناية خاصة له في مختلف مراحله وجميع مؤسساته، على الرغم من تضييق إدارة الحماية، فطور من هذه المؤسسات ما كان يحتاج إلى تطوير، وأحدث منها ما كانت المرحلة في حاجة ماسة إليه .

من هنا عني بالقرويين وما إليها من معاهد علمية، واهتم بالكتاتيب القرآنية التي حول الكثير منها إلى مدارس عربية حرة نشأت ابتدائية، ثم لم تلبث أن تحولت في بعضها إلى ثانويات. كما اهتم بتعليم الفتيات، وكان يرعاه بنفسه ويشرف عليه بطريقة مباشرة.

وتجلت عناية الملك المنعم بالتعليم في الإسهام في تمويله إلى جانب الشعب، وفي تشجيع تأليف الكتب المدرسية، وفي وضع الحجر الأساسي للمدارس وتدشينها وحضور حفلاتها السنوية وإلقاء الخطب بها، ومنحها اسمه الشريف أو أسماء أبناءه أصحاب السمو الملكي الأمراء والأميرات الذين كانوا يمثلون جلالته في هذه المناسبات.

ومن ماله الخاص، وجه أول بعثة تعليمية للدراسة العليا بفرنسا، وكان ذلك سنة خمس وأربعين، وظل يرعى هذه البعثة إلى أن عادت لتكون في خدمة الوطن .

هذا هو الجانب الأول من جهاده – نور الله ضريحه –، أما الجانب الثاني، فهو النضال السياسي الذي واكب قيام الحركة الوطنية. ويتمثل في المواقف البطولية التي كانت له في مواجهة التحديات التي كانت تصدر من الاستعمار الرافض يومئذ لكل المطالب الإصلاحية التي كانت تقدم له، على نحو المذكرة التي رفعتها الكتلة عام ستة وثلاثين، و"دفتر المطالب المغربية"، وكذا "إعلان المطالب المستعجلة" وكانا قد قدما في العام نفسه.

وأمام رفض إدارة الحماية لكل هذه المساعي الإصلاحية ومواجهتها بسلسلة من الاعتقالات، ومباشرة بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، عقد مؤتمر أنفا بالدار البيضاء يوم خامس يوليوز سنة ثلاث وأربعين بحضور الرئيس الأمريكي روزفلت، وتشرشل الإنجليزي، وجلالة الملك محمد ابن يوسف وولي عهده يومئذ جلالة الملك الحسن الثاني تغمدهما الله بواسع رحمته؛ ووعد المغرب بالاستقلال تقديرا للدور البطولي الذي كان لأبنائه في

معارك التحرير أثناء هذه الحرب. إلا أن شيئا من ذلك لم يتحقق، فكانت المطالبة بالاستقلال بتقديم وثيقة حادي عشر يناير عام أربعة وأربعين.

وهنا يبدأ الجانب الثالث من جهاد الملك المنعم في التحام مع شعبه والتئام مع الحركة الوطنية. ويظهر في المطالبة بالاستقلال وما رافقها من أحداث دامية سجلها يوم التاسع والعشرين من يناير في العام نفسه.

ثم توالت بعض المحطات التاريخية التي تكفي الإشارة منها إلى رحلة طنجة عام سبعة وأربعين، ورحلة فرنسا عام خمسين، والمذكرات المتتابعة التي قدمها جلالته للدولة الحامية سنة اثنتين وخمسين، وما كان في هذا العام من أثر كبير للاحتفال بعيد العرش في ذكراه الفضية.

من بين هذه المحطات، تنبثق مواقفه – أكرم الله مثواه – عبر كلماته الذهبية التي كان يعبر بها عن إصراره وشعبه على التحرير والاستقلال.

ففي خطاب طنجة، ذكر بأن حق المغرب لن يضيع، فما ضاع حق من ورائه طالب. وفيه تحدث عن جمع كلمة العرب وتأسيس الجامعة العربية لتوحيد صفوفهم مشرقا ومغربا.

وفي خطاب العرش لعام واحد وخمسين والأزمة في اشتداد، توسل بالآية الكريمة "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين".

وفي هذا الخطاب، تمثل – لإظهار إصراره – بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه حين زادت محنته مع المشركين الذين كانوا يساومونه على التخلي عن الرسالة : "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته".

ونود أن نضيف ما جاء في خطابه بمناسبة عيد العرش الفضي، حين ذكر بأن الحماية مثلها كمثل القميص جعل لطفل صغير فكبر الطفل ونما وترعرع وبقي القميص على حاله.

أمام هذه المواقف التي لم تكن تزيد إلا ثباتا وشجاعة كلما اشتدت الأزمة، لم تعد إدارة الاستعمار تطيق أن تتحمل، فهاجت وماجت وحار أمرها، ولم تجد غير التآمر على الشرعية والمشروعية، ولجأت إلى نفي رمز البلاد وأسرته الشريفة. وتم هذا النفي ظهر يوم تاسع ذي الحجة (عرفة) عام اثنين وسبعين للهجرة الموافق للعشرين من غشت سنة ثلاث وخمسين.

وقد وصف جلالة الحسن الثاني رحمه الله – وكان يومئذ وليا للعهد – لحظة الخروج إلى المنفى فقال في كتاب (التحدي) :

"كانت الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر عندما أخبر الملك وهو يفرغ للتو من تناول غذائه أن الجنرال غيوم يرغب أن يستقبله رسميا ".

وحين جاء الجنرال ومعه أعوانه العسكريون وقد طوق القصر الملكي وحشدت قوات هائلة في المشور دار الحوار التالي:

قال الجنرال: "إن الحكومة الفرنسية لدواعي الأمن تطلب منكم التنازل عن العرش. فإذا قبلتم ذلك عن طيبة خاطر استطعتم أنتم وأسرتكم أن تقيموا في فرنسا أحرارا معززين مكرمين ".

فأجاب الملك المنعم: "ما من شيء في أعمالي وأقوالي يبرر أن أتخلى عن أمانة أضطلع بأعبائها بصفة مشروعة. وإذا كانت الحكومة الفرنسية تعتبر أن

الدفاع عن الحرية والشعب بمثابة جريمة يعاقب عليها فإنني أعتبرها فضيلة يفاخر بها وتورث صاحبها المجد".

وزاد الجنرال : "إذا لم تتنازلوا حالا عن العرش بالرضا فإني مكلف بإبعادكم عن البلاد صيانة للأمن".

فكان جوابه طيب الله ثراه : "إني ملك المغرب الشرعي ولن أخون أبدا الأمانة التي ائتمني عليها شعبي الوفي المخلص. إن فرنسا قوية فلتفعل ما تشاء".

لقد رفض الملك المجاهد أن يتنازل أو يساوم، وفضل المنفى، وقال ما كان قاله يوسف عليه السلام في اشتداد أزمته : " قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ".

نعم لقد فضل المنفى، فاقتيد مع أسرته الشريفة إلى كورسيكا ثم مدغشقر، ذلكم المنفى الذي استمر من العشرين من غشت سنة ثلاث وخمسين إلى سادس عشر نونبر عام خمسة وخمسين، وهو يوم رجوعه — قدس الله روحه - يحمل بشرى إنهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية.

وكان الشعب طوال فترة المنفى مفعما بروح محمد بن يوسف الجهادية، ومن ثم أجمع على رفض ما أراد الاستعمار إجباره عليه، وصمم على متابعة نضاله بالتضحية والفداء، حتى يرجع إلى العرش ملك البلاد الذي غدا رمزا لجميع القيم والمبادئ الوطنية.

لقد كان التجاوب عميقا بين الأمة وملكها المبعد، وهو تجاوب تجاوز كل المهازل التي توسل الاستعمار بها لإضفاء الشرعية على مؤامراته، وكان

المغاربة شاعرين، بل متأكدين بأن جلالة محمد بن يوسف متربع على عرشه الذي جعلوه في قلوبهم. ومن ثم لم يكن مستغربا أن يروا صورته تنعكس على صفحة القمر.

أمام تفاقم الأزمة واشتداد وقع حركة المقاومة الفدائية على المستعمر الذي فشلت جميع مخططاته في مواجهتها، لم تجد إدارة الحماية بدا من الاعتراف بأنه لا حل إلا بإعادة النظر في مشكل العرش. غير أن إجماع الشعب بإصرار على ألا حل إلا بعودة ابن يوسف إلى عرشه جعل الاستعمار يرضخ ويستسلم لإرادة الأمة.

وهكذا عاد الملك المجاهد من منفاه يحمل بشرى استقلال المغرب، وتابع مسيرة الجهاد لبناء هذا الاستقلال.

وإذا كان الأجل المكتوب قد عجل انتقال السلطان المناضل إلى جوار ربه، قبل أن يحقق للمغرب كل ما كان يسعى إليه، فإن العناية الإلهية كانت رفيقة بهذا البلد حنوة عليه، حين سلمت الأمر لخير من يتحمل الأمانة ويكمل الرسالة، رفيقه في الكفاح جلالة الملك الحسن الثاني رضي الله عنه. فرعى جميع اللبنات التي وضعها والده المقدس، وثبت كيانها، ثم انطلق في مسيرات للتشييد والتوحيد بوأ بها المغرب مكانة متميزة.

وها هو المغرب اليوم، في عهد ملكه الشاب جلالة سيدي محمد السادس أيده الله ونصره، يسعى ليس فقط للمحافظة على هذه المكانة المرموقة، ولكن لمتابعة الجهاد بروح التطوير والتجديد والتغيير على شتى الأصعدة ومختلف المجالات، حتى يتاح للأجيال الناشئة والمقبلة أن تنعم بثمرات الكفاح الذي خاضه الآباء والأجداد بتضحية وفداء، وأن تواصل هذا الكفاح

لمزيد من الرقي والازدهار، وقبل ذلك للحفاظ على استقلال المغرب ووحدة ترابه وشعبه واستمرار القيم والمقومات المكونة لهويته ومعها استمرار قدراته وطاقاته الجهادية للتغلب على ما قد يعترضه من أزمات وما قد يواجهه من تحديات في عالم يحكمه التنافس والتسابق، ويستبد به التناقض والصراع.

ولا بدع أن تتحقق هذه الآمال، ونحن نستحضر صحائف الجهاد الخالدة التي تبرزها ذكرى ثورة الملك والشعب، هذه الذكرى المجيدة التي ترتبط بعيد الشباب الذي تحتفل فيه الأمة بذكرى ميلاد ملكها باعتبار جلالته رمزا لشبابها المتجدد، وباعتبار ذكرى ميلاده أطال الله بقاءه، مليئة بالمعاني العالية والمغازي السامية، ودالة على فلسفة عميقة ما أجدرنا أن نتأملها، ونحللها، ونستخرج منها المرامي والغايات والأهداف، حتى يأخذ شبابنا مكانه الذي هو جدير به وينهض بالدور المنوط به، ويحقق الآمال المعلقة عليه.

أشكر لكم حسن إنصاتكم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

منهج التوفيق في الفكر الحسني
بين
الأصالة والتجديد

عرض مقدم للدورة الربيعية لأكاديمية المملكة المغربية 19 – 20 –21 محرم 1421 هـ 19 – 25 – 26 أبريل 2000 م وموضوعها : (فكر الحسن الثاني : أصالة وتجديد).
وكانت وفاة جلالته رحمه الله بعد ظهر يوم الجمعة 9 ربيع الثاني 1420 هـ 23 يوليوز 1999م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

السيد رئيس الجلسة

السيد أمين السر الدائم

السيد أمين السر المساعد

زملائي الكرام

حضرات السيدات والسادة

يسعدني أن أقدم هذا العرض الموجز حول الموضوع الذي اقترحته علي أكاديمية المملكة المغربية، والذي يقضي في مستهل المحور الثالث المركز على "خصوصيات الفكر الحسني"، باستخلاص منهج جلالة الملك المغفور له مولانا الحسن الثاني، مع تحديد أنه "منهج التوفيق بين الأصالة والتجديد" عبر "الوسطية والاعتدال".

وقد حاولت فيه أن أحلل نظريا هذا المنهج في حد ذاته، دونما حاجة إلى استعراض آراء جلالته ومواقفه وتتبعها، خشية الطول وتجنبا للتكرار، لا سيما وقد تكفلت بتناول هذه الآراء والمواقف عروض المحورين الأولين اللذين انصبا على "مكونات الفكر الحسني" و"تجليات" هذا الفكر.

فأقول وبالله التوفيق :

يعتبر جلالة الملك المغفور له مولانا الحسن الثاني رحمة الله عليه، في طليعة ملوك المغرب ورؤساء الدول العربية والإسلامية وقادة العالم.

وهي مكانة متميزة تفرد بها، لثقافته الواسعة العميقة، وشخصيته القوية المتألقة، وحنكته الطويلة الغنية، مما انعكس بإيجاب على ما حققه من عظيم المنجزات، وما كان له من مواقف على الصعيد الوطني والإقليمي والدولي، وما قام به من خطوات ثابتة وشجاعة من أجل إحلال السلام في كثير من بؤر التوتر بالعالم.

لقد كان الملك المنعم حريصا على جعل المغرب وأقطار العروبة والإسلام وجميع الدول السائرة في طريق النمو، مؤهلة لاستقبال الألفية الثالثة، في إطار حر آمن مطمئن ومستقر، وفي سياق عالمية تحفظ لهذه البلدان كيانها الذاتي وهويتها الحضارية والثقافية، وتجعلها قادرة على التطوير والتجديد، واكتساب مقومات العصر العلمية والتقنية، وسلوك سبيل الرقي والتقدم.

وإن المحلل لهذا التوجه في الحكم، لا يلبث أن ينتهي إلى أنه نابع من فكر خصيب، أساسه المعرفة المنظمة والمنسقة، المرتكزة على حقائق الملاحظة والتجريب، والفحص القائم على منهج منضبط دقيق، تخير إجراءه على نحو يحقق شتى غاياته والأهداف ؛ بدءا من المفهوم الذي يتعدى كون المنهج طريقة تعتمد المنطق والعقل، في تتبع تجريدي للمقدمات والإفضاء بها إلى نتائج، ليصبح وسيلة للتعامل مع هذه الحقائق، ليس فقط بالوصف والتفسير، ولكن لتأويلها ونقدها، بقصد التحكم في حركيتها وربطها بالنسق العام، قبل توظيفها لاكتشاف حلول ملائمة للحاجات ومستلزمات الواقع. وغالبا ما

يسبق بلورة هذه الحلول، إرهاص بها، بل إرهاص حتى بالمشكلات قبل حدوثها.

من هنا، فإن المنهج الحسني يشكل منظومة متكاملة تبدأ بإدراك واع للواقع، وما يترتب عن هذا الإدراك من منظور هو الذي يفتح الآفاق لأساليب التدبر، وكذا وسائل المعالجة، في سياق مشروع مجتمعي قائم على بناء حديث لدولة أصيلة ذات كيان عريق تضرب جذورها في عمق التاريخ، وتتحمل -كما تحملت في الماضي- رسالة حضارية وثقافية، تؤديها عن أهلية وجدارة، وبتفتح وتسامح.

ولعل أهم ملامح هذا المنظور – اللامرئي في جل الأحيان – هو المتمحور حول عنصر "التوفيق" الذي ينطلق من قبول مختلف الآراء والمواقف، مهما تكن متباينة أو متعارضة، والتعامل معها بما يذيب فوارقها ويبرز مواطن التقائها، مما يجعل المتوسل بهذا العنصر التوفيقي قادرا على استنتاج رأي خاص به، يعتمد ما يراه مناسبا من هذه المواطن، وصالحا للتكيف مع ما يقصد إليه. وهو ما لا يمكن أن يتحقق إلا بسبر أغوار تلك المواقف والآراء والنفاذ إلى بواطنها، بعيدا عن النظر إليها بتسرع وسطحية، وفي غير اكتفاء بالتخير والانتقاء، وبعملية تلفيقية.

والتوفيق الذي تميز به منهج جلالة الملك المكرم بعفو الله، والذي أراد المحور المقترح التركيز عليه، يمس عمق الفكر العربي الإسلامي المعاصر وما يرتبط به من قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، ألا وهو "التوفيق بين الأصالة والتجديد".

والمقصود بالأصالة مجموع الأصول الصحيحة وما هو منقول ومتواتر بصدق وأمانة، مما يكشف حقيقة وجود مجتمع معين، وما هو منسجم مع تاريخ هذا المجتمع وواقعه، ومما يعطيه تميزا لا يلبث أن ينعكس حتى على ما يجد ويبدع، لما يكون له من صلة تشده بتجذر وعراقة إلى تلك الأصول، وما تمثله من ثوابت وقواعد، سواء في مجال الرؤى والأفكار، أو المعارف والعلوم، أو العادات والتقاليد.

أما التجديد، فيبدو لأول وهلة متعارضا مع الأصالة، إذ هو يقوم على الابتكار والاختراع، والظهور بشيء جديد، أو إحداث تبديل وتغيير في شيء قديم، يكون فيه تحديثه ليناسب المرحلة المعاصرة، ويؤهل للاستمرار في المستقبل. وهو أمر خاضع لقانون التطور من جهة، ولمدى طموح المجدد وما له من قدرات لإجراء هذا التحديث من جهة ثانية، بغض النظر عن موقف من يتلقاه. وهو في معظم الأحيان موقف أميل إلى الرفض منه إلى القبول، لارتباط عموم الناس فطريا بما هو معروف ومتداول لديهم، وإن يكن غير نافع أو صالح، ولخشيتهم من كل ما هو عليهم جديد غير معهود، حتى وإن كان لهم فيه خير كثير؛ في وقت قد يرحب البعض بهذا الجديد ويتحمسون له، لمجرد أنهم يعادون القديم بطريقة عشوائية لا يستندون فيها إلى أي مبرر، دافعهم إلى ذلك الجهل وتعشق كل طارئ.

إلا أن الموقف من التوفيق قد يسلك اتجاها آخر يتسم بالموضوعية المنبثقة من تمثل أبعاد التجديد وآفاقه، وتصور دوافعه والحوافز إليه، وقبل هذا وبعد استيعاب إيجابياته، وما هو مؤسس عليه من دعائم ثابتة وركائز راسخة، في غير تعارض أو تناقض مع الأصالة الحق. وهو ما لا يتحقق إلا عند ما يكون

المجدد متمكنا من الأدوات الفكرية والمنهجية المسعفة له في إجرائه والظهور به، مع الاستناد إلى معرفة دقيقة ومتكاملة بما هو أصيل، وتشرب له عميق وفاعل، واستحضار لما هو فيه مؤهل للانسجام مع الواقع والاندماج فيه، كي يستجيب لمتطلباته بمنظور مستقبلي يراعي المستحدثات والمستجدات، وما هو مرتقب ومتوقع، وكذا ما هو غامض لا تتضح عواقبه القريبة أو البعيدة إلا لذوي البصر النافذ والبصيرة الملهمة، إن لم أقل لذوي المواهب الربانية والفتوحات اللدنية.

وحين يتاح شيء من هذا أو كله للمقدم على التوفيق، فإنه يهتدي إلى العناصر القادرة على أن تفضي إليه وتقنع به، لا سيما حين تكون هذه العناصر مشكلة لروح الأصالة وكنهها، وفي طليعة ما به تتفرد وتتميز.

وعندما نتأمل من هذه الزاوية قضية التوفيق كما عالجها مولانا الحسن الثاني نور الله ضريحه، فإننا نجد أنه اعتمد فيها على مقوم أساسي يطبع الأصالة في جميع مجالاتها العقدية والتشريعية والسلوكية، وما انعكس منها على التراث الثقافي والحضاري، إضافة إلى أنه غدا في المرحلة المعاصرة شعارا تتطلع إليه جميع الأمم والشعوب، تجنبا لما يؤدي إليه عكسه ونقيضه، مما تعاني ويلاته بعض المجتمعات.

ويكمن هذا المقوم في ميزة "الوسطية والاعتدال" القابلة ليس فقط لتكون أداة توفيق بين الأصالة والتجديد، ولكن لتساعد على مواجهة كثير من المشكلات الآنية المستعصية، ورفع عدد من التحديات الداخلية والخارجية، ولتمكن كذلك من مد قنوات التواصل مع الآخر، للتعارف والتعايش، في تبادل للمصالح والمنافع، وفي استعداد للتحاور على أساس من الاحترام

والسماحة، مهما يكن الاختلاف معه في الهوية بمكوناتها الدينية واللغوية والفكرية، وكذا في الاختيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وليس من شك في أن جلالة الفقيد العزيز، وهو يدعو إلى الوسطية والاعتدال، وينهج سبيلهما في كل ما يرومه وينهض به، سواء على الصعيد المحلي أو على مستوى العلاقات الإقليمية والدولية، كان – وهو أمير للمومنين- ينطلق مما حث الإسلام وألح عليه في هذا المجال، باعتباره دين الوسط المبعوث به لهداية الناس كافة، من خلال النموذج الذي يكون عليه المسلمون، والرسالة التي يتحملون مسؤولية تبليغها ؛ وقد جعلهم الله "أمة وسطا" وأرادهم كذلك وفق ما نص عليه القرآن الكريم.

إن "الوسطية" في هذا السياق – وكما هو دال عليها مفهومها المباشر- تعني الفضيلة، أي صفة حميدة تكون بين شيئين قبيحين فيهما إفراط وتفريط.

وتتجلى في مسائل الدين الذي يرفض الغلو، كما يرفض التقصير، وتتجلى كذلك في شؤون الحياة وشتى أمورها التي ينبغي أن يكون موقعها السليم بين صفتين ذميمتين، كالمنع من الطيبات وتحريمها من جهة، وملازمتها والإكثار منها والمبالغة في ذلك من جهة أخرى. وهكذا مع مختلف الصفات كالشجاعة، فهي بين التهور والجبن، وكالكرم فإنه بين البخل والإسراف، وما إلى ذلك، إذ يكون خيره في الوسط، مما أبرزه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "خير الأمور أوساطها". ثم إن الوسط هو المكان الذي تلتقي فيه جميع الأطراف. والالتقاء يعني الإجماع والعدالة والاستقامة على الطريق، في التعامل مع الحياة والناس، على أساس أن هذا التعامل في جميع مظاهره عبادة، أو ينبغي

أن يكون عبادة ؛ طالما أنه يسعى إلى تحقيق صلاح الفرد والجماعة، سواء في الدنيا أو الآخرة.

وواضح أن هذه الوسطية تعني "الاعتدال" الذي هو نقيض التطرف، أو ما كان يعرف في القديم بالغلو والتشدد والتنطع. وهي جميعا تدل على مجاوزة الحد في كل شيء. ويكفي لإبراز الموقف الإسلامي منها قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم "هلك المتنطعون"، وهم الغالون والمتقعرون الذين يتمسكون بالشكليات والجزئيات والمسائل الخلافية، ينشرونها ويبثون الجدل حولها، ويسعون من خلالها إلى إغراء البسطاء من الناس، والتسرب إليهم والتأثير عليهم، وإيهامهم أنها أساس الدين ؛ على ما قد يكون فيها من شدة وصعوبة وتعجيز، مقابل اليسر والسهولة، وما هو في الإمكان. وكل من هذين التوجهين يكون له انعكاس على الحياة الخاصة والعامة، وعلى العلاقات مع الآخرين، في كل حقل تتبلور فيه هذه العلاقات التي ينبغي أن تتسم بتوازن حكيم، يحفظ للجميع مكانته، ويضمن له حريته، ويحترم إرادته، ويحقق مساعيه وأهدافه، في إطار اختياراته ومنازعه، وفي نطاق ذاته الفردية وخصوصياته الشخصية.

وغير خاف أن آليات هذا المنهج التوفيقي، حين تتجاوز مجالا معينا ليتم التعامل بها في غيره، تكتسي صعوبة في التطبيق يقتضي التغلب عليها مرونة في الفكر وحكمة في الرأي، إلى جانب شرط العلم الذي بدونه لا يتأتى إمكان استفراغ الوسع وبذل الجهد، أي لا يكون الاجتهاد؛ بكل ما يقتضيه من فهم وتفسير، وقياس واستدلال، وتأويل واستنباط، وسعي إلى الحقيقة عبر الوجوه المؤدية إليها ؛ داخل منظومة الأصالة وما هو فيها لازم ملزم عقليا وشرعيا

ومن باب القطعيات، وفي تحفز إلى التجديد، مع الابتعاد عن الابتداع في ملمحه القدحي، أي المبالغ فيه والزائد على ما هو مطلوب، لتحقيق التوفيق الرامي إلى إصلاح الأحوال وتطوير الحياة.

السيـــد رئيـــس الجلســـة

السيد أمين الســـر الدائـــم

السيد أمين السر المساعـــد

زمـــلائـــــي الكـــــرام

حضرات السيدات والسادة

ذلكم هو المنهج الذي سلكه الراحل العزيز مولانا الحسن الثاني قدس الله روحه، في مباشرة مختلف القضايا الوطنية والإقليمية والإسلامية والدولية.

وهو منهج متكامل ومتماسك، أقامه رحمه الله على رؤية واضحة، وتوسل فيه بآليات كانت دائما تمثل أدوات إجرائه.

ومن خلال هذا المنهج، تشكلت مدرسة حسنية كرع من ينبوعها الفياض جميع الذين أسعدهم الحظ بشرف العمل إلى جانب مؤسسها المشمول بعفو الله وكرمه.

وليس من شك في أن من خريجي هذه المدرسة، إن لم يكن أول خريجيها وأبرزهم، فلذة كبده، خلفه ووارث سره مولانا أمير المومنين صاحب الجلالة الملك المعظم سيدي محمد السادس أعز الله أمره.

وإنه لصعب علي في ختام هذا العرض أن أتحدث عن جلالته، لما يتسم به شخصه الكريم من خصال متميزة وفضائل متفردة تحتاج لمن لمسها مثلي عن قرب إلى نفس طويل للحديث عنها ومجال متسع.

ويكفي أن أقول بأنه – حفظه الله ورعاه – يعد في طليعة شباب المغرب نبوغا وجدا ومعرفة. فبالإضافة إلى وداعته وشهامته ورقة أحاسيسه، وإرادته القوية وعزمه الثابت، والشعبية الكبيرة التي يتمتع بها، والإجماع عليه باندفاع وعفوية وحب، فإن جلالته يختزن مواهب ذهنية متعددة وإمكانات فكرية متنوعة صقلها التزام مدرسة والده التي قامت على أساس متين من الوطنية والجهاد، ومن العلم والحكمة، ومن التمرس والحنكة، وتميزت بالتوفيق المحكم بين الأصالة والمعاصرة، أي الارتباط القوي بمقومات الهوية المغربية في بعدها العربي الإسلامي، مع الانفتاح اليقظ على مستلزمات الحداثة، والتفتح الواعي على ما عند الغرب في حضارته وثقافته وتفوقه التكنولوجي وجميع مظاهر تقدمه، وكذا مع التطلع المشروع للاندماج الإيجابي في العالمية بتعاون وتعادل، ومرونة واتزان.

أشكر لكم حسن إنصاتكم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ثقافة الحسن الثاني
أصالة متجددة وممارسة رائدة

نص العرض الذي قدم بارتجال في الندوة الدولية التي نظمتها جمعية رباط الفتح تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك سيدي محمد السادس عن : "الحسن الثاني : سيرة وأمجاد"، أيام 1-2- 3-4 ربيع الثاني 1421 الموافق 6 –9 يوليوز 2000. وقد نشرت ضمن أعمال الندوة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أصحاب المعالي والسعادة

حضرات السيدات والسادة

يسعدني أن أشارك في هذه الندوة العلمية القيمة التي تعقدها جمعية رباط الفتح، مساهمة منها في تخليد ذكرى الملك المنعم جلالة الحسن الثاني تغمده الله بواسع رحمته وجزيل مغفرته. وأقترح أن ينصب العرض الذي أشرف بتقديمه على جانب مهم من شخصية هذا الملك الفذ، ألا وهو المتعلق بثقافته[1] وما كان يطبعها من أصالة متجددة وممارسة رائدة.

وبحكم الإيجاز المطلوب، فسوف أقتصر على إثارة أربع نقط :

الأولى أشرح فيها مفردات هذا العنوان.

الثانية أستعرض فيها العوامل المؤثرة في تشكيل ثقافة الحسن الثاني.

[1] سبق للجراري أن كتب في هذا الموضوع. أنظر: بحث "الثقافة المغربية في ظل صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني "وبحث "الحسن الثاني رجل الأدب والإبداع وفنون القول " المنشورين في كتابه: "معالم مغربية".

الثالثة أحلل فيها مفهوم الثقافة عند جلالته ومدى ارتباط النظرية فيها بالتطبيق.

الرابعة أقدم فيها بعض المظاهر التي تبلور هذه الثقافة.

* * *

إن ما أعنيه بالثقافة هو الرصيد المعرفي والروحي والسلوكي الذي يكون الذهن، ويربي العقل، ويهذب الطبع، ويرهف الإحساس، انطلاقا من خصوصيات تميز الأفراد والجماعات، وتوصل بالآخرين. وتتجلى في النشاط الذي يمارسه هؤلاء – بوعي وبدون وعي – مع اعتماد التوارث والإثراء على مر الأجيال.

أما الأصالة، فتعني الارتباط بالأصول، أي بالذات في مقوماتها الثابتة ومكوناتها الراسخة. وتكون متجددة، أي غير جامدة، إذا اتسمت بالمرونة، وانطلقت من الأسس والدعائم والجذور، لاكتساب ملامح جديدة عبر قدرتها على التطور والنماء.

وأما الممارسة، فهي التطبيق وعدم الاكتفاء بالتنظير، مما يدل على إمكان بلورة هذه الأصالة المتجددة في أعمال ومنجزات. وتكون هذه الممارسة رائدة إذا كانت مطبوعة بالإبداع، أي غير مسبوقة، إذ تكون مقترنة باتخاذ مبادرات.

وحين نتأمل العوامل التي أثرت في تشكيل ثقافة جلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه، فإننا نجدها متعددة ومتنوعة، وأبرزها :

1- الموهبة الشخصية أي الذاتية، من ذكاء حاد، وذاكرة قوية مع بداهة الاستحضار، والرؤية النابعة من إلهام مرهص ذي نظر بعيد.

2- التكوين المدرسي التربوي والتعليمي الذي كان والده المغفور له جلالة محمد الخامس قدس الله روحه، يسهر عليه بنفسه، والذي تجلى في دراسة متينة ببرامج قوية ومتماسكة تعتمد ازدواج لغة التعليم، مع دروس إضافية في العربية والدين، ومع تشدد كان جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه يحرص عليه، مما تبرزه النتائج المتفوقة التي كانت تتوج هذه الدراسة. كما تبرزه بعض التقارير التفتيشية التي كان والدي رحمة الله عليه يحررها عن سير تلكم الدروس وجهود المدرسين القائمين عليها، باعتباره معينا في مندوبية المعارف بالقصر الملكي لتفتيش التعليم العربي في المغرب، مكلفا بتفتيش المعهد المولوي، وبحصص خصوصية للتدريس والمراجعة مع جلالته.

وقد تعزز هذا التكوين بنمط آخر في سياق علمي وسياسي وطني، من خلال اللقاءات والمقابلات التي كانت له مع شخصيات مغربية وأجنبية، ومن خلال الاحتكاك بوالده والتأثر بمدرسته[2] القائمة على التوسط والاعتدال، والنظرة الشمولية والتوفيق بين الأصالة والمعاصرة، والمرتكزة أساسا على الإيمان بالمقومات الدينية والوطنية وما يشكل الهوية؛ مع الميل إلى الهدوء والاتزان وضبط النفس وعدم الاندفاع، ولكن في نفس الوقت مع المقدرة على التحدي بإقدام وشجاعة، وفي غير تهيب أو تردد لمواجهة الاستعمار ورجال

[2] أنظر عن هذه المدرسة ما كتبه صاحب هذا العرض في بحث "مدرسة محمد الخامس في سياق الفكر السياسي المغربي من خلال ظاهرة الجنوح للسلم"، وكذا بحث "محمد الخامس باعث فكر المغرب ومجدد نهضته الأدبية"، المنشورين في الكتاب المشار إليه.

إدارته. وكانت تجربة المنفى عامل بلورة وصقل لهذا الملمح البارز في شخصيته. ولعلنا في الجانب التكويني أن نضيف تخصص جلالته في العلوم القانونية وما نال فيها من درجات جامعية عليا، وأن نضيف كذلك شغفه بالمطالعة وتنمية التثقيف الذاتي، في توجه موسوعي كان فيه للثقافة العربية الإسلامية – قديمها والحديث– نصيب وافر، مع عناية خاصة بالجانب الأدبي والفني الذي كان يتميز فيه بالذوق الرفيع والإبداع المتفرد.

ولا بدع أن تنتج هذه العوامل مجتمعة، مثقفا بشخصية قوية قادرة على الممارسة.

وما كان لهذه الممارسة أن تثمر في خط ريادي، لولا انطلاقها من مفهوم واضح للثقافة، بلوره – نور الله ضريحه - عبر الكثير من خطبه وكتاباته في السمات الآتية :

1- الفكر الغابر وما خلف من آثار، مع الانطلاق من الرصيد التاريخي والحضاري للمغرب.

2- الفكر المعاصر وما يدعه لاقتباس كل ما هو جديد.

3- الشعور والوجدان والذوق والعرفان.

4- العادات والتقاليد.

5-كل تعبير وتصوير للمشاعر ومبتكرات الخيال.

6- الثقافة ليست ترفا أو فرض كفاية، بل هي حق لكل مواطن.

7- ضرورة اتصالها بالواقع الاجتماعي، وارتباطها بالشخصية الوطنية، وانصهارها مع الذات المغربية والقيم الدينية والمقومات الثابتة.

8- نظرها البعيد للمستقبل.

تحفزا من هذا الوضوح في المفهوم، تسنى لجلالة الملك المنعم أن يربط التنظير بالتطبيق، لا سيما وقد أسعفته معرفته المكتملة في أن يتوسل بمنهج ينطلق من رؤية نافذة، ويعتمد أدوات إجرائية ملائمة لتحقيق الأهداف واتخاذ مبادرات رائدة. وهو ما تجليه المظاهر التي بلورت الثقافة الحسنية، فما هي هذه المظاهر؟

إنها مظاهر متنوعة ومتعددة ومتكاملة في تناغم وتناسق وانسجام، مما ينم عن مشروع حداثي لبناء مغرب جديد، أي مغرب تحرر من الاستعمار، ويسعى للتحرر من التخلف، ويتطلع لفتح آفاق مشرقة للمستقبل.

فقد ارتسم المشروع بجلاء ووضوح في ذهن جلالته رحمه الله، وخطط له بإحكام، وسار في تنفيذه بمنهجية ملائمة قادرة أدواتها وآلياتها على بلوغ الغايات.

والغايات هي تحقيق تنمية شاملة، أي بناء المغرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وعلميا، مع استكمال وحدته الترابية.

ولو شئنا الإشارة إلى بعض هذه المظاهر لأجملناها فيما يلي :

1- إبداعاته العلمية والأدبية، بدءا من خطبه في عهد الحماية منذ شبابه الأول، وفي ظل الاستقلال وهو ولي العهد، ثم بعد أن تولى الملك؛ إلى استجواباته ورسائله العامة والخاصة التي من بينها رسالته إلى الأمة الإسلامية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري. ولإظهار مدى غزارة هذا الجانب، فإنه يكفي الرجوع إلى مجموعة "انبعاث أمة" في أسفارها الأربعة والأربعين الممثلة

لما صدر عنه طوال عهده الزاهر. وفي هذه الإبداعات[3] تبرز كذلك مذكراته المتجلية في كتاب "التحدي"، وكذا محاضراته التاريخية والسياسية والدينية التي في طليعتها دروس رمضانية أربعة، ألقاها في إطار الدروس الحسنية، ومن مركز تبريزه في العلم الذي هو أحد أركان الإمامة الشرعية المتمثلة في إمـــارة المومنين :

أ- الأول شرح فيه الحديث الشريف "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" قدمه يوم الأحد 12 رمضان 1386 الموافق 25 دجنبر 1966.

ب- الثاني تناول فيه الحديث الشريف "رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"، قدمه يوم السبت 14 رمضان 1387 الموافق 16 دجنبر 1967.

ج- الثالث أداره على الآية الكريمة " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا" ألقاه يوم الأربعاء 13 رمضان 1388 الموافق 4 دجنبر 1968.

د- الرابع تناول فيه قول الله تعالى " إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير"، ألقاه يوم الخميس 12 رمضان 1398 الموافق 17 غشت 1978.

[3] تذكر في هذه الإبداعات أشعاره التي أورد بعضها بحث "الحسن الثاني رجل الأدب والإبداع وفنون القول" المشار إليه آنفا.

2- منجزاته العلمية المتمثلة في الممارسة عبر انسجام منسق بين الأصالة والمعاصرة، وهي أكثر من أن تعد لتجليها في مختلف ميادين تدبير شؤون الدولة، ومنها على الخصوص :

أ- سياسيا من خلال التوفيق المحكم بين إمارة المؤمنين والملكية الدستورية مع التعددية والحوار ثم التناوب. ومثلها الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية، وكذا الانتماء العربي الإسلامي والتفتح على العالم الغربي، إضافة إلى إعداد القوة وتجهيز الجيش مع الدعوة إلى السلم التي جلتها المسيرة الخضراء لاسترجاع الصحراء، وما أعقبها من قبول الاستفتاء.

ب- اقتصاديا وفق ما تبرزه العناية بالفلاحة والصناعة التقليدية والصناعة الحديثة، والاهتمام بنمو المدن والحواضر والبوادي والعالم القروي.

ج- عمرانيا على نحو ما تمثله حركة دائبة للبناء، إلى حد غدا المغرب ورشا عظيما؛ مع الإلحاح على وضع حد للفوضى البنائية، في تنسيق بين العمارة الأصيلة والهندسة الحديثة، وفي سعي لصيانة المدن العتيقة وما فيها من مآثر، كإنقاذ مدينة فاس، وترميم جامع الكتبية بمراكش. وإنه ليكفي في هذا الباب ذكر ضريح محمد الخامس بالرباط، ومسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، ليتضح مدى ما أدركه فن التشييد المعتمد على تشكيلات الزليج والجبس، وتزويق الخشب وسائر ألوان الزخارف.

د- فكريا ولغويا وفنيا، مما يظهر في الإشادة الدائمة بالهوية المغربية، في سياق مكوناتها العربية الإسلامية، والاستشهاد في الخطب والرسائل بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، سواء أكانت هذه الخطب والرسائل بالعربية أو الفرنسية والإنجليزية. ويظهر هذا التوجه كذلك في

الاعتزاز باللغة العربية والعناية بالفرنسية وغيرها من اللغات الأجنبية، وفي الاهتمام بالمرجعية التاريخية، وبالتراث المكتوب، وما في الخزائن المغربية من نفائس لم يقتصر في حفظها على المكتبات المعروفة، ولكن زاد فأسس الخزانة الحسنية وفتحها للدارسين والباحثين وطلاب العلم. وبالعناية نفسها، أنشأ المجلس العلمي الأعلى، والمجالس العلمية الإقليمية التي تعمل بتوجيه منه وتحت إشرافه المباشر؛ في الوقت الذي أقام "أكاديمية المملكة المغربية" التي أحظاها برعايته السامية، والتي غدت مجمعا عالميا يلتقي فيه مفكرون مغاربة وآخرون يمثلون أقطارا شتى شقيقة وصديقة. هذا إلى جانب الاهتمام بالمسرح والسينما، وبالموسيقى والتشكيل، وسائر الفنون والتراث الشعبي عامة.

هـــ- إنسانيا، في نطاق إيلاء أهمية خاصة للتنمية البشرية، من حيث العقيدة على نحو ما يجليه التمسك بالإسلام والتشبث بالمذهب المالكي، مقابل الأخذ بالمظاهر الحضارية الحديثة، وفي غير تعارض مع محاولة التقريب بين المذاهب، ومع محاورة سائر الديانات.

وقدساير هذا التوجه اهتمام متزايد بالتربية والتعليم والرياضة، مع العناية بالقرويين العتيقة، وتأسيس دار الحديث الحسنية؛ في مقابل إنشاء مؤسسات عصرية متمثلة في المدارس والجامعات، حيث تحتل الفتيات إلى جانب الفتيان الموقع اللائق بهن، والكاشف عن الدور الذي تنهض به المرأة.

وفي إطار تكوين المواطن الفخور بهويته وما يرتبط بها من مظاهر، وجه – رحمة الله عليه – عناية خاصة للعادات والتقاليد، مما يجليه الاحتفاء بالأعياد المحلية، كعاشوراء وحاكوزة، وكذا إحياء اللباس التقليدي وتطويره؛ والاهتمام

بالطبخ المغربي وتجديده على نحو إبداع كسكس من الأرز أطلق عليه "سميدة الأرز".

أصحاب المعالي والسعادة

حضرات السيدات والسادة

هذه بعض ملامح ثقافة جلالة المغفور له مولانا الحسن الثاني رضوان الله عليه، قدمتها في سياق ما تتميز به من أصالة متجددة وممارسة رائدة، أثمرتا مدرسة فكرية تربت في أحضانها أجيال يتقدمها خليفته ووارث سره جلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره.

وإني بعد هذا لأعتذر عما قد يكون عرا هذا التقديم من نقص مرجعه إلى الوقت المحدد للعروض.

أشكر لكم حسن إنصاتكم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

سلمية المسيرة الخضراء

عرض قدم للندوة الدولية التي نظمتها المندوبية السامية والمجلس الوطني لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، حول "الدور الرائد لجلالة المغفور له الحسن الثاني في ملحمة الاستقلال وتحقيق الوحدة الترابية" بالرباط من 5 إلى 7 شعبان 1421 هـ الموافق 2-4 نونبر 2000م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة

حضرات السيدات والسادة

يسعدني أن أشارك في هذه الندوة الدولية التي تنظمها المندوبية السامية والمجلس الوطني لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، والتي تتناول "الدور الرائد لجلالة المغفور له الحسن الثاني في ملحمة الاستقلال وتحقيق الوحدة الترابية" ؛ وذلكم وفاء لروحه الطاهرة، وتخليدا للذكرى الخامسة والعشرين للمسيرة المظفرة الخضراء.

وأقترح داخل إطار هذا الموضوع الغني والهام، أن أتحدث عن "سلمية المسيرة الخضراء"، من خلال نقط أعرضها باقتضاب، وفي استناد إلى النصوص الصادرة عن جلالته طيب الله ثراه وهو مبدع هذا الحدث العظيم.

في البداية أود أن أطرح المفهوم الذي كان يعطيه الملك المنعم للسلم، إذ هو عنده يعني التمكن من نيل المراد بدون خسائر أو بخسائر أقل. وهذا كان واضحا عند جلالته تغمده الله بواسع رحمته منذ اعتلائه العرش. ويكفي أن نشير مما حققه بمواقفه السلمية إلى حدثين كبيرين :

الأول : الجلاء السلمي لجميع القوات الأجنبية عن المغرب. وقد تم على هذا النحو :

1) جلاء آخر جندي فرنسي في 2 مارس 61، أي يوم تتويجه.

2) جلاء القوات الإسبانية في آخر غشت 61.

3) إجلاء القواعد الأمريكية في مارس 63.

الثاني : استرجاع إقليم سيدي إيفني، باتفاق مع إسبانيا في 4 يناير 69.

إلا أن هذا المفهوم للسلم لا يعني بأية حال الاستسلام، وإن كانت الحرب في إطاره تعتبر المعركة الأخيرة. فقد قال في خطاب ذكرى ثورة الملك والشعب عام 75 : " إذا تمكنا أن ننال مرادنا ونوفر المال والأرواح، لكان من الأحسن أن نوفر المال والأرواح وننال مرادنا، ولكن :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب

فلا يسع المضطر إلا ركوبها"

وبعد أن تمثل بهذا البيت للشاعر الكميت زاد : " إنني أتأمل كثيرا فيما قاله ستراتيجي معروف : الحرب هي المعركة الأخيرة التي يمكن أن يركبها الإنسان إذا فشلت المعارك الدبلوماسية كلها".

وفي استجواب لجلالته رحمه الله مع البي بي سي يوم 12 يوليوز 87 قبل زيارته الرسمية لإنجلترا، ذكر " أن الحرب هي من بين كافة وسائل تسوية المشكل الأبعد عن القدرة على التوصل إلى ذلك". وقد كتب في (التحدي ص 293) : " إن الذي يزج اليوم بشعبه في نزاع مسلح، عليه أن يدرك أن أي حرب لا يمكن أن تكون مغامرة قابلة للحساب المسبق. ولهذا فقد فعلنا كل شيء لتجنب الحرب، وهذا هو سبب المسيرة الخضراء".

والحديث عن المسيرة الخضراء يقتضي تناول حدثها العظيم في سياق متكامل، يتبلور البعد السلمي من خلال مختلف جوانبه.

ولعل أول ما يلفت النظر في هذا البعد، تلكم المراحل التي سبقت المسيرة، والتي يمكن إجمالها في هذه النقط الست :

1) قرار الأمم المتحدة عام 65 بإنهاء احتلال إيفني والصحراء وتنظيم استفتاء بهذا الشأن.

2) قرار الأمم المتحدة عام 74 بوجود نزاع قانوني بين المغرب وإسبانيا، وإحالة هذا النزاع إلى محكمة العدل الدولية بلاهاي، لمعرفة نوع العلاقات التي كانت تربط بين الصحراء والمملكة المغربية.

3) تصريح الحكومة الإسبانية يوم 24 مايو 75 بعدم رغبتها في تمديد وجودها في الصحراء، وبعزمها على التعجيل بنقل السلط ووضع حد بصورة نهائية لهذا الوجود.

4) بلاغ مغربي موريتاني مؤرخ في 12 يونيو 75 بتأييد مسطرة الأمم المتحدة.

5) بلاغ مشترك مغربي جزائري بتاريخ 4 يوليوز 75، تؤكد فيه الجزائر أنه لا مطمح لها في الصحراء الغربية، وتسجل بكامل الارتياح التفاهم الحاصل بين المغرب وموريتانيا بشأن المنطقة.

6) خطاب جلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه يوم 16 أكتوبر 75، يخبر بجواب محكمة العدل الدولية على السؤالين المطروحين :

أ) أن الصحراء لم تكن أرضا مواتا.

ب) أنه توجد بين المغرب والصحراء صلات قانونية وروابط بيعة.

بعد هذه المراحل، يثار سؤال : لماذا وقع التفكير في مسيرة ؟

ونجد الجواب في الخطاب الذي ألقاه رضوان الله عليه بمراكش يوم 16 أكتوبر 75، إثر صدور حكم محكمة العدل الدولية بلاهاي في شأن الصحراء، قال : " فواجبي الديني كخادم البلاد وخادم الأمة وكأمير المومنين، وبما أن بيعتهم لي باقية في عنقهم، أن أقوم بواجبي وألتحق بشعبي في الصحراء".

وزاد مبينا كيف يكون هذا الالتحاق سلميا : "لم يبق شعبي العزيز إلا شيء واحد. إننا علينا أن نقوم بمسيرة خضراء من شمال المغرب إلى جنوبه، ومن شرق المغرب إلى غربه. علينا شعبي العزيز أن نقوم كرجل واحد بنظام وانتظام لنلتحق بالصحراء، لنحيي الرحم مع إخواننا في الصحراء.وكيف ستكون هذه المسيرة؟ سيشارك في المسيرة 350 ألف من السكان.... مسيرتنا ستذهب بدون سلاح". نعم لقد ذهبت فعلا بدون سلاح إلا ما كان من سلاح الإيمان وكتاب الله. وقد قال في ذلك رحمة الله عليه :

" لأن من الواجب أن نكون مزودين به. وقد هيأنا الخامسات[1]، لأن كل واحد في المسيرة سيكون له مدرس من قبيلته يتشارط معه، وكل واحد أعددنا له الخامسات، سواء كان رجلا أو امرأة".

أما المسيرة نفسها، فيكفي لإبراز سلميتها أن أشير إلى خطاب 16 أكتوبر 75 بمناسبة صدور حكم محكمة العدل الدولية، إذ قال قدس الله روحه مؤكدا هذه السلمية وواضعا مفهومها في إطاره الحق المقترن بواجب الدفاع عن النفس وصد العدوان : "مسيرتنا ستذهب فيها بدون سلاح. يجب أن نتفق على أننا لا نحارب إسبانيا، لأنها لم يعد لها دخل في المسألة، ونطلب من إسبانيا من الآن أن تسجل علينا أننا لن نحاربها ولن نشهر عليها الحرب ؛ لأنه

---

[1] مجموعة خمسة أحزاب قرآنية.

إذا ماتت روح مغربية، أو هلك مغربي واحد، فإنها ستكون مسؤولة عن ذلك أمام الرأي العام داخل إسبانيا، والرأي العام المغربي، والرأي العام العالمي. وأقول لإسبانيا إن 350 ألف مغربي ومغربية سيدخلون الصحراء. ليست لنا حرب مع إسبانيا أو أي مشكل آخر، مع العلم أن إسبانيا قررت الخروج من الصحراء. فلتخرج وتترك الأرض لأصحابها. ولكن مقابل هذا أقول إن المغرب مستعد، بل من الواجب عليه أن يقوم بواجب الدفاع عن النفس وحفظ الكرامة وصيانة الأرواح، فيما إذا وجد في طريقه حاجزا غير حاجز إسباني. إن كل حاجز إسباني اعترض طريقنا لن نحاربه. فإذن ليس هناك ما يدفع إسبانيا لمحاربتنا. أما إذا كان هناك عنصر أجنبي عن الإسبانيين فلن نتهاون في الدفاع، بل لن نتردد في الزحف. وإذ ذاك سيكون الزحف صدا للعدوان ودفاعا عن النفس. "وهو ما أكده في الخطاب الذي أعطى به إشارة انطلاق المسيرة من أكادير في 5 نونبر 75.

وتأكيدا لهذه السلمية، لم يكن مستغربا أن يأمر طيب الله ثراه بعودة المسيرة بعد أن أدركت الغاية التي كانت متوخاة منها. وهو ما أعلنه في خطاب من أكادير يوم 9 نونبر 75 إذ قال :

" .... إن مسيرتنا قد أدت رسالتها، وإنها قد أدركت هدفها، وإنها ولله الحمد قد حققت ما كنا كلنا - نحن وأصدقاؤنا ومحبونا — ننتظر منها. فلذا علينا شعبي العزيز أن نرجع إلى منطلقنا لنعالج الأمور والمشاكل بكيفية أخرى وأساليب جديدة... لنرجع إذن إلى منطلقنا، المتطوعون إلى طرفاية، خادمكم هذا إلى مراكش، ولنفتح بابا سوف تفتح لنا آفاقا جديدة. ولنسر على بركة الله موقنين بأن عملنا هذا أتى أكله وأكثر من أكله".

ويستمر سياق المسيرة السلمي حتى بعد نجاحها. فعلى الرغم من هذا النجاح المقرون باسترجاع الصحراء والاستقرار فيها وتنميتها، فإن المغرب قبل تنظيم الاستفتاء تحت إشراف الأمم المتحدة، تأكيدا لهذا النجاح، وثقة في الذات والحق، وتشبثا من المغرب بالحلول السلمية، وحرصا منه على إنقاذ المجموعة الإفريقية ومنظمتها من كل تصدع.

ففي مؤتمر القمة الإفريقية بنيروبي يوم 26 يونيو 81، قال رحمة الله عليه: ".... واعتبارا لهذا كله، ومن أجل أننا نريد بكل ما لأرادتنا من قوة إنقاذ مجموعتنا الإفريقية من كل ما من شأنه أن يهددها بالانفجار والتمزق، ومن أجل أننا نريد دون كلل أو سأم أن نحافظ لفائدة منظمة الوحدة الإفريقية وهي تقابل العالم كله على صورتها كمنظمة متماسكة واعية ومسؤولة، فإننا قررنا أن نأخذ بعين الاعتبار مسطرة استفتاء مراقب تراعي شروطه التطبيقية في آن واحد أهداف التوصيات الأخيرة الصادرة عن اللجنة الخاصة : لجنة الحكماء، وما للمغرب من اقتناع بحقوقه المشروعة".

وإيمانا من جلالته أكرم الله مثواه بسلامة هذا التوجه السلمي في حل المشكلات العويصة وتجاوز الأزمات الحادة، وتمسكا منه بالقانون والمواقف السياسية الحكيمة، ومواجهة للمشاكل بوعي متبصر وإدراك متعقل، اقترح وهو يستقبل وزير الداخلية الإسباني يوم 21 يناير 87 السيد خوسي باريو نويفو تشكيل " خلية للتفكير تنكب على بحث مشكل الجيوب الذي يجب إيجاد حل له في إطار الحفاظ على الحقوق الثابتة للمغرب وعلى المصالح الحيوية لإسبانيا في المنطقة".

بعد هذا يثار السؤال الآتي :

لماذا كان هذا التوجه إلى السلم عند جلالة الملك الحسن الثاني نور الله ضريحه؟

والجواب كامن في عوامل خمسة :

1) السير على نهج والده بطل التحرير جلالة الملك المجاهد محمد الخامس رضوان الله عليه، في تأثر واضح بمدرسته التي تبرز مواقفه لتحرير المغرب، مما يظهر في خطبه أثناء مفاوضات الاستقلال مع فرنسا وإسبانيا على نحو ما صرح به بمناسبة تدشين هذه المفاوضات في باريس يوم 15 فبراير 56، إذ ألح على "وحدة التراب المغربي" فقال : "إنه لا توجد بالنسبة إلينا أية حرية جديرة بهذا الاسم ومقبولة من النفوس، إلا في دائرة وحدة التراب القومي وعدم قبول أي تجزئة فيه". وبنفس اللهجة، تحدث في مدريد يوم 15 أبريل 56، مؤكدا "أن علاقتنا الجديدة ستبنى على أمتن الأسس، إذا ما تحققت مطامح الأمة المغربية في الوحدة، تلك الوحدة التي تضمنها المعاهدات ضمانا صريحا".

ومثل هذه التصريحات صدر عن جلالته في محاميد الغزلان يوم 25 فبراير 58، وفي الرباط يوم 10 أبريل 58 بمناسبة تسلم السلطة بإقليم طرفاية وغير ذلك.

وبنفس الرؤيا السلمية كان محمد الخامس رحمه الله ينظر إلى القضايا الخارجية، وفي طليعتها يومئذ حرب التحرير الجزائرية.

ففي خطبة له في طنجة يوم 17 شتنبر 57، أبرز أن " الشعب الجزائري هو في طليعة الشعوب التي تطالب بحقها في الحرية والاستقلال. وإننا لنعتبر السير في طريق العنف والقوة غلطا، لأن المشكل الجزائري الفرنسي مشكل سياسي لا يحل إلا بالوسائل السياسية وعن طريق المفاوضة".

2) السلام كان عند جلالة الملك الحسن الثاني قدس الله روحه اختيارا مبنيا على الاقتناع، وعلى إيمانه بأسلوب الحوار. فقد قال وهو يتلقى أوراق اعتماد السفير الإسباني أورتيغا ساليناس يوم 29 مارس 87" إننا نومن وسنظل نومن بالحوار. ولنا اليقين أننا سنجد لدا الحكومة الإسبانية والعاهل الإسباني نفس المشاعر والمبادئ".

وفي الندوة الصحافية التي عقدها بمراكش يوم 10 أبريل 87 مع نادي الصحافة لإذاعة أوربا رقم 1، صرح : "سنحاول الدفاع عن حقوقنا، ولكن عن طريق الحوار والحوار دائما ؛ ولا أفكر في وسيلة أخرى غير الحوار مع إسبانيا".

ولم يكن اعتماده على الحوار مقصورا على القضايا الوطنية، ولكنه كان يمارسه حتى في القضايا العربية والإسلامية، وفي طليعتها قضية فلسطين، إذ دعا إلى مؤتمرات قمة، مثل المؤتمر السابع الذي انعقد بالرباط في أكتوبر 74، والذي أكد الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطيني كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني ؛ والمؤتمر الثاني عشر الذي انعقد بفاس في شتنبر 82، والذي انتهى إلى مخطط السلام. وفي هذا النطاق توضع لجنة القدس التي ترأسها جلالته، وكل المبادرات السلمية التي ارتبطت بها.

3) مرجعية الرصيد الحضاري الأصيل لشعب مفطور على السلم وعلى التعايش والتسامح.

ففي خطاب 20 غشت 75 قال : "نحن نريد تحرير صحرائنا بالوسائل السلمية وبالطرق القانونية.... لأننا شعب لنا حضارة وتاريخ عريق في الأصالة. والشعوب الأصيلة والشعوب العريقة المجد هي التي تسعى دائما إلى حل المشاكل بالطرق السلمية".

4) طبيعة الدولة المغربية القائمة على رضى الأمة واقتناعها، وليس على التسلط والقوة والعنف.

ففي الخطاب الذي ألقاه يوم 22 أبريل 87 قال : "يتساءل الجميع : لماذا هذا البلد آمن مطمئن ولله الحمد ؟ لأن مؤسساته لم تقم على السرقة، بل قامت على المشروعية منذ مولاي إدريس الأول إلى يومنا هذا، من مشروعية إلى مشروعية، ولكن في إطار المشروعية الإسلامية : البيعة والوفاء بالبيعة والقيام بما تفرضه البيعة والدفاع عن المقدسات وعن الحصون وعن الإسلام ".

5) تشبثه بالقيم الإسلامية التي من أهمها الدعوة إلى السلم، على نحو قوله تعالى في الآية 62 من سورة الأنفال : " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله"، وقوله عز وجل في الآيتين 206 و207 من سورة البقرة " يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان". وهي دعوة مقرونة بالحث على الحوار في مثل قوله سبحانه في الآية 125 من سورة النحل : "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، "إذ الغاية هي تحقيق التعارف الهادف إلى تجاوز الاختلاف، وإلى تبادل المصالح والمنافع، وفق قوله تعالى في الآية 13 من سورة الحجرات: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" .

إلا أن الدعوة للسلم في هذا المنظور القرآني ترفض الاستسلام والانهزام، وتسمح بالقتال لرد العدوان، على الرغم من كون القتال يعتبر خرقا للسلام وجريمة. وهو ما تبرزه آيات كثيرة، كقوله عز وجل في الآية 189 من سورة البقرة" وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا" .

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة

حضرات السيدات والسادة

آكتفي بهذا القدر الذي آمل أن يكون ألقى الضوء على سلمية المسيرة الخضراء في سياق توجه حسني واضح يعتمد سياسة السلام والحوار.

وأشكر لكم حسن إنصاتكم

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

بواكير الكتابة الأدبية والبحث التاريخي
عند الحاج أحمد بلافريج

عرض قدم في الندوة العلمية التي نظمتها جمعية رباط الفتح يوم السبت 16 شعبان 1414هـ 29 يناير 1994م، تكريما للحاج أحمد بلافريج رحمه الله (نشر في كتاب الندوة : مع رموز الوطنية اللامعة الحاج أحمد بلا فريج ذاكرة الأمة – منشورات جمعية رباط الفتح – الطبعة الأولى– الرباط – 1997– ابتداء من ص 192).

لعل في طليعة الأعمال الجليلة التي تنهض بها جمعية رباط الفتح – وهي أكثر من أن تحصى أو تعد – هذا التقليد الحميد الذي سنته بتكريم المخلصين من فلذها والمبرزين من أبنائها الذين خدموا الدين والوطن، وجاهدوا في شتى الواجهات بما وهبهم الله من نبوغ وعلم ووطنية وقدرة على العمل الدؤوب والنضال المستمر، في تفان وصدق وتضحية.

وإذا كان التكريم لا يستوفي مدلوله الحق إلا حين يقام للمكرم في حياته، حتى يشعر بما يشهد له به ذووه وما يكنون له من تقدير وعرفان، فإن الأسف شديد أن الظروف المرضية التي كان يعانيها المرحوم الحاج بلا فريج حالت دون الاحتفاء به وهو على قيد الحياة ؛ وشاءت إرادة الباري عز وجل ألا يتم ذلك إلا بعد انتقاله إلى عفوه ورحمته.

وإني إذ أشارك في هذا التكريم، لأشعر بسعادة مضاعفة نابعة من التقدير العام الذي تكنه الأمة لهذا المجاهد الرائد، معترفة بما أسداه لها من أياد بيضاء على مدى عمره الحافل بالمكرمات، ونابعة كذلك من المكانة الخاصة التي له في نفسي بحكم الصلات الشخصية التي كانت لي معه، وكذا بحكم روابط الإخاء الصادق الذي كان يجمعه بوالدي- يرحمه الله وإياه- والذي اشتدت لحمته في أحضان العمل الوطني منذ بداياته في سنوات العشرين.

وقد كنت أود أن أتحدث في هذه المناسبة عن بعض جوانب الصلات الشخصية التي كانت لي مع الفقيد العزيز، والتي كان لها أثر كبير في توجيه مسير حياتي، بدءاً من استبدال تسجيلي في مدرسة أبناء الأعيان بمدرسة مَحمد جسوس، في أكتوبر سنة أربع وأربعين وتسعمائة وألف، وهو يومئذ مديرها؛

وإلى استدعائي سنة اثنتين وستين من باريز، حيث كنت أهيء دكتوراه الدولة، للعمل في السلك الدبلوماسي الذي كان آنئذ مسؤولا عنه، باعتباره وزيرا للشؤون الخارجية، إذ اقترح علي في شبه تكليف ملزم -على إثر مذاكرة له مع والدي- أن ألتحق مباشرة بسفارة المغرب في مصر، وأصدر أمره للمصلحة المختصة بالوزارة-وكان يشرف عليها الأخ الكريم الأستاذ عبد الباقي الراجي-كي تعجل بتهيئ الملف الإداري بما يقتضي من طلب مكتوب ووثائق ؛ واقترح علي-تبعا لذلك-أن أحول تسجيل الأطروحة من جامعة السوربون إلى جامعة القاهرة، مع ما يستلزم هذا التحويل من تغيير محتمل في الموضوع، وكان له فيه نظر لا يتسع المجال لبسط الحديث عنه، إذ كنت سجلت موضوعا للأطروحة الرئيسية بإشراف الأستاذ المرحوم ريجي بلاشير عن "مسلمي إسبانيا ورحلاتهم إلى المشرق "Les Musulmans d' Espagne et leurs voyages en Orient"، كما سجلت للأطروحة الثانوية بإشراف الأستاذ المرحوم شارل بيلا دراسة عن العبدري مع تحقيق رحلته. وحين أخبرته بذلك وبتقدمي في العملين، هز رأسه وألقى ابتسامة خافتة-على عادته-مستحسنا ما أقوم به، وتساءل عما إذا كان اختيار الأستاذ بلا شير لموضوع رحلات الأندلسيين-إن كان هو الذي اختاره- هادفا إلى وجهة نظر معينة. وعقب على الفور : " لكن من يعنى بفكرنا وأدبنا إذا لم ينهض بذلك مثلك ؟". وبعد أن أثنى علي وعلى والدي مذكرا بصداقته وبجهاده في ميدان الوطنية والعلم والتعليم، قال : "لذا فإني إذ أدعوك للالتحاق بالقاهرة للعمل في سفارتنا هناك-وهي بحاجة إلى دم جديد-آمل أن تتابع دراستك العليا هناك، وأن تتجه إلى التراث المغربي الذي يشكو الإهمال". ثم أخذ يحدثني عما كان له من

محاولات في هذا المجال، وهي هذه التي اعتبرتها بواكير في الكتابة الأدبية والبحث التاريخي، وأسعد اليوم بأن أتناولها في هذا العرض.

* * *

وقبل ذلك، وفي غياب ترجمة وافية للزعيم ا لمكرم، وإن وجدت لها عناصر متفرقة [1] أرى ضرورة تقديم بعض العناصر التي من شأنها أن تبرز أهم المحطات في حياته :

ولد بمدينة الرباط عام 1908 م.

فيها تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بالمدارس العصرية، إضافة إلى حضور الحلقات العلمية في الزوايا والمساجد.

شارك في الخلية الأولى للحركة الوطنية بالرباط حيث حضر أول اجتماع لها في عرصة جسوس (التي على أرضها بنيت المدرسة)، وذلك مساء يوم الاثنين 22 محرم 1345هـ الموافق 2 غشت 1926م، وكانت تضم عشرة أفراد هم[2] : الحاج محمد بن اليمني الناصري، ومحمد المكي الناصري، وأبو بكر بناني، ومحمد بن العباس القباج، وعمر القباج، ومحمد بن محمد القباج، وعبد الكبير بن حفيظ الفاسي، ومحمد اليزيد، وأحمد المؤذن، وعمر بن عبد

(1) ترجم له والدنا رحمه الله في كتاب (التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972 ج 1 ص : 29 - 30 (منشورات النادي الجراري رقم- 1- الرباط 1406هـ- 1985م). ونشر عنه حزب الاستقلال كتابا بعنوان : (الحاج أحمد بلا فريج بطل عريضة الاستقلال) ضم الكلمات والقصائد التي قيلت لتكريمه في يناير 1990 (الطبعة الأولى 1993م).

(2) انظر مذكرات حياة وجهاد لمحمد بن الحسن الوزاني ج 1 ص : 361. (نشر مؤسسة محمد حسن الوزاني) بدون تاريخ.

الجليل، وأحمد بلافريج، وعبد القادر بن محمد التازي، ومحمد بن الحسن الوزاني. ومن هذه الخلية تكونت شعبتان : الأولى باسم "أنصار الحقيقة" لمحاربة البدع والضلالات في توجه مرتبط بالسلفية، والثانية باسم "الرابطة المغربية" وكان شعارها : "نموت ويحيا الوطن، ونشقى ويسعد الوطن، لاستقلال التام أو الموت الزاؤم" [3]

درس في جامعة السربون التي حصل منها على الليسانس في الآداب. ويبدو أنه كان في باريز منذ أواخر العشرين إلى بداية الثلاثين، إذ عمل على تأسيس جمعية طلبة شمال إفريقيا، وقد انتخب رئيسا لها عام 1930م.

في عام 1930 شارك في كتلة العمل الوطني.

فيه كذلك تعرف إلى الأمير شكيب أرسلان حين زار مدينة تطوان فتكونت بينهما علاقة وطيدة.

في أوائل الثلاثين انتقل إلى سويسرا للاستشفاء بعد أن أصيب بداء السل، وفيها قويت صلته بالأمير شكيب.

بحكم هذا الاتصال كتب في (الأمة العربية La nation Arabe) التي أسسها شكيب عام 1930م والتي استمرت إلى 1938، وكانت لسان حال الوفد السوري الفلسطيني الذي كان يضم أرسلان وإحسان الجابري.

على مدى سنتين–من 1932 إلى 1934 – هيأ دبلوم الدروس العليا من جامعة باريز، وقدم لذلك بحثا عن قرصنة النصارى وحالة أسرى المسلمين في

---

[3] انظر مقال " الذكرى الفضية للجمعية الوطنية الأولى" لمحمد بنونة – منبر الشعب 1951-2-576.

أوروبا، وجعله مقدمة لرحلة محمد بن عثمان المكناسي إلى إيطاليا ومالطة لافتداء الأسرى.

في صيف 1932، وبمساعدة الأمير ومعية محمد بن الحسن الوزاني وعمر بنعبد الجليل، وبمساندة بعض الاشتراكيين والراديكاليين الفرنسيين، أنشأ في باريز مجلة مغرب Maghreb التي عملت لصالح الكتلة واستمرت إلى 1934، وكان يرأس تحريرها النائب البرلماني روبير جان لونكي.

كانت له في تسيير هذه المجلة مسؤولية كبرى تمس توجيهها الوطني، على حد ما تثبت كتاباته فيها[4] لاسيما في عددها الأول حيث كتب "إن الحماية في نظرنا ليست إلا وصاية يجب أن تكون لها نهاية. إننا نفكر في اليوم الذي تصبح فيه روابط التبعية بين المغرب وفرنسا روابط صداقة وعرفان. فهل هذه جريمة ؟ إن بلادنا التي كانت على الدوام دولة مستقلة ليست مستعمرة. إنها مجرد حماية". وعلى ظهر غلاف هذا العدد كتب يبين الغاية من تأسيسها وداعيا مواطنيه لمساندتها : " أيها المغربي لقد أسست هذه المجلة للدفاع عن حقوقك ورفع صوتك عاليا برغباتك ومتمنياتك، وأنت تعلم أن بلادك تشتد حاجتها الآن إلى مشروع كهذا، إذ ضياع الحق في سكوت أهله عنه، والاستسلام للباطل موت، والمناقشة في الحق حياة، فواجبك يقضي عليك بالسعي في تفهم محتوياتها والتحلي بروحها والدعاية لمبادئها والمساعدة على نشرها".

[4] أنظر مقال "الحاج أحمد بلافريج" للأستاذ أبي بكر القادري - جريدة العلم 18 أبريل 1990، ومقال "أحمد بلافريج رائد من رواد الصحافة الوطنية" للأستاذ قاسم الزهيري — جريدة العلم 7 يوليوز 1991.

عن إدارته لهذه المجلة كتب الفقيه المرحوم محمد داود وهو يقدم الحلقة الأولى من البحث الذي نشره الحاج أحمد عن "عبد المومن" في مجلة (السلام):
" إذا كانت لك غيرة على مستقبل شباب وطنك وأردت أن تبحث عن شخصية بارزة من بين الشباب المغربي، لتقدمها إلى الناشئين في بلادك كنموذج حي ليحتذوا حذوه في التعقل والرزانة والعلم والأدب والعمل والمثابرة، فإنك لا تجد من بين شبابنا كثيرا ممن أحرزوا من ذلك كله مثل ما أحرزه حضرة أخينا وصديقنا الأستاذ أحمد بلا فريج. شاب كله نشاط وعمل ولكن في صمت وحكمة، وكله عقل وتفكير، ولكنه في مصلحة أمته ورفع شأنها بين الأمم. نشأ وترعرع في مدينة الرباط الزاهرة، ثم انتقل إلى باريز ليتم فيها دروسه العالية. وها هو اليوم يقدم لبلاده بإدارة مجلة (مغرب) خدمة تعد في الدرجة الأولى من الخدمات الوطنية" [5].

في هذه الفترة، وصفه روبير جان لونكي بملامح ظلت تلازمه، إذ قال: "إنه شاب أنيق لكن في بساطة، يتحدث بهدوء وعلى وتيرة واحدة وبدون أدنى انفعال. يتفرس في محدثه بإمعان، ويشعر محدثه بأنه واثق من نفسه، مع ما يتحلى به من حسن الخلق. يعرف ما ينبغي أن يقال، وإلى أي حد ينبغي أن يصل. شأنه في ذلك شأن الدبلوماسي الحذر يستطيع البقاء متشبثا بمواقفه دون ما هجم على محدثه[6].

قبل 1937 سافر إلى فرنسا للدفاع عن القضية المغربية.

---

[5] مجلة (السلام) الجزء الثاني السنة الأولى – رجب 1352 هـ = نونبر 1933م.
[6] مقال : "أحمد بلا فريج رائد من رواد الصحافة الوطنية" سبقت الإشارة إليه.

في أكتوبر من هذا العام، وفي عهد المقيم العام نوجيس ألقت إدارة الحماية القبض على بعض قادة الحركة الوطنية، ومنهم علال الفاسي ومحمد ابن الحسن الوزاني ومحمد اليزيدي وعمر بن عبد الجليل، ولم يكن من بينهم بلافريج الذي كان يومئذ في باريز. وحتى يتسنى له التسيير المباشر للعمل الوطني، انتقل إلى المنطقة الخليفية (تطوان) ثم إلى طنجة التي كانت تعتبر دولية.

بعد هزيمة فرنسا عام 1940 سافر إلى برلين فتأكدت له استعمارية الألمان، ثم عاد إلى طنجة ومنها إلى الرباط في يناير 1943 لينضم إلى أعضاء الحزب الوطني ويعمل مع الخلية التي قدمت وثيقة المطالبة بالاستقلال وأسست حزب الاستقلال.

على إثر تقديم هذه الوثيقة في 11 يناير 1944 وما نتج عن ذلك من أحداث، سجن ليلة 29 يناير مع محمد اليزيدي الذي أطلق سراحه في نفس اليوم تحت ضغط الجماهير التي تظاهرت في هذا اليوم[7]. وبقي – هو – ستة أشهر دون محاكمة، ثم نفي إلى كورسيكا حيث بقي إلى مارس 1946، إذ أفرج عنه بعد أن عين المقيم العام إيريك لابون.

في سبتمبر 1946 أسست جريدة (العلم)، وصدر العدد الأول منها في الحادي عشر منه، وكان الحاج أحمد هو المسؤول عنها وعن كل ما يتعلق بإعلام حزب الاستقلال، يليه في ذلك محمد اليزيدي.

بعد زيارة الملك المنعم محمد الخامس إلى طنجة في أبريل 1947، غادر المغرب للتعريف بالقضية الوطنية في الخارج.

(7) انظر للكاتب "29 يناير يوم الحرية الخالد". (نشر في كتاب المؤلف : "أضواء على الرباط –المدينة والجهة"– الجزء الأول –ابتداء من ص 99– منشورات النادي الجراري رقم 21– مطبعة الأمنية بالرباط 1422 – 2002)

في عام 1952 سافر إلى نيويورك. بعد نفي المغفور له محمد الخامس في غشت 1953، جند نفسه للدفاع عن استقلال المغرب والمطالبة بعودة ملكه الشرعي، متنقلا ما بين اسبانيا وأمريكا، وكان يحمل جوازا باكستانيا ويحضر ضمن الوفد الباكستاني في الأمم المتحدة.

على إثر استرجاع الاستقلال شكل الملك المجاهد أول حكومة وعينه فيها وزيرا للخارجية، وكان ذلك يوم 26 أبريل 1956.

في مايو 1958 عين رئيسا للحكومة، وفي ديسمبر من نفس العام قدم استقالته منها.

في 5 يناير 1962 عينه جلالة الملك الحسن الثاني وزيرا للخارجية مرة ثانية.

في نوفمبر 1963 عينه ممثلا شخصيا لجلالته، وهو المنصب الذي استمر فيه إلى يونيو 1972.

توفي ليلة السبت 18 رمضان 1410 هـ الموافق 14 أبريل 1990م بعد مرض ألزمه الفراش وأفقده الوعي أزيد من عشر سنوات، ودفن بضريح مولاي المكي بعد ظهر الاثنين 20 رمضان الموافق 16 أبريل، تغمده الله بواسع رحمته وجميل مغفرته.

* * *

بعد هذه الإشارات المعلمية في حياة المرحوم الحاج أحمد بلا فريج، وتمهيدا للحديث عن بواكير إنتاجه الأدبي والتاريخي، أسوق بعض ما جاء في الترجمة التي كتبها عنه والدي رحمه الله ملخصا أهم ملامح حياته، ومتحدثا

عنه باعتباره أحد رواد التأليف في المغرب، إذ ذكر أنه " من الرعيل الأول الذين عنوا بدراسة اللغتين العربية والفرنسية. فبعد دراسته الإعدادية توجه إلى فرنسا بقصد إتمام تعليمه هناك، ثم رحل إلى الشرق العربي فدرس بجامعة مصر. وكان في هذه الأثناء يعمل لصالح بلاده كمواطن صالح هيأته الظروف ليخدم وطنه ضد فرنسا المتعسفة بلسانه وقلمه، لحد حكمت عليه حكومة الحماية الفرنسية بالإعدام أيام مقيمها العام نوجيس. الشيء الذي اضطر معه للالتجاء إلى إسبانيا". وبعد أن تحدث عن كتاب (أزهار البساتين) وأهميته، ختم الترجمة بقوله : "ويبدو من خلال ذلك أن سياسة الوظيف صرفته عن المسيرة الثقافية. وقديما قيل : العلم غيور لا يتحمل الاشتراك" [8] .

من هنا كان تناولي لإنتاجه الأدبي والتاريخي معتمدا على بواكير، أي على كتابات مبكرة كانت لها في وقتها – وما زالت – أهمية لا سيما والمغرب في أولى مراحل نهوضه وانتفاضه، كان في أمس الحاجة إلى مثل هذه الكتابات الرائدة تنير الأفكار وتبث وعيا ثقافيا جديدا قائما على الإحساس بالذات والشعور بالكيان، من خلال إحياء التراث والتعريف بجوانب مضيئة منه.

ومن ثم فإني لم أعتبر من تلك البواكير كتابات أخرى – كانت كذلك رائدة – لاتسامها بغير الطابع الأدبي والتاريخي، وأكتفي منها بالإشارة إلى المقالات التي نشرها في مجلة "الفتح" المصرية لمحب الدين الخطيب، والتي كان فيها يفضح السياسة الاستعمارية ويدافع عن المغرب والإسلام. ومثلها المقالات التي كتبها عن أروبا وتطوراتها السياسية وعن التيار النازي، في " الحياة " التي أصدرها عبد الخالق الطريس في تطوان عام 1934م، وكذا

---

[8] التأليف ونهضته ص : 29 –30 (سبقت الإشارة إليه).

الافتتاحيات والمقالات التي أذاعها عبر جريدة " الأطلس" التي أسست سنة 1937م، والتي كان يشرف عليها محمد اليزيدي، علما بأن افتتاحياتها كانت مشتركة، من غير أن ينسى ما نشره فيما بعد على صفحات جريدة "العلم"، سواء في مرحلة ما قبل الاستقلال أو بعده، وكان فيها صاحب الرأي والتوجيه والإشراف.

وللدلالة على قيمة هذه المقالات أقف قليلا عند مقال "حول حديث الشيخ راسم" [9] يرد فيه بلا فريج - الكاتب الناشئ يومئذ - على مقال نشره الأستاذ الزهراوي في نفس المجلة [10] بعنوان "حديث مع الشيخ راسم" قال فيه صاحب الحديث" إن في الرباط شبيبة مباركة تجد في نشر الإصلاح الإسلامي ولكنها كثيرا ما تغلو وتتنطع وتسرف إلى حد أن تشرف على الإلحاد والجحود، وترى في ذلك إصلاحا كبيرا، ولا ينقصها إلا إمام مصلح راشد يرد جماحها ويهديها إلى سواء الصراط".

وقد تصدى الحاج أحمد للرد على هذا المقال بروح سلفي سجالي، ومن منطلق الفكر الإصلاحي الذي كان سائدا وقتئذ في المغرب، يتوسل به الشباب في مواجهة تيار الشيوخ ولا سيما الطرقيين منهم. وفي تفنيده لزعم الكاتب الزهراوي والشيخ راسم يبدأ بالسؤال : "... هل الوهابيون وهم أشد القوم غلوا... ملحدون؟ .... إن مبدأ الإصلاح الإسلامي مبدأ غامض في ذهن الشيخ راسم ... فإن هناك فرقا بين دعاة السلفية وبين غلاة المتفرنجين... لا

---

[9] منشور بمجلة "الفتح" السنة الرابعة عدد 161 الخميس 17 ربيع الأول 1348 هـ = 22 أغسطس 1929م.
[10] في العدد 159.

شك أن الشيخ راسما يعني غلاة المتفرنجين أكثر مما يعني دعاة الإصلاح الحقيقيين... فإننا لم نعهد في إخواننا المصلحين أي غلو، وإنما هم سالكون سبيل الحكمة واللين في دعوتهم. ولئن كان بينهم بعض المتطرفين الجاهلين بنفسية الجماهير فالنادر لا يعتد به...".

ويعقب على قوله : " ولا ينقصها إلا إمام مصلح راشد " فيذكر أبا شعيب الدكالي ومحمد ابن المدني ابن الحسني ومحمد بن ا لعربي العلوي، كما يعقب على ما ذهب إليه صاحب المقال من أن : " الشبان يفيضون نشاطا وإخلاصا ولكنهم كذلك يفيضون بساطة وخفة ونزقا وتعوزهم الحكمة والتجربة" فيقول في رده : " وأنا لا يمكنني أن أمدح الشباب المغربي ولا أن أتكلم على ذكائه وحزمه وغيرته على دينه ولغته وقومه فيقال مادح نفسه... على أن الشباب غير متره عن النقص، وللشباب حقا نزوات، ولكن هل عرف الكمال لغير الشباب؟..." ثم يفند ما جاء في المقال من " خبر تنصر شاب مسلم ابن شيخ طريقة" فيقول : " وأنا لا أعلم شيئا من هذا، ولا شك أن خبرا كهذا كان يحدث ضجة في بلادنا فكان يصلنا صداه، والجرائد التي تأتينا من هناك لم تتعرض لهذا الحادث".

وفي نهاية المقال يطلب من الله أن " ييسر للأستاذ الزاهراوي زيارة مراكش[11] بنفسه ليباشر درس أحوالها، فليس من رأى كمن سمع".

* * *

(11) يقصد المغرب.

في طليعة الكتابات الأدبية والتاريخية التي قدمها المرحوم بلا فريج كتابان متميزان :

أما الأول فكتاب " أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين"[12]. وهو ترجمة أنجزها بمعية المرحوم محمد الفاسي لمحاضرتين للأخوين جان وجيروم طارو، مذيلة بتعاليق ضافية، تناولت الأولى الروابط التي جمعت اسبانيا والمغرب الأقصى طيلة ثمانية قرون، واهتمت الثانية بأخبار عبد المومن الموحدي وآخري أمراء إشبيلية. ويتضمن الكتاب "تقدمة" لشكيب أرسلان[13]، ورسالة من المؤلفين إلى المترجمين [14] مؤرخة في أول يونيو 1930م ؛ كما يتضمن بآخره قصيدة [15] لشكيب أرسلان قالها عندما كان في الأندلس، وأولها :

لك الله إن شئت الصبوح فبكر   لكأس دهاق من حميا التذكر

وقد سار المترجمان في الهوامش التي أغنوا بها الكتاب على نحو يوضحه هذان التعقيبان :

أولهما : علقا به على قول المؤلفين وهما يتحدثان في مستهل المحاضرة الأولى عما وقع للمسلمين حين " سقطت أذهانهم في كسل يميل إليه الشرقي عن طيب خاطر، وساعد عليه ذلك الكتاب الجبار أي القرآن الذي يدعي أنه

(12) المطبعة الوطنية – الرباط – 1349هـ.
(13) ص : 5 – 7.
(14) ص : 8.
(15) وهي طويلة (ص : 136 –143).

أتى بحقيقة نهائية عن كل شيء"[16] فكتبا في الهامش[17]:" ليت المؤلف لم يكلف نفسه عناء هذا الحكم لأننا نعرفه ونعرف أنه يجهل العربية فكيف يا ترى توصل لمعرفة القرآن لدرجة الحكم عليه، فإن المسلمين ما خمدت أذهانهم ومالوا للراحة والكسل إلا يوم تركوا قرآنهم. وفي الحقيقة إن الكاتب يتخبط خبط عشواء ويناقض نفسه بنفسه إذا يقول بعد هذه الجملة : (على أن القرآن ... بعث فيهم ذلك الحماس الذي يثيره كل اعتقاد جديد) فكتاب قدر على بعث الحماس في نفوس أتباعه كيف يمكنه أن ينقلب ويصير باعثا للخمول والكسل، والقرآن هو هو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فجمود المسلمين لا يسأل عنه الدين الإسلامي أبدا لأنه دين العمل، ولولا ضيق المقام لأوردنا بعض آيات من القرآن حجة على ما نقول. وإنا اعتدنا مثل هذه الأحكام الغير المبنية على المعرفة والاطلاع من الأروبيين، فتلك شنشنة نعرفها من أخزم".

وثانيهما : شرحا فيه اسم التوارج الوارد في سياق هذه المحاضرة فقالا[18] : " التوارج هم قبائل رحل يعيشون في الصحراء في جنوب المغرب والجزائر، وأصلهم بربري، وينقسمون إلى عدة قبائل أهمها قبيلة ازغار وقبيلة الهجر وقبيلة اوليمدن، ولهم عوائد خصوصية، منها تلثم رجالهم، وأهمية المرأة في وسطهم الاجتماعي، وهي تمتاز بالفطنة والذكاء، ولكنها حرمت من الوداعة والجمال. والرجل عكسها. ويكثر بين النساء من يقلن الشعر للتغني

---

(16) ص : 16.

(17) بالصحيفة نفسها والتي تتبعها.

(18) الهامش 1 ص : 28 – 29، وفيه يحيلان على مقال للسيد الزهراوي نشر بمجلة المقتطف – شهر مايو 1930.

بجمال الرجل ومحاسنه. وهم لا يطلقون ولا يعددون الزوجات، ويعنون بالفتاة أكثر من الغلام، فإذا ولدت تباشروا بميلادها. والفتاة تختار زوجها، ويقضيان معا مدة قبل الزواج، والمرأة قد تنسخ اسم الرجل بزواجها معه، فيقال زوج فلانة على عكس عادة الافرنج. ومن عوائدهم ما يسمونه آهال، وهي سهرات فيها مجامع لهو وأنس، يجتمع فيها الرجال العزاب بالأوانس والأيامى من النساء، يتسامرون ويتناجون ويلهون حتى مطلع الفجر، واتخاذ الصاحبة عندهم بغير نية الزواج أمر معروف لا ريبة فيه ولا عيب عندهم. وفي آهال السلطة كلها للمرأة، ولا يرفع الرجل صوته فوق صوتها ولا يفعل شيئا إلا بإذنها، وإذا انفض الجمع اختلت كل واحدة بخليلها، ويقال إن هذه الخلوات لا منكر فيها، وأنها على حب طاهر غير آثم. وفي البرد يلبسون برانس من جلد، ويلبسون من أقمشة خشنة. وملابس الرجال والنساء متماثلة في شكلها ونوعها، ولا يغسلون ثيابهم البتة ولا يخلعونها حتى تبلى. وهم لا يتوضأون للصلاة وإنما يتيممون مع وجود الماء وتمام الصحة. ويتخذ الرجل منهم اللثام ولا ينـــزعه إلا في منزله، ومن العار أن يكشفه أمام المرأة، ولا سيما أم زوجه. وإذا طالت لحية الرجل تحت اللثام ظفرها. هم مسلمون ويعتقدون أنهم المسلمون حقا ولكن سارية بينهم اعتقادات باطلة. وأهم عيد عندهم هو عاشوراء ويسمونها : (السبيبة) ومدتها عشرة أيام أولها غرة محرم فيجتمعون في مدينة جانت المقدسة عندهم. وفي هذا العيد يرقصون ويتفاخرون كثيرا، ويعيدون بالأعياد الإسلامية الأخرى لكنهم إذا أتم الخطيب في عيد الأضحى قذفوه بالحجارة وتسابقوا يقبلونه".

وأما الكتاب الثاني فهو " الأدب الأندلسي" [19] وأصدره الأستاذ بلافريج بالاشتراك مع الأستاذ عبد الجليل خليفة، إذ جعلاه في قسمين :

أولهما : دراسة تستغرق ثلثي المؤلف[20]، **والثاني** مختارات بعنوان : "نفحة من الشعر الأندلسي"[21]، وأهدياه إلى "صاحب السمو أمير الريف المحبوب مولانا المهدي بن الحسن".

وقد تضمنت الدراسة موضوعات تاريخية جاءت على هذا النحو، بعد الحديث عن أطوار الحياة الفكرية في إسبانيا الإسلامية :

1 – فتح الأندلس.

2 – الحياة العلمية قبل الفتح الإسلامي.

3 – عوامل انتشار اللغة العربية

4 – عصر بني أمية.

5 – عصر الحاجب المنصور.

6 – عصر المطوائف.

7 – عصر المرابطين.

8 – عصر الموحدين.

---

(19) الجزء الأول، وهو وحده الذي صدر (مطبعة الوحدة المغربية – تطوان 1360 هـ - 1941م).

(20) من ص : 10 إلى 129.

(21) من ص : 130 إلى 188.

9 – مملكة غرناطة.

ثم ختم بتناول حال الشعر من خلال المباحث الآتية :

1 – نظرة عامة.

2 – أغراض الشعر وأنواعه.

3 – أسلوبه ومعانيه.

4 – أوزانه وقوافيه.

5 – الموشحات.

6 – الأزجال.

ومن هذا القسم انتقل لعرض " نفحة من الشعر الأندلسي" ساق فيها نماذج للشعراء :

1 – أحمد بن عبد ربه.

2 – ابن هانئ الأندلسي.

3 – ابن دراج القسطلي.

4 – أبو عمر يوسف بن هرون الرمادي.

5 – أبو عامر ابن شهيد.

6 – المعتضد بن عباد.

7 – المعتمد بن عباد.

8 – ابن وهبون.

9 — ابن زيدون.

10 — ابن عبدون.

11 — أبو بكر ابن عمار.

12 — أبو بكر ابن اللبانة.

13 — ابن خفاجة.

14 — حمدة بنت زياد.

15 — ابن سهل الأندلسي.

16 — أبو عبد الله الرصافي.

17 — لسان الدين ابن الخطيب.

18 — أبو بكر ابن الأبار.

19 — أبو البقاء الرندي.

وقد أوضح المؤلفان في مقدمة الكتاب دوافعهما إليه، ومنهج التناول، وما كانا يرميان إليه، وما لهما من رؤية لموضوعه فقالا : "انتهزنا فرصة وجودنا بمدريد وترددنا على قاعة المطالعة بالمدرسة العربية للمستشرقين Escuela de Estudios Arabes، وكتبنا هذه الفصول الأولية — على قدر ما في استطاعتنا — لتكون مقدمة لمن أراد بحثا شاملا واستقصاء تاما لتطور الحياة الفكرية في اسبانيا الإسلامية، إذ في اعتقادنا أن الأدب وخاصة الأندلسي ما زال في أشد الحاجة إلى المجهودات العظيمة والبحث والتنقيب المتواصل حتى ينجلي الغموض الذي أحاط ببعض نواحيه. وقد حاولنا أن ننظر إلى القضايا الأدبية بعين منصفة وصدر مأمون، ورأي معتدل ونفس نزيهة مخلصة تزن

الأمور بميزان الحكمة، حتى لا نبتعد عن محجة البينة والجدد الواضح، رغبة منا في كشف الحقائق المحجوبة وإظهارها سافرة الوجه دون مراءاة ومداهنة أو محاباة. ومع أننا قد توخينا في كتابنا الدقة واستنفدنا الجهد وعمدنا إلى استخلاص الحقائق الناصعة التي ارتأيناها – فإن الكمال لله وحده – وشفيعنا الاجتهاد فيما أخطأنا فيه، وحسبنا براءة النفس وحسن النية : (إنما الأعمال بالنيات). وما قصدنا إلا الخير وما توفيقنا إلا بالله. كان في نيتنا أن نصدر كتابا شاملا لتطور الحياة الفكرية والشعر والكتابة وتراجم الشعراء والكتاب وتاريخ العلوم والفنون. ثم رأينا أن جزءاً يضم بين دفتيه هذه الموضوعات قد يكون كبيرا، فعقدنا النية على التجزئة وفق منهج شرعناه، بحيث يكون تطور الحياة الفكرية ومنتخبات الشعر في الجزء الأول، والموضوعات الأخرى في أجزاء متتالية إن شاء الله. قد اخترنا منتخبات الشعر ممثلة لكل فترة من فترات الحياة الأدبية في اسبانيا الإسلامية... ليكون الشعر صورة صادقة ومرآة صافية يرى الناظر فيها مصداق ما ذكرناه عن تطور الحياة، وممثلا لشخصيات الشعراء الذين ذكرنا أسماءهم ومذاهبهم، وممهدا لدراستهم دراسة تحليلية. وقد اخترنا الشعر أيضا جزلا رائقا سهلا يقل فيه الغريب، وشرحنا بعض الكلمات اللغوية مع ترجمة مختصرة لكل شاعر..."[22].

ويتبين توجه المؤلفين في تناولهما لأدب الأندلس من خلال ما كتباه عن مرحلة دقيقة من تاريخها وشائكة، ألا وهي المرحلة المرابطية التي أغرت عددا من الدارسين، لا سيما من المستشرقين، بالهجوم على دولة الملثمين وقائدها يوسف بن تاشفين. فبعد أن عرضا على الخصوص أقوال دوزى وناقشا تحامله

---

(22) ص : 7 – 8.

على هذه الدولة، ختما بما ينصفها ذاهبين إلى أنه : "إذا حق لعصر المرابطين أن يفتخر بظاهرة من مظاهر الحياة الأدبية، فإن أول ما يفخر به هو ظهور جماعة من العلماء أخذوا في درس وتدوين آداب بلادهم وحفظ آثار رجالهم من الضياع والنسيان، وعلى رأسهم ابن بسام... وأبو القاسم ابن بشكوال... وعبد الله بن ابراهيم الحجاري ... و .... الفتح بن خاقان ... وغير هؤلاء كثير، كالإدريسي وابن سهل وجبير بن أفلح الاشبيلي وأبي الصلت الداني. فهذا العصر كما ترى هو عصر ازدهار الحياة الفكرية خلافا لمن زعم بتدهور الحياة الأدبية. لقد تدارس الناس فيه كل أصناف المعرفة من طب وفلسفة وعلوم رياضية وتاريخ، كما امتاز فوق ذلك بأدب شعبي يغنى في الأعياد الإسلامية ومواسم الحصاد والمناسبات القومية، بلغة ليست عربية خالصة ممثلة في زجل ابن قزمان ومدرسته، وكان له الأثر القوي في آداب أروبا..."[23].

* * *

في نطاق هذه الاهتمامات المبكرة، نشر الحاج أحمد رحمه الله مجموعة من المقالات، تناول فيها موضوعات تاريخية منوعة، ولكنها جميعا تصب في المجال المغربي والأندلسي، وتمس الجانب الأدبي منه في اتصال -هو أحيانا كثيرة- وثيق. ومن أبرزها :

أولا :

مقال عن "المعتمد بن عباد"[24] يمكن تلخيص ما جاء فيه على هذا النحو :

---

(23) ص : 77 -78.

(24) نشر في "مجلة السلام" السنة الأولى- الجزء السابع- عدد ذي الحجة 1352هـ أبريل 1934م.

1 – قدم فيه ترجمة لهذا الملك الشاعر.

2 – عرض مختلف التناقضات التي عاشتها الأندلس وعاشها المعتمد، وما أفضت إليه من ضياع هذه البلاد.

3 – حاول أن يلتزم الموضوعية بتناول محاسن المعتمد ومساوئه، مع انتقاد رفيق خفيف.

4 – ركز على حبه الشاذ لابن عمار، ثم بعد ذلك لاعتماد الرميكية التي أفقدته رشده.

5 – أشار شكوى الفقهاء والأعيان منه إلى يوسف بن تاشفين.

وبتأمل هذه المقالة يتضح مدى تفردها بالقياس إلى غيرها من كتابات بلا فريج، إذ يمكن استخلاص بعض الملاحظات الدالة على ما يتميز به في مجال البحث والأدب. فهي تنم عن :

1 – حس تاريخي يتمثل في التقاط أخبار الوقائع والأحداث وسوق الأخبار وتحليلها.

2 – ذوق أدبي يتجلى في انتخاب الأشعار والتوسل بها.

3 – ملكة فنية يظهرها الأسلوب القصصي وسلامة التعبير إن لم أقل جماله وأناقته.

ويكفي للدلالة على هذه الخصائص، إيراد هذه الفقرات التي ختم بها الكاتب مقالته. فقد ساق تمهيدا لها ما ذكر ابن اللبانة من "أن رجلا من أهل اشبيلية كان يحفظ شعراً للمعتمد، ثم خرج منها إلى أقصى حي في العرب،

فأوى إلى خيمة من خيامهم، ولاذ بذمة راع من رعاهم، فلما توسط القمر في بعض الليالي وهجع السامر، تذكر الدولة العبادية ورونقها، فطفق ينشد القصيد بأحسن صوت وأشجاه، فما أكملها حتى رفع رواق الخيمة عن رجل تدل سيما فضله على أنه سيد أهله، فقال : يا حضري حياك الله، لمن هذا الكلام الذي اعذوذب مورده واخضوضل منبته وتحلت بقلادة الحلاوة بكره وهدر بشقشقة الجمال ذكره، فقال : هو لملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عباد، فقال العربي : أظن هذا الملك لم يكن له من الملك إلا حظ يسير ونصيب حقير، فمثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشيء دونه"[25].

وعلق الكاتب على هذا الخبر وهو ينهي مقالته ويعرب عن رأيه : "فأي حكم أصدق من هذا الحكم المنسوب لبدوي ؟ لعمري إنه عين الصواب. فإن المعتمد – كما قلنا – لم يخلق للملك ولا للسياسة، ولكن خلق للفن وتمجيد الجمال في كل مظهر من مظاهره. فإن عواطفه الرقيقة وإحساسه النبيل ونفسه العالية دون ما تتطلبه السياسة من مداهنة ومكر وخداع، ودون ما يتطلبه تدبير الملك وإصلاح الرعية من صلابة في الرأي واستقامة في الأخلاق. فالمعتمد رجل فن فوق كل شيء، هو أمير، لكن أمير النظم وسكب العواطف في قالب من البيان الساحر. هو أمير، لكنه أمير يستولي على النفوس برقة عبارته وفصاحة كلامه وتحليل دخائل نفسه والإنشاد يوم أنسه وبؤسه. فيوم تدرس حياة المعتمد وينظر إليها الناقد بعين الانصاف والحق، يخرج المعتمد من بين أمراء الزمان ليوضع في صف أمراء الفكر والإحساس. فهو بين الملوك كالممثل يلعب دوره هازئا مازحاً، فلا يطمئن إلى نفسه إلا إذا كان في وسط

(25) ص : 32.

أنسه أو بؤسه، يعبر عما خالجه ويفصح عما في نفسه. ومما يذكر عن المعتمد أنه لم يقل بيت شعر واحد مدة أسره في مدح يوسف أو استعطافه، فدل بذلك على علو همته. وبقى صابراً إلى أن أتاه الأجل المحتوم، فصلي على جنازته صلاة الغريب. وهكذا الدهر يفعل بأهله، لا يراعي لهم عطفاً ولا ودا. وقبر المعتمد والرميكية في أغمات بجنوب مراكش، على ربوة من الأرض محوطة بالأشجار، مظللة بالغصون، منابر الأطيار"[26].

ثانيا :

مقالة عن "عبد المومن وتأسيس الدولة الموحدية"[27] كتبها وهو في باريز، وجعلها في حلقتين :

في الأولى عرف بعبد المومن وكيفية لقائه بالمهدي مؤسس الدولة الموحدية، والحال التي كان عليها المغرب وقتئذ، أي في عهد علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي، إذ كان علماؤه منشغلين بالفقه المالكي إلا قلة منهم مستنيرة كانت تتابع ما هو قائم في بلاد المشرق من نزاعات مذهبية.

وعلى عادة الكاتب، فإن طابع السرد والوصف – وحتى إعمال الخيال- يغلب عليه حتى وهو يسوق روايات تاريخية أو أخبار وقائع وأحداث، على حد ما كتب وهو يتحدث عن أول لقاء بين الرجلين في مدينة بجاية، حيث توقف عبد المومن وهو في طريقه من بلدته (تاجرا) بقبيلة كومية

---

(26) ص : 32 – 33.

(27) نشرت في حلقتين بمجلة السلام :
الأولى في عدد رجب 1352 هـ = نونبر 1933 (السنة الأولى الجزء الثاني).
الثانية في عدد شعبان 1352 هـ = دسمبر 1933 (السنة الأولى الجزء الثالث).

من أعمال تلمسان، متوجها إلى الشرق : " وبينما هو في جامعها يقضي فرض الجمعة، سمع الناس يتحدثون عن عالم سوسي كان بالمشرق ورجع، وأنه أمال النفوس إليه، وأقام حركة فكرية في المدينة اضطر معها أصحاب الأمر إلى إبعاده عنها، وأن كثيرا من طلبة العلم وشباب بجاية – والشباب دائما أرض خصبة صالحة للأفكار والحركات العنيفة – تبعه إلى قرية تسمى (ملالة)، فعلقت نفسه هو أيضا بهذا العالم السوسي وخرج من يومه يقصد القرية. وكأني بعبد المومن الشاب وقد وصل إلى (ملالة) والشمس مالت لغروبها، وابن تومرت فوق تلك الصخرة التي يصفها المؤرخون، وتحت تلك الشجرة الملتفة الأغصان، وحوله تلك الحلقة من الشباب الغر الصباح الوجوه متعطشين إلى العلم والمعرفة، يلتقطون كل كلمة تخرج من فم الأستاذ باعتناء كله حنو ووقار، وكأنه سقراط وسط أتباعه بأثينا. فما كاد عبد المومن يحضر مجلس هذا الرجل ذي اللسان الطلق والبيان الجلي والحجة الناطقة، حتى أحبه وأسكنه قلبه، فأخذ يغترف من هذه الحكمة المتدفقة. ولما ختم ابن تومرت كلامه وجه كل عنايته إلى هذا الغريب القادم فسأله عن اسمه ومنشئه ومقصده، فأخبره عبد المومن بكل شيء، وأنه راحل في طلب العلم إلى المشرق. فقال ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة، تصحبني وتعينني على ما أنا بصدده من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع. فأجابه عبد المومن إلى طلبه خصوصا وأنه وجد فيه ضالته المنشودة"[28].

---

(28) ص : 24.

وفي الثانية تحدث عن مذهب ابن تومرت، وفتح عبد المومن للمغرب، وتنظيم الملك وازدياد العمران، والجيش والأسطول ثم الأدب والعلم والفن. وختم هذه الحلقة – ومعها المقال – غير مخف كبير إعجابه بعبد المومن وعظيم تقديره لعمله، بأنه "أسس الملك وحصنه وأعد له جيشا لحفظ النظام والدفاع عن الكيان. على أن العمران قد ازداد على عهد خلفائه ازدياداً عظيما. وكان لعمل عبد المومن من توحيد هذه الأقطار كلها تحت سلطة واحدة أهمية عظيمة. ذلك أنه بسط حضارة أهل الأندلس في المغرب الذي حافظ عليها حتى بعد زوالها من الأندلس. وكان لعبد المومن فضل تقوية الجيش العربي في المغرب الأقصى. فإنه أجبر كثيرا من الأعراب على مغادرة افريقية والمغرب الأوسط إلى سواحل المحيط. إن ملك عبد المومن الطويل كان كله عظمة ومجدا. فقد أمكن لهذا الرجل المتواضع المنشأ الذي خرج من كوخ رجل فخار، أن يحقق أحلاما لذيذة دارت في خلد ذلك الشيخ السوسي ابن تومرت، وأمكنه أن يؤسس إمبراطورية لم يستطع غيره أن يؤسسها، فقضى على سلطة المرابطين باسبانيا وافريقيا، ووسع ملكه إلى الشرق ونظم الملك وأحسن إلى الرعية وأمن الناس في معاملتهم، فكان عصره عصر رفاهية ورخاء، وعد بحق أعظم رجل أنجبه المغرب"[29].

ثالثا :

مقال "على ذكر مراكش" نشره في العدد الخاص الذي أعدته " مجلة المغرب"[30] عن هذه المدينة، واكتفى بأن وقعه بحرفي (أ–ب)، وهما الحرفان

---

(29) ص : 16 – 17.

(30) عدد ربيع جمادى 1355 هـ = يونيو يوليوز 1936م – السنة الخامسة.

اللذان وقع بهما غير قليل من مقالاته. وتلفت النظر في هذا المقال جملة ملاحظات :

1- فالكاتب يعرب عن أسفه للوضع الذي آلت إليه المدينة، إذ يشبهها بالحسناء العجوز التي تتغنى بماضيها.

2 – ويرى من الصعب في هذا الوضع أن يطلق عليها اسم مدينة، لأنها ليست غير قرية ضخمة.

3 – وفيها يتزاحم الآدميون مع المواشي والقوافل.

4 – وأهلها ألفوا الظلم والاستعباد.

5 – وهي تجمع عدة متناقضات.

6 – وعنده أنها باب الصحراء ومرحلة من مراحل التاريخ.

7 – وقد ارتبطت في ذهنه بابن تومرت وابن عباد، على الرغم من أنهما ليسا من مراكش، "قد يكون لأن أحدهما قهرته مراكش والآخر قهرها فأخذ أحدهما بثأر صاحبه عن غير تعمد"[31].

8 – وينطلق بعد ذلك للحديث عن زيارته لقبر ابن تومرت في تنملل وقبر ابن عباد في أغمات، ويسوق الأبيات التي كتبت على قبره.

وتكتشف المقالة بعد هذا عن ميل الكاتب إلى الوصف الدقيق لمشاهداته، وفق ما جاء في هذه الفقرة حيث يقول : "خرجنا من مراكش بعد

---

(31) ص : 8.

الظهر في أشد حرارة النهار، وما بعدنا عن المدينة ببضع كيلو مترات حتى خرجنا من الطريق المرصفة، واندفعنا في طريق لم تمسسها يد الإنسان بعد، ذات اخضرار بهيج، متفجرة بالمياه من كل جانب. وما هي إلا مسافة حتى خرجنا في واد يشق الأرض ويفصلها، مياهه متكاثرة ثائرة، إذ الفصل فصل الربيع حيث تذوب الثلوج وتنتعش الأودية والأنهار. فما زلت أتذكر بكل لذة رسوب عجلات السيارة في أوحال الوادي، ونزولنا وسط الماء لدفع السيارة ومساعدة محركها. وكانت حرارة النهار تلطفت وعذب نسيم العشي وتوغلنا في منظر هو من أجمل المناظر الطبيعية فكأن الأفق أمامنا كله، محدود بسلسلة من الجبال العالية تتوجها الثلوج البيضاء وتنعكس عليها أشعة شمس الغروب الخافتة، فتصطبغ بمختلف الألوان من بنفسجي إلى وردي إلى مخضر. وكان ذلك النسيم الدافئ يهب فيبعث في نفوسنا انشراحا ونشاطا".[32]

رابعا :

مقال : "شيء عن القراصنة : أسرى المسلمين في أروبا".[33] وهو بحث كان قدم به – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – لرحلة محمد بن عثمان المكناسي إلى إيطاليا ومالطة لافتداء الأسرى. ويلاحظ فيه ما يلي :

1 – بدأ بمقدمة عن القرصنة في القرون الوسطى وكونها تجارة مربحة، وما كان فيها لجمهوريتي جنوة والبندقية وأصحاب مالطة، على الرغم من قوة المسلمين يومئذ.

---

[32] نفسه

[33] مجلة المغرب لصالح ميسة عدد شعبان 1353 هـ = نوفمبر 1934م – السنة الثالثة مع تتمة نشرت في العدد الموالي (رمضان 1353 هـ = دسمبر 1934م).

2 – وللتدليل على هذه الأهمية ذكر أن عدد المملوكين بالبندقية قدر بما يبلغ ثلاثة آلاف في آخر القرن الخامس عشر، وأغلبهم من المغرب.

3 – وقد استفحلت هذه القضية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بعد خروج مسلمي الأندلس من ديارهم واشتداد عضد الدولة النصرانية وقوتها البحرية.

4 – ويلاحظ أن المصادر العربية لم تقدم معلومات كافية عن معاملة النصارى لهؤلاء الأسرى، على الرغم من " أنه أسر في القرن العاشر الهجري جماعة من الأعلام، كالشيخ أبي محمد عبد الله ابن ساسي صاحب الزاوية والضريح المشهور بتانسيفت، والشيخ أبي محمد عبد الله الكوش والد المؤرخ ابن عسكر، ومؤرخ المغرب أحمد بن القاضي صاحب (جذوة الاقتباس) و(درة الحجال) وغيرهما، والشيخ محمد خروف التونسي الفاسي وغيرهم ..." [34].

5 – ويرى أن مما "زاد في الطين بلة أن السفراء الذين وجهوا للفداء.. كانوا يمنعون من الوقوف على حالة الأسرى. كتب الوزير كولبير Colbert إلى رئيس الأسطول بمرسيليا يقول له : من المهم جدا ألا يظهر أسير من أسارى سلا أمام سفير المغرب ولا ينبغي أن يعلم هذا بأسماء الأسارى ولا بعددهم. ومنع السفير محمد تميم من زيارة مراكب الملك سنة 1686".

---

[34] الحلقة الأولى ص : 3 – 4.

6 – وباعتماده على بعض المصادر الأروبية يحاول استخراج صورة عن هذه المعاملة، مبينا أن حالة هؤلاء الأسرى "كانت تختلف حسب البلدان، ولكنها على العموم كانت من أقسى وأشد ما يكون. ففي اسبانيا مثلا كان يباح قتل الأسير وتعذيبه وبيعه وهتك عرض زوجه أمامه. ويذكر لنا لافيس Lavisse [35] كثيرا من التفاصيل عن الأسرى المستعملين في البحرية الافرنسية، كانت تحلق وجوههم ورؤوسهم إلى قنتها، ويعطى لهم كل سنة قميصان وسروالان وطربوش من الصوف الأحمر، وفي كل سنتين قفطان من الملف الأحمر ومعطاف أحمر يسمى كسوة الملك L'habit du Roi. ولا يسمح له بلبس نعال وحذاء إلا لمن اعتنق النصرانية منهم. مشروبهم الماء' وأكلهم الخبز وفول مطبوخ في الزيت يعطى لهم مرة في اليومين كيلا "يثقل معدهم ويمنعهم عن العمل". أما عملهم فإنهم كانوا يوضعون صفوفا في السفن، بعضهم فوق بعض، ويربطون بالسلاسل والقيود، وكل واحد قابض على طرف من المجداف الطويل يحركه. وعليهم رقباء يحملون العصي والسياط، وكلما رأوا أحدا تراخى في عمله أو حصل له ضعف انهالوا عليه بالضرب والتعذيب، وربما قتلوه. ويبقى الأسرى على هذه الحال الأيام الطوال، خصوصا إذا ساء حال البحر وعاكس الريح سيرهم، وكثيرا ما كانت ترجع السفينة بعد فقد عدد من رجالها. قال لافيس : "إن هذه القساوة لا مثيل لها في تاريخ الرق أبداً". ويسوغ للأسرى إذا ما أرسوا في ميناء أن ينزلوا للتجارة وتعاطي المهن – كما ذكر آباء لامرسي في رحلتهم–، ويبقى الأسرى في

---

[35] الإشارة هنا إلى مقال كان نشره المؤرخ الفرنسي لافيس بمجلة باريز عام 1897.

هذه الحال إلى أن يفدوا، وإذا لم تعد لهم مقدرة على هذه الأعمال الشاقة تدخلهم الحكومة للسوق ليباعوا"[36].

7 - وفي الحلقة الثانية من المقال تحدث عن صدى هذه المعاملة القاسية وما كان يصل منه إلى المغرب بطرق مختلفة، وما كان لملوكه من كبير الاهتمام بقضية الفداء بإرسال السفارات وبذل الأموال مما هو مدون في كتب التاريخ ومعروف، لا سيما على عهد المنصور الذهبي والمولى إسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله.

* * *

وإذا كان الجانب التاريخي قد أخذ باهتمامات الباحث بلا فريج على هذا النحو – مع ما فيه من اتصال بالأدب – فإن عنايته بفنون هذا الأخير شعرا ونثرا وإبداعا ونقدا تتجلى في بعض ما حبر من مقالات يمكن إجمال الحديث عنها من خلال كلمة له وتعليق :

أولا : كلمة بعنوان "شوقي أشعر العصريين" كان ينوي المشاركة بها في ذكرى الأربعين التي أقيمت لهذا الشاعر بفاس يوم الخميس 24 رجب 1351 هـ الموافق 28 نونبر 1932م ؛ إلا أنها وصلت متأخرة عن هذا التاريخ، إذ كان بعثها من باريز حيث كان يتابع دراسته العليا. وقد نشرت ضمن أعمال هذه الذكرى في كتاب بعنوان "يوم شوقي بفـاس".[37]

---

[36] الحلقة الأولى ص : 4 – 5.

[37] نشر محمد بن عبد السلام مكوار – بالحرم الادريسي (المطبعة الجديدة بفاس). وجاءت كلمة بلافريج من ص : 119 إلى 123. هذا ولاهتمام الكاتب بشوقي، نشر في جريدة= =

وقد أقام هذه الكلمة على قضايا ثلاثة أثيرت حول شوقي :

الأولى : "أن شعر شوقي قديم في لهجته عتيق في تراكيبه ومعانيه ومبانيه. فلذلك لا يتفق مع روح هذا الزمان ولا يعد صاحبه من فرسان هذا الميدان، فإن الكون في تطور مستمر لا يستقر على حياة. والحياة معناها تبدل مطرد ورقي يتصاعد دوماً إلى أعلى"[38].

وعنده أن أصحاب هذا الحكم "يترلون الفن – والشعر فرع منه – مترلة العلم والأدب". وهو يؤكد ترقي العلوم وتطورها، ولكنه يضع الفن في مترلة أخرى إذ يقول : "وأما الفن – والفن أساسه الجمال – فهو أزلي، هو في كل زمان. أليس الشعر لغة الإحساس والعاطفة ؟ وما هاتان إلا فطرتان فطر الله الناس عليها، هما هما منذ كان الكون إلى الآن. أما ترون القوم يعجبون بأبيات قالها شاعر اليونان وقد مرت عليه القرون الطوال ؟ أما تجدون متعة ولذة عند قراءة البحتري والمتنبي كأنهما غنيا في عشية الأمس أو في ضحى اليوم ؟ بلى بلى ! لأن الشاعر إذا تكلم خاطب العاطفة والإحساس وهما لا يتبدلان مع مرور الزمان والأيام". وينتهي من هذا التحليل والتعليل إلى حكم عام لا يمس شعر شوقي فحسب، ولكن يمس فن الشعر من حيث هو : " الشعر يا من لاموا شوقي على جموده ليس بميكانيكيات، وليس بأدوات يجب ألا يستعمل

= = الأطلس (السنة الأولى – العدد التاسع – الجمعة 4 صفر 1356 هـ = 16- 4- 1937م) قطعتين نثريتين للأمير شكيب أرسلان، اقتطفهما من كتاب كان يومئذ تحت الطبع بعنوان "شوقي" أو "صداقة اربعين سنة".

[38] ص : 119 – 120.

منها شيء عتيق. الشعر ليس فيه عتيق وجديد، بل فيه متين وركيك وعال ونازل. فإن كان الشعر عاليا وقائله عاش منذ ألف سنة فلا يزال عاليا، لأن الفطرة البشرية لا تتغير في ألف سنة ولا في 10 آلاف سنة"[39].

الثانية : أن شعر شوقي جاء مرتبطا بالحياة والمجتمع. و"أي شعر ألصق بالحياة من شعر شوقي؟ فما ديوانه إلا تاريخ لمجتمعه وغناء بأفراحه وأتراحه، وحكمة وتسلية وأمل. والفن إذا لم يستمد قوته ووحيه من الحياة ليس بفن، والقصيدة إذا لم تتفرع عن الحياة كما تنبت الفاكهة طبعا من الشجرة الطيبة فهي خالية عن المعنى". وهو يعيب على الذين ضيقوا ميدان الشعر "أولئك الذين قضوا حياتهم في وصف خواطرهم وهواجسهم وأغمضوا عيونهم عما يحيط بهم". ويؤكد توجه شوقي الذي يراه "توغل ... في الحياة فأبان لنا دخائلها ودقائقها برقة وبساطة لم يدركها غيره في هذا الزمان من شعراء العربية. فبساطته مرآة لعبقريته الخصبة". ويثير في هذا الصدد مقابلة يراها كثيرون بين شوقي والمتنبي ويعتبرونه بذلك خلفا له، فيوافق عليها، ويثير ما بين الشاعرين من فرق يتصل بمنظور كل منهما للحياة، إذ "عيشة المتنبي عيشة الرجل المضطرب المتألم المتشائم، وعيشة شوقي عيشة من توغل في نعيم الحياة ونظر إليها بوجه ضحوك طلق، عيشة الرجل المطمئن المتفائل حتى في أعظم الخطوب، وذلك ما يجعله قائدا لحركة قومه دافعاً للعمل مشجعا للعزائم".[40]

---

(39) ص : 120.

(40) ص : 121.

الثالثة : أن شعر شوقي ينم عن معرفة متسعة وثقافة عالية، "فنظم أصغر قطعة من قطعه الاجتماعية يتطلب علما واسعا وعقلا مدبرا يجتمعان إلى فطرة قوية فطر عليها ومعرفة، لكنها الحياة اكتسبها. ولكن شوقي العالم ينسى علمه إذا ما نظم، فهو الشاعر قبل كل شيء، ولكنك حيث تشعر أن مثل ذلك الشعر لا يصدر عن رجل فارغ الوطاب بكر التفكير". ومن ثم يرى "أن الثقافة لن تفترق عن الشعر في المستقبل، ولكن الشاعر الحقيقي إذا ما نظم يجب أن ينسى الثقافة التي غذته وحملته على الشعر، فيرجع إلى فطرته الأولى لينفذ كلامه إلى أعماق النفوس، نفوس جميع الناس بلا استثناء. وقوة حياته الباطنية وحاسة الشاعرية التي رزقها تسمحان له بذلك. فإذا تمشى مع فطرته وخضع لعاطفته، فبدون إرادته أو عمله تستولي ثقافته الواسعة على شاعريته وتحيط بها وتحجبها. ومهما أحاطت بها ومهما أخفتها، فإن تلك الروح الفطرية عند الشاعر الحقيقي تبقى هي الهادية له في نظمه والقائدة. وتلك هي المعجزة التي أتى بها شوقي، شوقي العالم الفقيه المؤرخ، شاعر قبل كل شيء"[41].

وبعد أن أثار الكاتب هذه القضايا الثلاثة، عاد في شبه تلخيص لها واستجماع لرأيه فيها، فرد على الذين هاجموا أسلوب شوقي ولغته وتقليديته وروحه الشرقية ونزعته الإسلامية، وقال : "بعض صبيان الأدب قالوا عن شوقي وهو في الخمسين من عمره أنه شاعر عتيق الروح هرم وشاخ عقله ونضب معينه. والحق أن شوقي عاش طول حياته شابا ومات وهو في صفنا معشر الشباب. أما من انتقدوه وزعموا قريحته شاخت

(41) ص : 121 - 122.

وشاخ عقله، أولئك ماتوا قبل أن يتمتعوا بنور الحياة، فهم في قبورهم يشاغبون، لأنهم لم يدروا أن الفنانين الحقيقيين ليس لهم شيء يعرفون به، بل هم يحملون الحياة الأزلية دوما في أنفسهم". وفي حكم له نهائي على الشاعر، انتهى إلى "ان شوقي كان شاعرا عصريا، وكان شاعر عصره، لكنه لم يخرج عن أسلوب لغته، ولو خرج لما كان شاعرا أصلا إذ لا شعر بدون لغة. قد عالج شوقي في شعره جميع القضايا العصرية، وأودع شعره معاني جديدة لا تحصى، فإذا كان هناك أناس يكابرون في كون شوقي أشعر العصريين بحجة أنه لم يخرج عن أسلوب لغته، أو بحجة أنه مع إيداعه شعره المعاني الحديثة بقي محافظا على نزعته الشرقية، وشاعرا بروحه الإسلامية، فاعلم أن في نفوسهم غرضا أو طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون".[42]

ثانيـــا : تعليق [43] على كتاب "الأدب العربي في المغـــرب الأقصى"[44] للأديب المرحوم محمد بن العباس القباج، أثار فيه بلا فريج – الناقد – بعض ما ينم عن رأيه في حال الأدب – والشعر خاصة – بالمغرب وما يطبع الشعراء المغاربة، مع مراجعة مؤلف الكتاب في بعض أحكامه :

1 – بدأ بالحديث عن النهضة التي يعرفها المغرب " في جميع أجزاء الحياة الاجتماعية، في الدين وفي السياسة وفي الأدب. وعصر النهضة يمتاز

---

(42) ص : 122 -123.

(43) نشر في مجلة "الزهراء" المصرية لمحب الدين الخطيب – السنة الخامسة – العدد الخامس – ذو القعدة 1347 هـــ.

(44) أصدره في جزءين بالمطبعة الوطنية – الرباط – الطبعة الأولى 1347 هـــ = 1929م

دائما بغموضه وإبهامه، وبارتباكه واختلاطه. فالناس غير راضين بالحاضر ويريدون شيئا غيره، ولكن رأيهم لم يستقر بعد على ذلك الشيء. ولئن كانت النهضة الدينية قد تم أمرها وسارت في طريق التنفيذ، والناس قد اتفقوا أو كادوا على أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، فإن ناحيتي الأدب والسياسة لا تزالان في ارتباك وغموض".

2 – وعنده أن السبب في هذا الفارق بين مجالي الدين من جهة والأدب والسياسة من جهة أخرى، راجع إلى "ما طرأ على التعليم الديني من الإصلاح والتقدم، فقد قامت في البلاد زمرة من العلماء السلفيين أخذوا في درس الكتاب والسنة، وتبيين طرق الهدى للعامة، ومحاربة الجمود والتقليد المضر. ويكفي أن نذكر منهم أبا شعيب الدكالي والسيد المدني ابن الحسني وابن العربي العلوي. والنهضة متى وجدت قائدا كفؤا توطدت أركانها، وسارت نحو الهدف الذي ترمي إليه، فالفضل في استقرار النهضة الدينية يرجع لأولئك العلماء الأكفاء. أما في الناحية الأدبية – وهي التي تعنينا الآن – فليس فيها إلى الآن شخصية قوية بارزة، يمكنها أن تحمل لواء الأدب، ويمكن للأدباء الآخرين أن يقتفوا أثرها آمنين مطمئنين؛ فسوق الأدب رائجة، وقرائح الشعراء خصبة منتجة، ولكن على ذلك الأدب مسحة من الفوضى، وكثير من عدم التوازن والتناسب".

3 – ومن هنا انتقل للحديث عن كتاب القباج لاظهار أهميته، إذ هو يعطي "صورة قريبة لما هو الأدب المغربي في هذا العصر. وأقول قريبة، لأن المقتطفات مهما كانت وافية، فهي لا تكفي لدرس أدب أمة من

الأمم. ولكن صديقنا القباج قد سد هذه الثلمة بما جعله في كتابه من التراجم الواسعة والبحوث المفيدة".

4 – ثم نظر في المنهج الذي سلكه مؤلف الكتاب، في تقسيمه الأدباء إلى أقدمين ومخضرمين ثم المحدثين، فأخذ عليه – انطلاقا من رؤية متقدمة للشعر – "أن هذا الترتيب إرادي محض، إذ لم يبين لنا القياس الذي استند عليه، ولم يبين لنا أين ينتهي القديم وأين يبتدئ الحديث. ولعل أخانا القباج يقول : شعر طبقة الأقدمين إنما هو كلام موزون مقفى فقط، أما شعر المحدثين فهو شعر الإحساس والشعور، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، فقد نجد عند من يسميهم الأقدمين، شعرا كله شعور وكله حياة".

5 – وحتى لا يبقى هذا الرأي مجرد كلام عنده، فقد بلوره من خلال وقوفه على نص للشاعر محمد السليماني كان القباج قد اعتبره ضمن الأقدمين، ومما جاء فيه قوله في هذه الأبيات : [45]

فلا مال يصون لنا حياة ولا عضد يساعد في الصعاب

مصانعنا ألم بها فساد فأصبحت الصنائع في اضطراب

وساد على تجارتنا كساد فرأس المال منخرم الحساب

وزاحم في فلاحتنا أناس جنوا من ريعها عجب العجاب

ونحن ازاءهم فقراء نلقي بأنفسنا بأحضان المرابي

---

[45] أنظرها كاملة في كتاب "الأدب العربي" ج 1 ص : 43 – 45 وهي بعنوان (إلى حماة الدين).

فقد وقف الحاج أحمد على هذا النص وتساءل : "فما وجه الأقدمية في هذا الشعر ؟ هل ليس في هذا وصف الحالة الحاضرة ؟ وهل ليس فيه ما يثير الحزن والبكاء ؟ والحق أن الناس صارت تفضل الشاعر الذي يبكي في شعره على الشاعر الذي يثير البكاء بشعره".

6 – وهو بهذا أثار قضية كبرى وعميقة في التعبير الشعري لم يلبث أن أفضت به إلى أن " الشعر العربي الحديث، سواء في المغرب أو غيره قد امتاز بما يسيطر عليه من الحزن العميق والكآبة والقلق. وذلك ناتج عما تعانيه الشعوب العربية من اضطهاد واستعباد. ثم هو ناتج أيضا عن تذمر الشباب مما وصلت إليه أوساطهم الاجتماعية في الانحطاط وما آل إليه أمر مواطنيهم من التقليد الخطير، والتشبث بالخرافات والأوهام".

7 – وبعد أن أكد أن أشعار الجزء الثاني من الكتاب "كلها دموع وحزن وأسى"، لم يستغرب لذلك، وانتهى إلى " أن في الشعر الحديث شيئا يجذب إليه النفوس، ويجعل الناس تفضله على غيره، وذلك أن الشاعر يكشف لك ناحية من قلبه، ويحدثك بما عرض لشخصه، ويريك شيئا من أنينه، فتراه كيف يحس وكيف يفكر وكيف ينفعل وكيف يتأثر ؟ ويحكي لك آماله وآلامه، ويبكي أمامك، ويشكو من دهره فيثير حنانك وشفقتك، وتسيل دموعك من دموعه، والناس شديدو الميل إلى كل حياة الأديب الداخلية وما يمس ناحية من نواحيه المستورة عنهم".

8 - ثم ختم تعليقه بشكر المؤلف والاعتراف بفضله والتطلع إلى جزء آخر من كتابه : "فنحن نشكر لأخينا السيد محمد القباج مجهوده، ونعترف له بالفضل لما أسداه للأدب العربي بزيادة هذا الكتاب الذي

سيكون له الأثر الكبير في تعريف مغربنا لإخوانه أبناء الشعوب العربية، ونرجو أن يصدر الجزء الثالث[46] في القريب العاجل لأننا نعرف كثيراً من الشعراء لم نر لهم ذكرا في هذين الجزءين، وخصوصا شعراء تطوان".

* * *

هذا وتجدر الاشارة إلى أن للمرحوم الحاج أحمد بلا فريج مقالات أخرى في موضوعات إسلامية وقضايا ثقافية لم أدرجها ضمن بواكيره في الكتابة التاريخية والأدبية، وتكفي الإشارة منها إلى :

أولا : مقالة عن "التصوف الإسلامي وخمرية ابن الفارض"[47] انطلق فيها مما كان نشر في مجلة "الفتح" من أن المستشرق دورمنغام ترجم في كتاب له خمرية ابن الفارض وصدرها ببحث عن التصوف عموما، والتصوف الإسلامي على الخصوص. ثم تحدث عن بعض ترجمات شعر ابن الفارض ووقف مع المترجم :

1 – فيما ذهب إليه من أن التصوف الإسلامي مستقل بنفسه، وأن ما يتشابه من نظريات ليس ناتجا عن تأثير، ولكن نتيجة لتجربة باطنية واحدة.

2 – وكذا في قوله إن التصوف المطلق هو غاية الدين، فخالفه على اعتبار أن مثل هذا المفهوم ينافي كل دين، رافضا القول بترك الشرائع والفروض.

---

(46) لم يصدر أي جزء بعد السفرين المطبوعين.

(47) نشرتها مجلة "الفتح" في عدد 28 شعبان 1350هـ = 8 يناير 1932م.

3 – وهو يؤكد أن الإسلام لا ينافي التصوف المبني على مكارم الأخلاق.

4 – ويعتبر أن فساد التصوف راجع إلى دخول الفلسفة اليونانية والهندية.

5 – ويطمئن المترجم الذي تخوف من اضمحلال الطرق الصوفية أمام هجمات المصلحين، خصوصا في افريقيا، ولكن يبين أنه لا ينبغي أن يكون أصحاب الطرق معولاً في أيدي الأجانب.

6 – ويقف عند "ظاهرة غريبة" خففت من حملة الناس على زعماء الطرق وهي وقاحة مبشري الكاتوليك، واعتبار كثير من المصلحين أن الطرق الصوفية لازمة لمقاومة التبشير، مما جعل بقاءها مع الإصلاح يكون جبهة واحدة أمام هجوم الصليبيين.

ثانيا : مقالة "حول الثقافة الفرنسية والثقافة الاسلامية"[48] وجاء فيها :

1 – أن بقاء الثقافة العربية بهذه البلاد هو أساس كيانها.

2 – باضمحلالها تسهل الفرنسة وينقضي الأمر.

3 – التحذير من سفسطة الأوروبيين الذين يجدون في نشر لغتهم ويضيقون الخناق على لغتنا.

---

[48] منشورة في جريدة "الأطلس" العدد 12 – 7 مايو 1937م.

4 – تفضيل الثقافة الفرنسية منشأه التعصب لأنها ليست هي المثل الأعلى ولا مقياس الثقافات.

5 – تاريخ اللغة العربية والثقافة الإسلامية لا يقاس بتاريخ أية لغة أجنبية.

6 – تفنيد أن الإسلام إنما يدعو لعلوم الدين، وتأكيد أن الدين يدعونا إلى تعلم كل ما فيه قوام دنيانا.

7 – تحذير الذين يجهرون بالقضاء على لغتنا وثقافتنا.

8 – المطالبة بأن تكون للغتنا المكانة اللازمة لها في التعليم.

وتجدر الإشارة كذلك إلى بعض الأقوال التي صدرت عن المرحوم بلا فريج ملخصة لبعض القيم والمواقف والحكم، والتي نشرت له "في معرض الأفكار"، وهو ركن كانت تخصص له مجلة "السلام" بضع صفحات من كل عدد.

ومن الأمثلة على هذه الأقوال :

1 – " يقولون إذا ذهب الدين خلفناه بالأخلاق، وفي الحقيقة الدين تربة لغرس الأخلاق، فكيف يغرس نبت بدون تربة ؟"[(49)]

2 – "كم من ذكريات يحكيها الإنسان بلسانه، وهي دموع في قلبه"[(50)]

---

(49) عدد صفر 1353 – يونيو 1934 – الجزء التاسع – السنة الأولى.

(50) نفسه

3 – إذا رأيت خللا في إنسان أو في جماعة من الناس، فلا تنبههم إليه حتى تكون قادراً على إرشادهم لإصلاحه، فإن من القساوة أن يخبر الطبيب رجلا يعتقد نفسه في تمام العافية بأنه مصاب بمرض مخطر، وأن ليس لديه دواء لدائه"[51].

4 – "ليس الاستقلال عملية تجارية يدفع قسطا فقسطا، وإنما هو كتلة واحدة لا تتجزأ، يوخذ ولا يعطى. فطوبى لمن استعد لأخذه، وويل لمن تمنى أن يعطى له".[52]

وتجدر الإشارة كذلك إلى أنه في السياق المتصل بالكتابة الأدبية وما يميزها من إبداع، تلفت النظر مجموعة الرسائل التي صدرت عن المرحوم بلا فريج وكان قد وجه بعضها إلى شخصيات كانت له بها علاقات وطيدة. وتتميز – من بينها – الخطابات التي كان يبعثها إلى الأمير شكيب أرسلان. وقد وقفت على عدد منها تحتاج إلى أن تدرس في بحث خاص لما تتضمنه من معلومات خاصة، وأخرى تتصل بالقضايا الوطنية.

وهي تعنى في مجملها بما يلي :

1 – الإعراب عن العواطف والأشواق.

2 – التطلع إلى كتاباته ورسائله وما فيها من نصائح، والاستمتاع بإعادة قراءة خطاباته ومشاهدة صوره.

3 – الاشتياق إلى بعض الأكلات السورية.

---

[51] نفسه

[52] عدد ذي القعدة 1352 هـ = مارس 1934م. الجزء السادس – السنة الأولى.

4 – السؤال عن أحوال سورية.

5 – التطمين على حالته الصحية.

6 – الاستفسار عن الكتب والمطبوعات، وانشغالاته في هذا المجال.

7 – الإخبار بحال الرفاق والأصدقاء.

8 – وصف العمل الوطني ومقاساته.

9 – الإخبار عن المدرسة وتكاليفها ومشاق تسييرها.

10 – طلب الرأي في بعض القضايا الوطنية.

ويتبين من قراءة هذه الرسائل :

1 – أنها كتبت بأسلوب عفوي وتلقائي لا تكلف فيه ولا تصنع، وربما لوحظ فيه شيء من التساهل، مع إدخال بعض الكلمات أو العبارات الأجنبية.

2 – أنها تنم عن لهجة كلها احترام وتقدير للمرسل إليه، مع استعمال كلمات وصيغ معبرة عن ذلك كقوله : مولاي، ولدكم المخلص، بعد تقبيل يديكم الكريمتين...).

وهذا نموذج منها :

نموذج من كتابة الحاج أحمد بخط يده رحمه الله

في [illegible] مارس

صاحب العز والسعادة مولاي الأمير شكيب رعاه الله وحفظه
[illegible] قبضت كتابكم العزيز. تأخر هذه المرة عند ناصر.
نصائحكم اتبعتها ولو أحصى لكم أمرا. بارك الله لي فيكم -
أما الكتاب فقصدنا جعله مختصرا حتى لا يمل من قراءته الشواب
والشيوخ وحذفنا منه كثيرا من الحقائق بجانبنا حتى لا يقال إننا
نتحامل أو أن الكتاب يقصد غير بيان الحقيقة. وعلى ما يظهر أنه أثر
في بعض الأوساط وربما قرأنا أن صحف الشرق تقرظه وتنتقد
[illegible] لهجته اللينة وإيجازه. ففي ذلك فائدة.
سافر القديس من باريس وسبقه توجس بالحالة العسكرية قبيحة
جدا عندهم هناك في هذه الأيام خصوصا في ناحية تادلة حيث
وقع ما يشبه فاجعة yen bay في الهند الصينية جاء جماعة كبيرة
من العساكر الأهلية التي كانت تقاتل بجانب فرنسا فقتلوا ضباطهم
وفروا للخطوط (العصاة) يحملون أسلحتهم وعددهم. وعلى أثر
ذلك [illegible] امتلأت القبيلة التي كانوا نازلين بها العصيان خصوصا
وهي ناحية بربرية محضة فمما لا شك فيه أن الاستياء عام بين البربر
لا أدري أوقفتم على مقال الطان (يصلح فيه) وكله هذيان بدون
لم يأت بحقيقة ولا دحض حجة وإنما همه إنكار بعض الوفود مع
[illegible] البربر لم يطالبوا السلطان، إني [illegible]
حضرت لقدوم وفدين وتكلمت مع أعضائهما. والحاصل أنه يظهر
من المقالة ما هم فيه من الارتباك والحيرة
قابلت صاحب السعادة إحسان بك قبل سفره وترك لي قليلا من
الأمل في قدومكم فإن الشوق إليكم عظيم. ولكنكم تبعدون ذلك إلى
سبتمبر - فهل تعلمون أنه بيننا وبين سبتمبر نصف سنة؟
على كل حال نطلب المولى أن يسهل لنا في اللقاء قبل هذا التاريخ.
وصل كتاب [illegible] وسأشرع في الترجمة منه

انا منحصر من حيث ساعات الت طوائي من مدة طويلة لم أكاتبكم لكثرة شغلي ولم تمكنني الظروف من زيارته عند مروري بي المغرب باكوب شاكر لمولاي لو اعتذر عني بي احدى رسايله.

اخبرني الاخ الفاسي بما يعلوه صحة - ولم استغرب ذلك بالضبط الذي يعيش فيه المغرب الان فوق التصور - وفي ذلك خير عظيم - وفرنسا تسعى لحتفها.

كلام الامير العربي نجل الامام يحيى هو الحكمة اذ فرنسا لا تعتبر للمسلمين قيمة مالم يسوها في معبودها - الدرهم -

اريد ان اخذ رايكم في هذه المسالة: لما قام العالم الاسلامي يحتج على بريطانيا في مسالة فلسطين كنت انا واقدا اخواني المعتقلين الآن - محمد اليزيدي - اسسنا بالرباط لجنة لجمع الاعانات وفي اول يوم خرجنا للعمل دورة في سوق الرباط وجمعنا نحو 25.000 فرنكا فاذا بالبوليس يرغمنا على الذهاب لمنزل رئيس الناحية فامرنا هذا ان نكف عن العمل واخذ منا المال المجموع بعدما اخذنا منه وصلا بذلك. وقال لنا لا بد لكم من اذن خاص وان يكون الطلب الاذن من الشيوخ والعلماء لا من الشبان فالبعنا وهدا ابيه من العلماء ومن اعضاء اللجنة البلدية بذهب هذا وقابل الرئيس المذكور وقال له اننا نريد ان نعين اخواننا [illegible] فقال لهم الرئيس انتم مغاربة ولا علاقة لكم باهل فلسطين فقالوا ان ذلك المسجد ليس لاهل فلسطين ولكن هو للمسلمين جميعا فمن حقنا نحن ايضا ان ندافع عنه ولو بارسال الصدقات الى اليتامى والارامل ثم ان اليهود المغاربة ارسلوا اعانات ولم تتعرض لهم الحكومة فقال ان اليهود انما ارسلوها للاخوانهم اليهود المغاربة المهاجرين في القدس فقال الوفد ونحن ايضا لنا جالية مغربية في القدس بل حارة تعرف بحارة المغاربة [illegible] القنصل الفرنسي سأله فاجاب ان هناك عدد من المغاربة ولم يلحقهم ضرر - وبقيت الحكومة تسوف الناس الى ان حصلت قضية البربر. فوقفت المسالة الاولى والمال المجموع ما يزال محجوزا عند رئيس الناحية ورباشا الرباط فكيف السبيل الى المطالبة به ليرسل الى ما خرج من اجله؟ نعم ان القدر زهيد ولكن على حال [illegible] فيكفي بانه رمز على انه لو لم يقع ذلك الضغط لكان المغرب ممن اعانوا في القضية ولكن فرنسا خبيثة لعنها الله

اي نبليديكم الكوعشي [illegible]

قرأت تقريظكم الرسالتكم عن تأخر المسلمين سأرسله في كتاب واخر عنوان الفاسي
اما الخلاصي فقد غير عنوانه بعد هذه 9 ايام و17 او ... عنوانه الجديد 3 passage Dareau, Paris (14e)
ويمكنكم ارسال نسخته في عنواني بانه سيعطاه باسمكم [illegible]

وبعد، فهذه بدايات في مجال الكتابة الأدبية والتاريخية. وهي – على كونها بدايات – لا تخلو من ريادات كان بها للمرحوم الحاج أحمد بلافريج فضل تناول موضوعات وقضايا سبق إلى بعضها، بما ينم عن نبوغ مبكر وقريحة متطلعة ووعي متحفز وإدراك متيقظ.

وهي – جميعا – تدل على أن العمل الوطني بدأ جهادا فكريا وثقافيا قبل أن يتجه للنضال السياسي. وتدل كذلك على أن الحاج أحمد لو استمر في مجال هذا الجهاد بالكتابة والتأليف لأعطى إنتاجا ثراً غزيرا، ولكنه بحكم متابعة مقتضيات الخط السياسي، كان مضطرا إلى الانصراف عما سواه. وما كان له أن يتجه في غير هذا الخط وهو فيه رائد وأستاذ وصاحب مدرسة. وقد نفع الله به في المرحلتين والاتجاهين، فلعله أن يجزيه عما قدم لدينه ووطنه بما هو به حقيق وجدير، وأن يجزل له الرحمة والمغفرة والرضوان.

جوانب منسية

من جهاد محمد اليزيدي

عرض مقدم إلى الندوة التي نظمتها جمعية رباط الفتح في ذكرى أحداث 29 يناير1944، وذلك يوم الأحد 27 شعبان 1415 هـ الموافق 29 يناير 1995 م، وقد نشر ملخص مستخرج من العرض المرتجل الذي قدمه الجراري بالمناسبة في كتاب (الرائد الذي لم يكذب أهله : الوطني المجاهد محمد اليزيدي) منشورات جمعية رباط الفتح .ط الأولى . الرباط 1999. وقد كانت وفاته -رحمه الله -يوم السبت 3 جمادى الثانية 1411 هـ 22 دجنبر 1990م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة

حضرات السيدات والسادة

بشعور من السعادة لا حد له. أشارك في هذه الندوة التكريمية التي تقيمها جمعية رباط الفتح بمناسبة ذكرى أحداث التاسع والعشرين من يناير سنة أربع وأربعين وتسعمائة وألف، والتي تخصصها هذه السنة لأحد كبار المجاهدين الذين كان لهم دور ريادي كبير في الحركة الوطنية، ذلكم هو المرحوم محمد اليزيدي الذي تربطني به وشائج خاصة تزيد في حرصي على المشاركة بعرض أتناول فيه ملامح من شخصيته عبر "جوانب منسية". وسأقتصر من هذه الجوانب على أربعة:

1) بين المعروف والمنسي من حياة اليزيدي.

2) الدور الطليعي الذي كان له في مقاومة الظهير البربري، إذ أوذي بسبب ذلك، إضافة إلى أنه كان اللسان الناطق باسم الرباطيين لدى السلطة، ويتجلى ذلك في أمرين :

أ ــ حضوره في استنطاق الوالد رحمه الله.

ب ــ ضمانه عند إطلاق سراحه.

3) رئاسته جمعية (مدرسة العاصمة الرباطية) التي ستسمى فيما بعد (الجوق المغربي للتمثيل العربي)

4) رئاسته تحرير جريدة (الأطلس) وإدارتها وكتاباته فيها.

وسأمر سريعا على النقط الثلاث الأولى، لأطيل الوقوف قليلا عند النقطة الرابعة، بحكم أنها تعرضت أكثر من غيرها للنسيان، وبحكم أنها تبرز جانبا من شخصية اليزيدي باعتباره كاتبا أديبا وليس فقط رجل سياسة.

ولعلكم ستستغربون من هذا الموضوع وستسألون :

لماذا الحديث دائما عن المنسي من تاريخنا ومن ماضينا القريب والبعيد وحتى حاضرنا؟

الجواب كامن في نقط ثلاثة :

1) ضعف ذاكرة الأمة أفرادا وجماعات، مما يظهر في قلة العناية وضعف الإحساس بالذات.

2) حساسية المعاصرة، وتمتد إلى التاريخ.

3) التقصير في التدوين، على حد ما يلاحظ في مجال كتابة التاريخ وتحرير المذكرات، وقد بدأ هذا التقصير يخف، وإن كانت الذاتية تطغى عليه.

ومع أني سأتحدث عن بعض المنسيات، فإن الواجب علي أن أقول ولو كلمة تذكيرية موجزة بما هو معروف عن الرجل.

فالمعروف عن اليزيدي، أنه :

1) أحد أعمدة الحركة الوطنية.

2) نائب الأمين العام لحزب الاستقلال.

3) أليف سجون الاستعمار.

ومعروف عنه كذلك أنه صاحب :

1) فكر منظم لعمل الخلايا الوطنية، بوأه مكان المعلم المربي.

2) سلوك منضبط ومستقيم، مع ثبات على المبدإ، وصرامة في المواقف يبدأها مع نفسه قبل أن يتعامل بها مع الآخرين، مما رسم له في الأذهان صورة شخص وقور ومهيب.

هذا، من غير أن ننسى أنه :

1) كان نائبا للأمين العام للحزب (وهو يومئذ الحاج أحمد بلافريج) منذ 1944 أي منذ تأسيس حزب الاستقلال.

2) رأس وفد الحزب في مفاوضات إيكس ليبان التي أفضت إلى إلغاء عقد الحماية.

ومع ذلك، فهناك جوانب لا نعرفها بشكل مضبوط، لاسيما فيما يتعلق بتكوينه وثقافته وطبيعة شخصيته، بدءا من النطق باسمه، فهو على ألسنة الناس :

اليزيد واليزيدي وابن اليزيد وبوشعيب، وهو اليزيدي في بعض توقيعاته في جريدة "الأطلس"، وهو اليزيد في مجلة مغرب : (Maghreb)، وعند بعض الذين كتبوا عنه كالوالد رحمه الله .

وتجدر الإشارة إلى أنه ابن أسرة متواضعة، إذ كان أبوه مجرد ساع (عون) في إحدى الإدارات الرسمية، ولكنه كان رجلا محترما في الأوساط، وكان معروفا ب "ابّايزيد".

أما تكوينه فمزدوج، يمثله حضور دروس شيوخ المرحلة خاصة الشيخ أبا شعيب الدكالي مما جعله يتأثر بالتيار السلفي،كما يعكسه المرور بالمدرسة العصرية عبر الالتحاق بالثانوية اليوسفية.

وأما شخصيته، فقد جمع فيها إلى الحزم والصرامة شعورا متفردا بالأنفة الوطنية والاعتزاز بالعمل في سوح الجهاد، من غير أن يبعده ذلك عن روح الدعابة التي ظلت ترافقه مدى الحياة، إذ كان له ميل إلى المرح والسخرية حتى في مرض موته، كتقليده لبعض رفقائه، على نحو ما كان يفعل عندما كنت أزوره في مترله بالدار البيضاء أواخر عمره وهو يقلد الوالد في كيفية تصحيحه للنطق أثناء تدريب الممثلين على أداء أدوارهم في رحاب جوق التمثيل. ثم إنه كان متمسكا بالروح المغربي، ومتشبثا بمظاهر تعكس الأصالة العربية الإسلامية. من ذلك :

موقفه الرافض لانخراط العمال المغاربة في النقابات الفرنسية خشية الاندماج، وكذا خشية استغلال الاستعمار لقوهم، بالإضافة إلى الطابع الشيوعي الذي كان لبعض تلك النقابات.

ومنه كذلك :

الصورة المتميزة التي كان يبدو بها، إذ كان يرتدي الجلباب مع العمامة الرقيقة والعذبة، في التزام للنظارات ذات الإطار الأسود.

هذه هي الصورة التي عرفته عليها أواخر سنوات الأربعين وبداية الخمسين. وكما كان ظاهره كان باطنه أصيلا، لا يبدو فيما يقوله أو يكتبه بعيدا عن الروح المغربي والثقافة العربية الإسلامية، على الرغم من التكوين الفرنسي الذي اكتسبه في الثانوية اليوسفية ومعهد الدروس العليا، والذي أهله للعمل ترجمانا في المحافظة العقارية.

ثم إنه إذا كان معروفا موقعه في الحركة الوطنية، فإن مما ينبغي التنويه به هو دوره في تأسيس هذه الحركة وبث الوعي الوطني في وقت مبكر؛ والمظاهر التي تجلي هذا الدور، لاسيما ما يبدو منها بعيدا عن العمل السياسي المباشر، كالتجاوب مع حركة النهوض في الرباط ومساهمته فيها باعتبارها إطارا ملائما للعمل الوطني .

وإذا كان الباحث يلاحظ ثغرات في المادة التعريفية بالمكرم، فذلك راجع إلى قلة مصادر هذه المادة. فالأسف أنه لم يدون مذكرات، وأن ما كتب عنه ركز على الجانب السياسي أو اكتفى بالإشارة إلى الجوانب الأخرى، علما بأن بعض المعلومات الجزئية تكتسي أهمية خاصة، وفق ما كتب الوالد رحمه الله عن حادث الظهير البربري والدور الظاهر والخفي الذي كان يقوم به، وكذلك وفق ما سجل هو في يوميات مجلة مغرب (Maghreb).

أما علاقتي به، فكانت بواسطة الوالد رحمه الله، وفي إطار الشبيبة الاستقلالية،أيام مرحلة الدراسة وما كان لي معه من مراسلة ما زلت أحتفظ ببعضها، وقد تتسنى الإشارة إليها في هذا العرض إن سمح الوقت.

من هنا كانت رغبتي في البحث عن المزيد من الجوانب المنسية، أو التي وقع الاكتفاء بالإشارة إليها فقط كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

* * *

وعلى الرغم مما هو معروف عن جهاده الوطني، فإنه من اللازم أن أذكر ببعض مواقفه المتميزة، من خلال هذه النقط السريعة :

1) في حوادث الظهير البربري، نفي إلى قلعة السراغنة، وذلك يوم 19 سبتمبر 1930 ثم رجع عام 1932 ؛ وكان يومئذ موظفا في المحافظة العقارية فقدم استقالته، رفقة عمي محمد رحمه الله وإياه.

2) شارك في تحرير مطالب الشعب المغربي سنة 1934، وكان من ضمن الذين قدموها للإقامة. وفي 3 نونبر وعلى إثر مهرجانات نظمت للتعريف بالمطالب المستعجلة ألقي عليه القبض.

3) بفضل قدرته على الحوار الجاد كلف بنقل مقررات الحزب الوطني للإقامة سنة 1937 ، وتم نفيه لآيت عطا.

4) دوره مشهور في أحداث المطالبة بالاستقلال (يناير 1944).

5) ألقي عليه القبض في فبراير 1951 مع جماعة، وسجن في لعلو بالرباط، وأزمة جوان على أشدها، ثم أطلق سراحه في 28 أبريل 1951.

6) ألقي عليه القبض إثر حوادث كاريان سنطرال يومي 7 و8 دسمبر 1952، فأبعد إلى الصحراء ثم سجن في البيضاء والقنيطرة، وذلك على إثر محاكمة عسكرية، وأطلق سراحه في فاتح أكتوبر 1954. وبالمناسبة وجهت له رسالة.

وحول موقفه في حادث الظهير البربري، أود تقديم بعض المعلومات التي تعكس مكانته وما كان له من موقف إلى جانب الوالد الذي كان خطيب

هذا الحادث وسجينه ومبدع شعاره "اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر".

ومعروف من خلال التواريخ التي سجلتها مجلة (Maghreb) في عددها 11 مايو –يونيو من السنة الثانية 1933 بمناسبة الذكرى الثالثة لأحداث الظهير البربري :

1) أنه في يوم 12 يوليوز 1930 استقبل خليفة الباشا وفدا يطالب بإطلاق سراح عبد الله بن العباس.

2) وأنه في يوم 13 منه أطلق سراحه بضمان من محمد اليزيد على ألا يعود إلى إلقاء الخطب.

3) وأنه في يوم 19 سبتمبر نفي محمد اليزيد إلى السراغنة.

وقد تحدث الوالد رحمه الله عن خروجه من السجن رفقة الحارس، فقال، وكانت الساعة العاشرة صباحا، "... وخرجنا مارين من مقبرة لعلو (جبل الزعفران) ... ثم بلغنا محكمة الناحية بشارع العلو قبالة ضريح (سيدي فاتح)، فطرق السجان الباب ففتح له حارس الليل وأعلم بحضورنا، وفورا صعدنا إلى مكتب الحاكم فدخلناه، وإذا بالأخ محمد اليزيد معه بالمكتب وهما يتذاكران في القضية، فجلست ثالثهما. عندئذ كتب الحاكم بطاقة وسلمها إلى الشرطي الذي جاء به قصد دفعها لحارس السجن، إيذانا له بعدم رجوعي إليه، ليسقطني من اللائحة، ثم استأنف الحاكم حديثه مع الأخ اليزيد في شأني كمهدد، وذاكرا له سبب العفو عني قائلا : إنما عفونا عن صاحبك بمناسبة عيد الجمهورية ولم تسمح له نفسه الخبيثة بالتصريح بعيد الحرية..."[1]

[1] (كتاب شذرات تاريخية من 1900 إلى 1950 ص 85، ط الأولى الدار البيضاء رمضان 1395 الموافق أكتوبر 1975).

واستمر الوالد رحمه الله :"...وأثناء هذه الجلسة أخذ الحاكم يوصي الأخ اليزيد بملاحظة أعمالي والسعي في كفي عما أحاول من السياسة، والتفت إلي قائلا: وإنما أطلقت سراحك لما ذكر، وبعد الآن فلا أدري أأتنازل عن متابعتي لك أم لا؟ وختاما وعند الافتراق جعل يحادث الأخ ويده على كتفي وأنا متوتر مغضب لا ألتفت إليه وإن بدرت مني نظرة فشزرا؛ الشيء الذي حدا بالأخ أن يلمح لي بمصافحته ؛ ثم خرجنا قاصدين الدار. وفي الأثناء كان جماعة من الإخوان ينتظروننا فسلموا علي في حرارة يهنئ بعضهم بعضا إلى أن بلغنا البيت. هنا ودعت الأخ اليزيد على أمل اللقاء بعد لحظات. ودخلت فسلمت على الوالدين، وسرعان ما انتشر الخبر وأخذ الناس على اختلاف طبقاتهم يطرقون الباب للسلام علي. ثم عاد الأخ وبمعيته الأستاذ الحاج أحمد بلافريج والأستاذ المرحوم محمد غازي، فخرجت إليهم وذهبنا جميعا إلى بيت الأخ محمد اليزيد..."[2].

* * *

بعد هذا أود أن أقف قليلا عند تأسيس الجوق المغربي للتمثيل العربي.

وحتى تتضح أهمية هذا التأسيس، أود أن أشير باقتضاب للأنماط الشعبية المسرحية التي كانت معروفة في المغرب، وهي :

1) الحلقة.

2) لفراجا، وهي أقرب إلى المسرح، وكانت تقام في مناسبات كعاشوراء.

---

[2] نفسه ص 86

3) شعراء إيميديازن الجوالون في ربوع الأطلس، انطلاقا في الغالب من آيت احديدو.

4) سلطان الطلبة.

5) البساط : في مدن كمراكش وفاس والرباط، وكان ينظم في الأعياد والمناسبات منذ عهد سيدي محمد بن عبد الله. وهو عبارة عن فصول مسرحية كل منها تسمى (الواقعة)، بهدف التسلية وكذا الوعظ.

6) سيد الكتفي الذي كان مشهورا في الرباط.

أما المسرح في صيغته الحديثة فقد تأخر ظهوره :

1) بسبب تأخر النهضة.

2) وبسبب عدم اعتباره من طرف العلماء والمفكرين والأدباء.

3) على أساس أنه ليس من الأدب ولا من الفن الرفيع.

4) في وقت لم يلتفت إلى الأنماط الشعبية التي ظلت حية (لتطويرها).

5) علما بأن للمغاربة تقاليد مسرحية قديمة، إذ عرفوا المسرح بحكم تأثرهم بالقرطاجنيين والرومان. وقد شهد المسرح نهضة في عهد يوبا الثاني، وهو مسرح كان مرتبطا بالطقوس والشعائر، وكان قائما على الصراع، وهو ما كان للإسلام موقف منه جعل المغاربة يتخلون عنه.

لكن مع بوادر النهضة الجديدة وقع الاهتمام بالمسرح؛ بسبب:

1) ظروف هذه النهضة والعوامل الفاعلة فيها.

2) الاتصال بالمسرح الوافد من أوربا والمشرق.

3) تأسيس مسرح سرفانطيس بطنجة سنة 1912.

4) استقدام فرق إسبانية وفرنسية وحتى مصرية.

ولعل أول مظاهر هذا الاتصال هو قدوم جورج أبيض إلى تونس والجزائر، وتقديمه بعض المسرحيات الكلاسية المترجمة مثل : أوديب الملك لصوفوكل، عطيل لشكسبير، وكذا مسرحيات عربية مثل : صلاح الدين لنجيب الحداد.

وقد عمل جورج أبيض على تكوين بعض الفرق المحلية، سواء في تونس أو الجزائر حيث تأسست فرقة برئاسة المغني محمد عز الدين، وكان اسمها "جوق النهضة العربية". وهي الفرقة التي زارت المغرب سنة 1923 ولقيت صدى كبيرا سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، إذ قدمت المسرحية في القصر الملكي ووسم السلطان المولى يوسف رئيس الفرقة، لاسيما وأن المسرحية التي قدم ـــ وهي صلاح الدين ـــ أذكت المشاعر العربية الإسلامية في النفوس.

وفي العام الموالي (1924) زارت المغرب فرقة تضم مشارقة وتونسيين، وكان من بين أعضائها عبد الرزاق كرباكة وعلياء وبهية الشامية، ومثلت رواية صلاح الدين ومسرحيتي روميو وجولييت لشكسبير والطبيب المغصوب لموليير.

ثم توالى قدوم الفرق بعد ذلك من مصر وتونس، مما أغرى الشباب المغربي ليس فقط بالدخول إلى مجال المسرح الحديث، ولكن باقتباس الأساليب والتقنيات التي يقتضيها هذا الفن وإطاره (إذ يبدو أن المحاولات السابقة كانت تعتمد السرد والخطابة والتمثيل الفردي الذي يقصد إلى إثارة الفرجة).

ومن أهم الفرق التي تكونت :

1) فرقة من تلاميذ المدارس وخاصة ثانوية مولاي إدريس بفاس سنة 1924، بمساعدة موزع الأفلام المصري السيد الخياط، وقد قدمت مسرحية ألفها محمد الزيزي بعنوان : (الأيدي المحترقة). وستلمع بعض الأسماء مثل : محمد القري - عبد الواحد الشاوي ــ محمد بن الشيخ. ومن ذلك سيتكون (جوق التمثيل الفاسي).

وفي سنة 1928 أعلنت جمعية قدماء الثانوية الإدريسية عن مباراة في كتابة المسرحية ورصدت لها جوائز، إلا أنها لم تتوصل إلا بمسرحية واحدة هي التي ألف والدنا رحمه الله بعنوان (إلى الفضيلة). واستحق بذلك جائزة قدرها مائتان وخمسون فرنكا حسبما تثبت الرسالة التي كتبت الجمعية للمؤلف مؤرخة في فاتح جمادى الثانية 1348 هـــ.

في سياق هذه الحركة المسرحية أسس بعض شباب الرباط عام 1927 جمعية أطلقوا عليها (مدرسة العاصمة الرباطية) برئاسة محمد اليزيدي، وهي ما سمي فيما بعد (الجوق المغربي للتمثيل العربي).

ومن بين أفراد هذا الجوق : بناصر الرغاي - محمد بن العباس القباج - محمد بن عبد الله - المعطي الشرقاوي - محمد المعطي بوهلال - عبد الله السويسي - التهامي الزبدي.

وكان الجوق يلجأ إلى بعض العلماء لتصحيح النصوص وتصويب الإلقاء من أمثال المدني بن الحسني والوالد رحمهما الله.

وقد قدم أول عروضه بقاعة النهضة la renaissance في مارس 1928 بمسرحية (صلاح الدين) التي لقيت صدى في الصحافة حيث كتب محمد

الاوراوي مقالة نشرت في جريدة السعادة نوه فيها بسبق شباب فاس والدار البيضاء والرباط إلى هذا الفن. والمسرحية لنجيب الحداد، وشارك في تقديمها ممثلون مغاربة. ولعل هذه المقالة تعد من أول ما كتب عن المسرح في المغرب. ثم تلت هذه المسرحية مسرحيات أخرى مثل (طارق بن زياد) التي قدمت في يوليوز1928. وكانت ستقدم قبلها في مايو 28 بمسرح النهضة مسرحية (فتح الأندلس) لمؤلفها مصطفى كامل، ولكن السلطات منعتها. ومن المسرحيات المقدمة مسرحية (في سبيل التاج) و(هارون الرشيد).

وعلى نفس المسرح قدم (النادي الأدبي) السلوي مسرحية (الرشيد والبرامكة) للأب اليسوعي اللبناني أنطوان رباط.

هذا وفي سنة 1927 تكونت بمراكش فرقة رأسها مصطفى الجزار.

وفي عام 1928 كون والدنا رحمه الله (جوق السعي والفضيلة).

* * *

أما الجانب الرابع والأخير في هذا العرض فيتناول إدارة اليزيدي لجريدة "الأطلس" وكتاباته فيها.

وقد كانت هذه الجريدة لسان الحركة الوطنية لتحقيق المطالب، وكانت تصدر يوم الجمعة من كل أسبوع، ثم أخذت فيما بعد تصدر يوم الخميس. وكانت تنشر في بعض الأعداد مقالات افتتاحية، من المؤكد أن اليزيدي هو الذي كان يكتبها ويوقع ب(لجنة التحرير).

ومن الذين كانوا يكتبون فيها : الحاج أحمد بلافريج – الحاج عمر بن عبد الجليل – الهاشمي الفيلالي – علال الفاسي – شكيب أرسلان... وآخرون.

وكان اليزيدي يحرر معظم المقالات ويوقع ب : أخو مدين - عبو الريح - اليزيدي - م.ي - جهينة.

فبتوقيع "اليزيدي" أمضى المقالات الآتية :

1 ــ السياسة البربرية :

س 1 ع 13 الجمعة 3 ربيع النبوي 1356 الموافق 14 ــ 5 ــ 1937.

2 ــ النظام البلدي بالمغرب ــ 3 ــ

س 1 ع 14 الجمعة 10 ربيع النبوي 1356 الموافق 21 ــ 5 ــ 1937.

3 ــ الامتيازات الأجنبية بالمغرب :

س 1 ع 23 = 29 ــ 7 ــ 1937.

س 1 ع 24 = 5 ــ 8 ــ 1937.

وبتوقيع "م. ي" أمضى مقالة :

(على هامش مجلس الشورى)

س 1 ع 20 الخميس 28 ربيع الثاني 1356 الموافق 8 ــ 7 ــ 1937.

وبتوقيع "أخو مدين"[3] كان يوقع ركن (حاشية) على نحو ما كتب في :

1 ــ س 1 ع 9 الجمعة 4 صفر 1356 الموافق 16 ــ 4 ــ 1937.

2 ــ س 1 ع 13 الجمعة 3 ربيع النبوي 1356 الموافق 14 ــ 5 ــ 1937.

3 ــ س 1 ع 14 الجمعة 10 ربيع النبوي 1356 الموافق 21 ــ 5 ــ 1937.

---

[3] مقتبس من قوله تعالى في الآية 83 من سورة هود: "وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"

4 ـــ س 1 ع 15 الجمعة 24 ربيع النبوي 1356 الموافق 4 ـ 6 ـ 1937.

5 ـــ س 1 ع 20 الخميس 28 ربيع الثاني 1356 الموافق 8 ـ 7 ـ 1937.

وبتوقيع "عبو الريح" كان يمضي (عند جهينة) وهو ركن ساخر، ومن نماذجه :

1 ـــ س 1 ـــ ع 9 الجمعة 4 صفر 1356 الموافق 16 ـ 4 ـ 1937.

2 ـــ س1 ع 13 الجمعة 3 ربيع النبوي 1356 الموافق 14 ـ 5 ـ 1937.

(بإضافة فقرة : مطالب جهينة)

3 ـــ س 1 ع 14 الجمعة 10 ربيع النبوي 1356 الموافق 21 ـ5 ـ1937.

(بنفس الإضافة)

4 ـــ س 1ع 15 الجمعة 24 ربيع النبوي 1356 الموافق 4 ـ 6 ـ 1937.

5 ـــ س 1ع 20 الخميس 28 ربيع الثاني 1356 الموافق 8 ـ 7 ـ 1937.

ومعلوم أن "جهينة" كان يضرب به المثل في الخبر اليقين، إذ يقال:

1 ـــ عند جهينة الخبر اليقين.

2 ـــ عند جفينة الخبر اليقين.

3 ـــ عند حفينة الخبر اليقين.

حسب الأصمعي أن جفينة كان عنده علم رجل مقتول تسأل ابنته عنه، وفيه قيل :

تسائل عن أبيها كل ركب　　وعند جفينة الخبر اليقين

وحسب هشام بن الكلبي أنه كان في جهينة رجل يسمى الأخنس، خرج مع رجل من ابن كلاب يسمى حصين، فقتل الجهني الكلابي، وكانت أخت الكلابي صخرة بنت عمرو تبكيه في المواسم فقال الأخنس الجهني فيها:

كصخرة إذ تسائل في مراح وفي جرم وعلمهما ظنون

تسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين[4]

* * *

ولو شئنا أن نقف عند بعض النماذج من كتاباته، لذكرنا افتتاحية "كيف يفهمون التعاون" المنشورة س 1 ع 20.

وهي افتتاحية ينبغي أن توضع في إطار المرحلة التي كان الوطنيون فيها يسعون إلى تحقيق بعض المطالب الإصلاحية، وقد جاءت فيها هذه المقارنة بين التعاون كما يريده الاستعمار وأعوانه والتعاون كما يراه المغاربة المخلصون :

"... فالتعاون عندهم هو أن تدخل في وظيفة من الوظائف التي لا يتحمل ربها مسؤولية ولا يشعر معها بغير (المحسوبية)، أو أن تظل بعيدا عن الوظيف ولكنك تكثر التردد على الإدارات، لا لتقدم مطلبا أو تنتقد عملا ولكن لتبلغ خبرا أو تتوسط في أمر شخصي، على شرط أن لا تطلب ممن تخبرهم أدنى معرفة لما يروج بإدارتهم أو تمتلئ به أذهانهم، اللهم إلا إذا كانت الحاجة داعية لإذاعة الحديث أو نشر الأخبار. فالتعاون عند هؤلاء محمود ولكن لا على خدمة الشعب والدفاع عنه، وإنما على تحقيق نوايا الاستعمار

[4] انظر : كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص 201 – 202 (ت عبد المجيد قطامش – ط دار المامون للتراث – دمشق 1971)

وإنجاز مقاصده. أما التعاون الذي نريد فيتقدمه شرط لابد منه، هو أن تشعر الحكومة بالضرورة إلى الشعب، وبأنها لا مبرر لوجودها إلا خدمته والعمل على ما فيه مصلحته. ولذلك لابد من أن تكون غاية الحكومة ورجالها ليس هو استعباد الشعب والحيلولة بينه وبين وسائل التقدم المادي والأدبي وإبقاؤه في حضيض الانحطاط الكلي والتأخر المزري، بل في تربية الأمة وتعليم أبنائها وإنقاذهم من هذه الهوة التي تردوا فيها، حتى يصلوا إلى المترلة اللائقة بهم كأمة لها مكانتها وقيمتها في التاريخ. ومتى آمنت الحكومة بهذه الحقيقة وتوفر لديها هذا الشرط فهي بالضرورة تفهم معنى التعاون الذي يكون حينئذ بين الحاكم والمحكوم على ما فيه مصلحة البلاد وخير العباد..."

وفي ركن (حاشية) تناول أحداثا وقعت يعقب عليها وينتقدها، على غرار ما كتب في حاشية ع 20 س1، معلقا على محاكمة شابين فرنسيين "يتلقيان دروسهما الثانوية في إحدى المدارس الرباطية... ظهر لهما ذات ليلة أن يقوما بدور من أدوار السينما ألامريكية فقصدا صاحب سيارة عمومية (طاكسي) وطلبا منه أن يوصلهما إلى مكان قفر في أطراف المدينة. فلما انتهيا إليه أخرج كل واحد منهما مسدسا ووضعه على صدغ السائق ثم أمره بالتخلي عن السيارة وعن كل ما يكسبه من النقود. فلم يكن من المأجور المسكين إلا أن امتثل الأمر خشية على حياته فترل لهما من السيارة ورجع راجلا إلى المدينة وهو لا يصدق بالنجاة. أما الرفيقان الجريئان فإنهما امتطيا السيارة ووليا وجههما نحو الدار البيضاء، ولكن سرعان ما تغيرت فكرتهما فتركا السيارة إلى جانب الطريق وقفلا راجعين إلى مضجعيهما كأنهما كانا في نزهة بسيطة..."

وتتابع (الحاشية) قصة الشابين حين انعقدت لهما جلسة في المحكمة الابتدائية بمحضر الشهود والمحامين، ولكن "كان الحكم النهائي ببراءة المتهمين لأنهما ارتكبا فعلتهما (بدون تمييز)...".

ولا تقف (الحاشية) في تعليقها على وصف ما حدث، ولكنها تزيد في إبراز ما انتهى إليه من ظلم، فتقيم مقارنة متسائلة "عما ذا كان يصيب شابين مغربيين قذفا سيارة أروبي بحجارة وهو مار في سبيله"؟ والجواب أنه "إذا ارتكب شابان مغربيان هذه(الجريمة) فإن الأروبي يأخذهما إلى القائد ويقترح الحكم بنفسه خشية أن يتجاوز الوالي الحد في عقابهما. فإذا لم يرضه حكم القائد فإنه يرفع القضية إلى المحكمة الفرنسية. وهنالك يعتبر المغاربة كلهم مميزين سواء منهم الكهل أو الطفل".

وإلحاحا على مظاهر الظلم والتمييز، تزيد (الحاشية) :

"وأغرب من هذا أننا كثيرا ما نرى رجال الشرطة يسوقون أطفالا مغاربة بعد أن يضعوا الأغلال على أيديهم ويشبعوهم ضربا ورفسا. وكثيرا ما تكون تهمة أولئك البائسين أنهم سرقوا خبزة يدفعون بها الجوع أو قميصا يتقون به البرد. ولكن من يرق لحالهم؟ ومن يلتمس لهم الأعذار فيزعم أنهم لم يصلوا بعد لطور التمييز؟ فلا نجد إلا من يغلظ لهم القول ويكيل لهم الشتم ويكلفهم المشاق".

ومن أمثلة (ركن جهينة)، هذان الخبران اللذان أوردهما الركن ضمن مجموعة من الأخبار في ع 20 س1، قال في الأول :

"جهزت حكومة الحماية وفدا من قدماء التلاميذ ليذهب لمعرض باريز على نفقة المغرب، وأعطت لكل فرد كمامة يضعها على فمه طوال الطريق حتى لا تتسرب رطوبة البحر لصدره".

وقال في الثاني مكملا الأول :

"لا أصل لما شاع من أن عدلين سيرافقان هذه البعثة الأدبية لتسجيل ما يروج بين أفرادها من المذاكرات أثناء السفر، فقد تبين أن الكلام مع الكمامة صعب جدا لاسيما في العشرة الأيام الأولى. وفي ذلك ما يغني عن كل مراقبة".

وكان هذا الركن بطبيعته يقوم على تقديم بعض الأخبار القصيرة، ولكن عن طريق السخرية والاستهزاء والرمي إلى مغزى بعيد يدرك من سياق هذه الأخبار.

وكان أحيانا يجعل عنوان هذا الركن بهذه الصيغة:

آلو ! آلو !

هنا راديو جهينة (ع20 س1).

كما أنه في بعض الأحيان كان يختم ركن (عند جهينة) بكلمات (جمل) قصيرة ومعبرة، على نحو ما فعل في نهاية الركن (س1 ع14) إذ وضع عنوانا في نهاية الركن هو (مطالب جهينة) متابعا فيه مطالب سابقة كان قدمها مرقمة، وهذه جاءت أرقامها على هذا النحو :

"مطالب جهينة:

11 ـــ تعيين مقدم لضريح ليوطي.

12 ـــ إهداء المصابيح الكهربائية للضريح بدل الشمع.

13 ـــ إحاطة الجبل البربري بالأسلاك الشائكة كي لا يستعرب.

14 ــ هدم ملجإ العجزة الذي وقفت مدام بونصو على تأسيسه بالرباط حتى لا تعشش فيه البوم".

ونود أن نختم هذه النماذج الكتابية بالوقوف عند بعض ما يبرز اهتمام اليزيدي بالأدب والانتصار له.

ففي سنة 1935 كانت جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا قد قامت باستطلاع رأي عدد من رجال الفكر في الأقطار الثلاثة حول نوع الثقافة الذي يحتاجه الشعب للنهوض من كبوته.

وكانت الإجابات تختلف ما بين داع إلى العلم وداع إلى الأدب أو موفق بين المجالين.

وكان اليزيدي من الذين انتصروا للأدب، وقد نشرت (الأطلس) في العدد 15 من السنة الأولى ــ الجمعة 24 ربيع النبوي 1356 الموافق 4-6-1937 مقالا في ركن (الصحيفة الأدبية) بعنوان (الأدب سلم الحياة) لا يحمل أي توقيع، وأغلب الظن أنه من تحرير المدير محمد اليزيدي.

وكان الوالد رحمه الله قد أكد لي أن ما كتب في (الأطلس) دفاعا عن الثقافة الأدبية هو من تحرير اليزيدي. من ذلك مقالة (الأدب سلم الحياة). وقد جاء في هذه المقالة :

"... نرى أن لا رقي لأمتنا ولا تطور لمغربنا إلا بإحياء روح النهضة في جميع أفراده، وإظهار مكامن الحياة بين مختلف طبقاته، حتى تكون الكلمة كلمة الشعب والمطلب مطلب الشعب والصوت صوت الأمة.أما أن يبقى الأفراد جامدين والطبقة راكدة والحركة ضيقة، فلن ينهض المغرب أبدا ولن

يسمع صوته ولن تلبى رغته ولن يرفع بؤسه ولو بلغ إلى أقصى ما هو فيه من بلاقع الدمار والبوار والبؤس. فما سماع كلمة الأمة إلا وليد حياها، وما جواب مطالب الأمة إلا ترديد صدى صوت أعماق قلبها. ولكن ما مصدر هذه (الحياة) وما موقظ العزائم ومحيي الشعور وباعث الآمال؟ أهو الطب أم هو المحاماة أم هو شيء آخر غير الأدب؟ كلا إنه الأدب والأدب الحي وحده..."

وتعزيزا لرأيه يحاول أن يبرز أهمية الأدب ودوره فيقول:

"أليس الأدب هو ذلك الشعور الصادق الذي يفيض من قلوب أحرار أدباء الأمة، فيصور لها الحياة بكل مظاهرها ويبرزها لها بدافع إرادي قوي وأسلوب متين يحرك النفوس، ويحفزها إلى الإيمان بالمستقبل والتماس الخلاص مما هي فيه من ألوان الضيق وأشكال مظاهر الجمود التي أودت بها إلى السقوط في هوة الإفلاس والبؤس وكل مبيدات الكون؟

أو ليس الأدباء هم الذين يحيون بصراخهم الثاقب وأدبهم الحي وعواطفهم النيرة وحماستهم الملتهبة مكامن شعور الأمة الدفين وإحساسها الكامن، فتتنبه عزائمها وتتكون فيها الروح التي تهيئها للترقي ودفع النكبات...؟"

ويستمر في إبراز رأيه والدفاع عنه للإقناع به، فيثير قضية التطور والتقدم في مختلف المجالات الحيوية، ليربطها بالحاجة إلى الأدب كمنطلق وأساس لبعث الوعي : "أما أننا نأمل أن تتطور الصناعة المغربية وتزدهر الفلاحة المغربية ونسأل الحكومة أن توجد لنا مدارس صناعية، زراعية، تجارية،

ثم ننتظر الحكومة وننتظر، وأخيرا نجهل سر عدم تلبيتها لمطلبنا، والأمة في كل هذا لم تحي حياة روحية تجعلها تتبرم من وخزات الظلم وتنفلت من تحت أوقاره الثقيلة وتندفع إلى وسائل الخلاص بالدافع الإرادي !... أما أننا نأمل التطور والأمة لم تحي هذه الحياة، فهذا مما لا نومن به، وهذا ما تذهب احتجاجاتنا أدراج الرياح، كما ذهبت احتجاجات أهل منطقة (كاركاسون) التي قدمتها للويس السادس عشر قبيل الثورة الفرنسية..."

وهو حين يسوق هذا الكلام يبدو ملما بالحال المتأزمة التي يعيشها المغرب على مستوى الوضع الاقتصادي والاجتماعي، والتي لا حل لها إلا بعوامل من شأنها أن تحرك هذا الوضع ينهض بها متخصصون تقنيون، ولكنه يرى ضرورة تكوين رأي عام وإثارة إحساسه وبعث روحه:"... حقا إن الشعب المغربي يجتاز الآن طورا غريبا في الأزمة الاقتصادية ويقاسي أهوالا شديدة من آلام الجوع والبؤس، وحقا إن وسيلة إنقاذه من هذه الهوة هي عوامل زراعية وتجارية وصناعية يمثلها أفراد خصيصون ويسيرونها بين طبقات الأمة... ولكن أين هو الرأي العام الذي يجمع المغاربة ليكونوا في أنفسهم بأنفسهم هذه العوامل؟ وأين هي الفكرة الجامعة التي تنير الأذهان وتوقد الإحساس فتدفع الشعب إلى التخلص من عبء هذه الحياة الثقيلة؟ وأين توجد في المغرب روح مثل الروح التي نشرها كتاب القرن الثامن عشر بين مختلف طبقات الشعب الفرنسي؟ وأين هي الشعلة ذات القوة المحركة مثل الشعلة التي بعثتها صرخة مازيني رسول الحركة القومية في إيطاليا؟ وأين؟ وأين؟ ذلك ما لا زلنا لم نره في المغرب، وذلك ما لا يمكن للمغرب بغيره أن يعتني بصحته

وزراعته وتجارته... ولو بحت الأصوات وبلغت القلوب الحناجر. نعم ذلك ما نومن أن نراه إذا حيينا قبل كل شيء حياة قومية أساسها الأدب الحي الذي يضم المواهب ويحيي المشاعر ويملأ القلوب إرادة حازمة تدفع الألم وترفع الخطوب وترشد بنور الإيمان والحقيقة إلى السير إلى الأمام (س1 ع15).

* * *

وقبل أن ننهي هذا العرض، نود أن نشير إلى أن اليزيدي كان يحرر باللغتين العربية والفرنسية، وأن كتابته العربية ظهرت في جريدة "الأطلس" ثم في "العلم" فيما بعد. في حين أن كتابته الفرنسية كانت في "عمل الشعب" ومجلة مغرب (Maghreb) و"الاستقلال". كما نود أن نشير إلى أن اليزيدي - بالإضافة إلى هذه المقالات -كان يحرر نشرات الحزب والرسائل الصادرة عنه، وهو ما أكد لي الوالد وبعض أعضاء القيادة الحزبيين.

أما خصائص هذه الكتابات فيمكن إجمالها في الآتي :

1 ــ سلامة اللغة.

2 ــ متانة التعبير.

3 ــ التكرار (أنظر : الأدب سلم الحياة)

4 ــ التعليل والاحتجاج للإقناع.

5 ــ الميل إلى القص والسرد.

6 ــ بناء متكامل يبدأ بعرض الموضوع الذي سيتناول والتقديم لعناصره والاحتجاج له... للإقناع... ثم الختم بالنتيجة والخلاصة.

7 - التوسل بالقرآن الكريم والحديث النبوي والأمثال والأقوال السائرة ينطلق منها أو يختم بها في شبه تلخيص للفكرة، على حد قوله في افتتاحية (كيف يفهمون التعاون) حيث ختمها بقوله : "كلمة صريحة نختم بها المقال هي أننا نرغب في التعاون دائما، ولكن على مصلحة المغرب وعلى تحقيق مطالب المغرب وبطريقة المشاركة الفعالة والمشاورة المخلصة. فإذا كان هنالك من يفهم هذه الحقيقة ويريد العمل لها، فنحن معه متعاونون وبمساعدته مستمسكون، وإن تكن الأخرى فكل يعمل على شاكلته[5] ولابد للمغرب أن يفوز بإذن الله".

وقد يتوسل بقول حكيم، على هذا النحو الذي قدم به (حاشية) ع20 س1 حول محاكمة الشابين الفرنسيين، فقد بدأها بقوله :

"قديما قال حكيم فرنسي هذه الكلمة : (يعتبر القضاة في أحكامهم مترلتك الاجتماعية فيعلنون براءتك إذا كنت قويا ويسودون وجهك إذا كنت بائسا)...".

أو بمثل كافتتاحه (آلو آلو !... هنا راديو جهينة) بالمثل المشهور "عش انهار تسمع اخبار".

8 - يستند في مقالاته وحتى في حاشيته إلى أعلام أو أحداث من التاريخ الإسلامي أو التاريخ الأروبي والفرنسي منه خاصة :

1 - بالنسبة للتاريخ الفرنسي :

[5] إشارة للآية الكريمة : "قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا (الإسراء 408)

أ – يشير في مقالته عن (الأدب سلم الحياة) ع15 س1 إلى أثر كتاب القرن الثامن عشر الفرنسيين في بث الوعي في مختلف طبقات الشعب الفرنسي.

ب – ويشير في نفس المقالة إلى احتجاجات أهل منطقة كاركسون المقدمة إلى لويس السادس عشر قبيل الثورة الفرنسية.

ج – كما يشير في المقالة نفسها إلى مازيني وأثره في بعث الحركة القومية الإيطالية.

2 – بالنسبة للتاريخ الإسلامي :

نستأنس بحاشية ع15 س1 ففيها يحدث عما دار في أحد مجالس العيد من "خبر الأخوين اللذين حكم عليهما في الجديدة بالسجن والنفي لأنهما علقا مناشير على الجدران يوم 16 ماي يدعوان الناس للصيام وتلاوة القرآن بالمسجد الأعظم، فتأسف عليهما من تأسف ودعا لهما من دعا، ثم ساد سكوت خفيف لاشك أن الحاضرين استغلوه للتفكير في تلاعب المحاكم المغربية بحريات هذا الشعب البائس. وسرعان ما قطع ذلك السكوت صوت بعض الشبان قائلا : (وهل رآهما أحد يعلقان المناشير؟ وما لهما لم ينكرا فعلتهما ؟) فأجابه شاب آخر متهكما : (لأنهما لم يتلقيا دروسا من شجاعتك) ثم ضحكنا جميعا..."

ثم هو يسوق حكاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أعلن إسلامه وسعى إلى إظهاره وتحدى خصومه" ذلك أن سيدنا عمر رضي الله عنه لما أسلم سأل عن أي الرجال أنقل للأخبار في قريش؟ فدلوه على جميل بن

معمر. فلما وقف أمامه صاح فيه قائلا : (أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟) فحملق فيه جميل يريد أن يتحقق الخبر من ملامحه، فلما تبين له أن ابن الخطاب غير مازح قام مسرعا يجر رداءه وعمر من خلفه حتى انتهى إلى باب المسجد فصرخ بأعلى صوته : (يا معشر قريش ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ) فقال عمر من خلفه : (كذبت ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله). فلم يتم كلامه حتى ثار إليه الحاضرون وما برحوا يقاتلونه ويقاتلهم حتى قامت الشمس على رؤوسهم. وتعب سيدنا عمر فقعد وقام القوم على رأسه وهو يقول : (افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو كان عدد المسلمين يبلغ 300 رجل لقاتلناكم حتى تغلبونا أو نغلبكم). ولا يستطيع القارئ أن يتصور مبلغ جرأة الفاروق وإقدامه حتى يعرف أن عدد المسلمين كان يومئذ لا يبلغ الخمسين رجلا، وحتى يستحضر ما كانت هذه الشرذمة المباركة تقاسيه من كفار قريش..."

ويزيد في إبراز جرأة الصحابي الجليل:" ويحكى عنه أيضا رضي الله عنه أنه كان يلذ له أن يقص هذه الحادثة الأخرى حيث يقول : (في الليلة التي أسلمت فيها تذكرت أي أهل مكة أشد عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت. فوقع اختياري على أبي جهل، ولما أصبحت قصدته حتى ضربت عليه بابه فخرج إلي وقال: مرحبا وأهلا بابن أختي، ما جاء بك ؟ قلت : جئت لأخبرك أني آمنت بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به، فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به)..."

ويستبعد ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان عن هذا السلوك، فيؤكد أن "الذي يعلم نبذة يسيرة من حياة سيدنا عمر رضي الله عنه، ويذكر له بعض المواقف سواء أيام خلافته أو قبلها، لا يمكنه أن ينسب للطيش أو للرياء زيارته أبا جهل وجميل بن معمر. فقد كان رضي الله عنه مثال الرزانة والتثبت ولم يدفعه لإعلان إسلامه بتلك الطريقة إلا شجاعته وعدم مبالاته بما يصيبه في سبيل فكرة يراها صائبة عادلة".

ويستخلص المغزى من مثل هذا الموقف فيرى أنه" بمثل هذه الجرأة انتشر الإسلام وبنحوها تنتشر كل عقيدة. أما لو بقي المسلمون الأولون يتكتمون ويراوغون خوفا على أنفسهم من أعدائهم، لما كان أمرهم ما كان بل لما جاوز عددهم العشرة. فرحمهم الله إذ كانوا (لا ينكرون فعلهم) رغم الشدة والإرهاق".

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة

حضرات السيدات والسادة

هذه لمحات متميزة في شخصية المجاهد محمد اليزيدي رحمه الله، حاولت من خلالها أن أقدم جوانب نسيت أو تنوسيت بسبب الصفات التي شاعت في الرأي العام طاغية على حياته ومعرفة الناس بهذه الحياة.

فلعلها أن تكمل ملامح الصورة التي ارتسمت في الأذهان عنه، والتي ما أحوجنا ونحن نحيي هذه الذكرى الوطنية الخالدة، إلى أن تستحضرها لتكون خير نموذج وقدوة للأجيال الناهضة والمتطلعة.

أشكر لكم حسن إنصاتكم والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد الرشيد ملين
أصالة عريقة وفكر متجدد

عرض قدم في الندوة العلمية التي عقدها جميعة رباط الفتح، يوم الجمعة 22 شوال 1418 هـ موافق 20 فبراير 1998 م تكريما للأستاذ محمد الرشيد ملين، بمركز الندوات التربوية (داخلية للاعائشة سابقا). وقد وافاه الأجل المحتوم يوم الخميس 12 جمادى الأولى 1422هـ الموافق 2 غشت 2001م ودفن يوم الجمعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أخواتي إخواني أعضاء جمعية رباط الفتح

حضرات السيدات والسادة

يقول تعالى :

"والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء، كل امريء بما كسب رهين" (سورة الطور الآية 21).

ويقول الشاعر:

عهـــود من الآبا توارثها الأبنا بنوا مجدها لكن بنوهم لها أبنى

ويقول آخر:

وينشـــأ ناشيء الفتـــيان فينا على مـــا كـــان عـــوده أبوه

وبعد، يسعدني أن أشارك في هذه الندوة العلمية التي تنظمها جمعية رباط الفتح، في إطار ما اعتادت تنظيمه بمناسبة إحياء ذكرى الأحداث الوطنية الخالدة التي عاشتها مدينة الرباط في التاسع والعشرين من يناير عام أربعة وأربعين وتسعمائة وألف.

وأقترح أن أتناول موضوعا[1] لعله أن يكون مدخلا لعروض هذه الندوة، ويتعلق الأمر بالحديث عن الأستاذ محمد الرشيد ملين في السياق الأصيل الذي وجد فيه، أي في أسرته وما كان لأعلامها من أمجاد، والذي تسنى للمكرم أن ينميه بفكر متطور وتوجه متجدد.

لذا، فسأركز على جوانب ثلاثة:

1) أسرته ومن نبغ فيها من الأعلام .

2) والده وما كان له من مكانة.

3) محمد رشيد ملين وأبرز منجزاته.

وقبل ذلك أود أن أوضح مفهوم الأصالة التي هي محور هذا العرض. ذلكم أني أعنيها في المدلول الذي يربطها بمدى الصدق والمطابقة والاتصال بالذات الثابتة والكيان العريق، مع الإبداع والتجديد والقدرة عليهما، في ميل إلى التفرد والتميز بخصوصيات تحيل دائما إلى الأصول، مهما تكن هذه الإحالة واضحة أو خفية.

وحين يكون لهذه الخصوصيات إمكان الامتداد والتواصل بفاعلية وتأثير، يقع التأصيل الذي عن طريقه يتحقق استمرار الأصالة وتجديدها، مما تنشأ عنه تقاليد تتناقلها الأجيال وتتوارثها، في سياق يتيح الاستمرار للثقافة والحضارة، كما يتيح لهما الاغتناء عبر توالي الحقب والأزمان.

---

[1] قدم مختصرا بارتجال في الندوة.

ووجود هذه التقاليد لا يعني التقليد الذي هو رديف الاتباع التلقائي القائم على اللاوعي وعدم إعمال الفكر، والبعد عن التدليل العقلي بالحجة والبرهان.

بعد هذا التوضيح، أدخل إلى الموضوع في محاوره الثلاثة :

أولا : أسرة ملين بدءاً من أصل نسبها.

ويكاد يجمع المؤرخون من خلال تراجم الأعلام أن أصل أولاد ملين "أندلسي" إذ يحلى بهذه النسبة كل المترجم لهم ممن ينتسبون إليها، وإن ورد بخط عبد الله ملين – الآتي ذكره – أنه سوسي الأصل.ففي ترجمة أبي محمد عبد الله ملين، ولدا ذكر ولده أحمد، قال دينية[2] : "ووجدت بخط يده في آخر سفر من الذخيرة أنه سوسي الأصل لكن لما فاوضت بعض قرابته ممن له خبرة بذلك قال إنهم أندلسيون أصلاً إلا أن البعض منهم ممن أتى من الأندلس كان ذهب إلى سوس واستوطنه فصار عقبه بسبب ذلك ينتسب إليه والله أعلم". ووصف والدنا رحمه الله بيت ملين بحسن السمت والسيرة، وذلك حين ترجم لمحمد بن بناصر ملين إذ قال[3] : " كان حسن السمت والسيرة، وذلك ما عرف عليه هذا البيت، البيت الملييني الأندلسي الرباطي". كما وصفه بالنبل والسلوك الطيب، وذلك في سياق ترجمته للحسين ملين حيث قال[4] : "المترجم من رجال الأسرة الملينية الشهيرة بالنبل والسلوك الطيب". ووصفه كذلك بالمزايا النبيلة، لدا ترجمة مَحمد ملين إذ قال في أولها :

---

[2] مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط لمحمد بن علي دينية ص219 (ط الأولى _ مطابع الإتقان _ الرباط 1406 هـ موافق 1986 م).

[3] من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا ج 2 ص 413 (مطبعة الأمنية _ الرباط

[4] نفسه ص .442

"الحاج مَحمد بن عبد الله ملين من علماء الرباط الذين ظهرت نجابتهم فتصدروا للإقراء والتدريس في حسن سمت ولين جانب ودماثة أخلاق عهدت مزاياها في البيت المليني الماجد على العموم"[5].

وعن هذا البيت قال ابن اليمني الناصري وهو يقرظ كتاب إرشاد الخواص والعوام ويمدح مؤلفه مَحمد ملين [6] :

سليل بيت كريم — فيه الفخار مكين

سليل علم وحلم — يكسوه دين متين

لذا، لم يكن غريبا أن ينبغ في هذه الأسرة أعلام تفخر بهم مدينة الرباط، ومن بينهم:

1 – أبو محمد عبد السلام ملين

ذكر دينية[7] أنه فقيه، مؤدب صاحب كُتاب أمام جامع الدرب وأنه كان مقدم الطلبة حملة القرآن، وأنه توفي سنة 1321 هـ ودفن بالزاوية البنانية. وهو والد الفقيه العدل عمر الذي كان كذلك خطيبا، وتوفي سنة 1343 هـ (28 ربيع النبوي).

---

[5] من أعلام الفكر ج 2 ص 169 والتأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين (مكتبة المعارف – الرباط 1985) ص 179.

[6] في أول كتاب (إرشاد الخواص والعوام) الذي سيرد ذكره بعد.

[7] مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط لمحمد بن علي دينية ص 263 ـ 264 ـ 265 . (1986م) والحقيقة أن ترجمته في هذا الكتاب جاءت في فقرة ص 263، أما الصفحتان الأخريان فعن عرس المؤلف في عام وفاة صاحب الترجمة.

2 – أحمد بن عبد السلام ملين

قال عنه بوجندار[8] أنه فقيه، قاض، مدرس، وأنه درس على علماء من فاس أمثال ابن عبد الرحمن السجلماسي، وعلى علماء من الرباط كابن الغازي والمكي بوجندار. وذكر أنه حج سنة 1284 هـ، فأخذ عن بعض من لقيهم من علماء الحرمين، وأنه اشتغل بالتجارة بعض الوقت.

وكانت له عناية بتدريس المتون المتداولة. وأشار إلى أن من الذين أخذوا عنه: المكي البيطاوري، وأحمد جسوس، والجيلالي بن ابراهيم.

وقد تولى قضاء الرباط بعد وفاة أبي عبد الله ابن ابراهيم سنة 1297هـ، وهو مذكور عند أحمد بن المامون البلغيثي في كتابه "بيان الخسارة لمن حط من قدر التجارة".

توفي سنة 1305 هـ على خلاف في تحديدها، أو سنة 1306 هـ[9].

وعند والدنا [10]، أنه القاضي المتوفى 1305 أو 1306 والمدفون بالزاوية المعطوية.

---

[8] انظر: كتاب الاغتباط بتراجم أعلام الرباط لمحمد بو جندار، مخطوطة الخزانة العباسية رقم 1165 ج 1 ص 46 و"تعطير البساط بذكر تراجم قضاة الرباط"لمحمد بوجندار كذلك ص 39 (مطبوع بدون تاريخ) وهي الترجمة الأصلية ومنها نقل في الاغتباط بالحرف.

[9] •) 5 محرم 1305 حسب الجيلالي بن ابراهيم.

•) أواخر العام حسب البيطاوري.

•) 1306 حسب ولده.

[10] انظر ترجمته في "من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين ج 2 ص 25 _ 26.

3 – عبد الله بن أحمد ملين

ترجم له بوجندار[11] بأنه فقيه، مدرس وخطيب، وأنه كان له كُتاب بالقرب من جامع عطية، حيث درس بعض المتون.

وكان درس على بعض علماء الرباط، كالفقيه البدوي السرايري، إذ لازمه حتى وفاته[12]، وبعد ذلك خلفه في التدريس؛ كما خلفه في الخطابة بجامع مولاي سليمان.

كان مشهودا له بالورع والزهد والتقوى.

وهو والد أحمد ملين، المتوفى سنة 1332 هـ، والوزير مَحمد ملين، المتوفى سنة 1307 هـ.

كما ترجم له دينية[13] باعتباره ابن الفقيه الحاج أحمد ملين، ذاكرا أنه فقيه مشهود له بالورع، وأنه صاحب كُتاب لتأديب الصبيان، مقابل جامع عطية، وخطيب بمسجد مولاي سليمان.

أخذ عن علماء الرباط مثل البدوي السرايري .

توفي ثاني ذي القعدة 1307 هـ.

وهو والد الوزير مَحمد ملين وأخيه العدل أحمد الذي كان كاتبا بدار المخزن وعدلا ببعض المراسي (ت 2 صفر 1332 هـ).

---

(11) كتاب الاغتباط ج 2 ص 125

(12) توفي السرايري في 28 جمادى الأولى 1295 (انظر ترجمته في الاغتباط ج 2 ص 34).

(13) مجالس الانبساط ص 219 .

وعند الحديث عن أحمد هذا أشار دينية إلى أصل أسرة ملين، كما سبق التنبيه إلى ذلك.

وقد ترجم لهذا العلم كذلك والدنا،[14] فأشار إلى أنه مؤدب للصغار بالكُتاب المسامت لجامع عطية، وأكد أنه أخذ عن الفقيه البدوي السرايري، وأنه بعد وفاة هذا الأخير خلفه في التدريس بهذا الجامع وفي الخطبة بجامع مولاي سليمان، وأنه كان متصفا بالتحري والورع، وأنه هو والد أحمد ملين ومَحمد ملين، وأنه توفي عام 1307 هـ الموافق سنة 1887 م.

4 – محمد بن احمد بن محمد ملين

كتب عنه والدنا [15] ما يلي:

"محمد ملين من نبغاء الطلبة الذين عرفهم رباط الفتح، كانت له أفكار خاصة يدافع عنها بكل ما يملك من قوة. وكان أحد الكتبة بالإدارة الشريفة أيام الحماية الفرنسية مدة طويلة، بيد أن صرامته وغيرته وشدته أبعدته عن الوظيف مع كبر سنه. شيء قاسى من ورائه الشدة بؤسا وفقرا. ومع هذه الحالة التي عاشها أواخر حياته لم تؤثر في اتجاهه أو تغير من أفكاره وصرامته. درس العلم على شيوخ الرباط الذين كانت مساجده وأنديته الجمعية تعج جوانبها بعلومهم وفنونهم. وافاه الأجل المحتوم ثاني شوال عام 1379 هـ موافق 1957 م".

[14] انظر "من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين" ج 2 ص 316 .

[15] نفسه ج 2 ص 412 _ 413 .

5 – محمد بن محمد بن بناصر ملين

تحدث عنه والدنا باعتباره من الأدباء الذين درسوا على فقهاء الرباط، وخاصة على عبد السلام بن الخضر وعبد السلام بن عمر بن ابراهيم .

وقال عنه : [16] "وكان محمد هذا ذا سمت حسن وكريم خلق، وزاده خطه الجميل الذي كان يضرب به المثل في الجودة. توفي رحمه الله سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف، موافق عشرين وتسعمائة وألف م".

6 – محمد بن بناصر ملين

قال عنه والدنا [17] :"كان من الطلبة الرباطيين وأدبائهم. تولى العدالة بمرسى الجديدة والدار البيضاء، ثم الكتابة مع محمد التازي المعروف (بمخ) أمين الأمناء، ثم مع المرحوم الفاضل عبد السلام التازي أخيه. وسمي عدلا وأمينا بمرسى طنجة ثلاث مرات، كما أنه استخدم بإدارة الضرائب والجبايا بالرباط. كان حسن السمت والسيرة... توفي المترجم في متم جمادى الثانية عام اثنين وأربعين وثلاثمائة وألف هـ موافق سنة 1922 م".

7 – عمر بن عبد السلام ملين

أشار إليه دينية أثناء ترجمة أبيه عبد السلام [18] فقال عنه أنه فقيه، عدل، وخطيب. وأنه توفي 28 ربيع النبوي 1343 هـ.

---

[16] من أعلام الفكر المعاصر ج 2 ص 425 .

[17] نفسه ج 2 ص 413 .

[18] مجالس الانبساط ص 265.

8 – عبد الحفيظ بن محمد ملين

قال عنه والدنا[19] : "يعد من أدباء الرباط الذين لهم ولوع بالأدب وحضور أنديته، بل كان مترله كمنتدى لعدة أدباء. له خط جميل وخلق طيب وهندام مرموق. درس على عدة شيوخ بالرباط في مقدمتهم القاضي عبد السلام بن عمر بن ابراهيم الذي اختاره أبوه كمعلم له ولإخوته. تولى الكتابة بوزارة العدلية مدة طويلة. وأخيرا نصب خليفة لباشا الرباط.كان مترله كأخيه الحسين منتدى أدبيا وحاتميا. وافاه الأجل يوم الجمعة تاسع صفر عام ستة وسبعين وثلاثمائة وألف موافق رابع عشر شتنبر سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف ودفن بالزاوية القاسمية".

9 _ الحسين بن محمد ملين

ترجمه والدنا[20] فقال:"...يعد من طلبة الرباط وأدبائه الذين درسوا كإخوته على الفقيه عبد السلام بن ابراهيم. كما قرأ على غيره من علماء الرباط. تولى خطة العدالة مدة طويلة، ثم نائب عضو بالاستيناف الشرعي، ثم الكتابة بوزارة العدل. وكان مثال الطيبوبة والسمت الحسن والكرم. وافاه الأجل سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف موافق سنة 1946 م"

10 _ مصطفى بن أحمد ملين

قال عنه بوجندار[21] إنه أديب شاعر، وأنه يقول في المعرب والملحون. وذكر أنه أصيب بشلل في آخر عمره فكان لا يخرج إلا راكبا، وأن له شعرا

---

[19] من أعلام الفكر ج 2 ص 447.

[20] نفسه ج 2 ص 442.

[21] انظر الاغتباط ج 2 ص 83.

في التوسل ببعض الأولياء للاستشفاء. وساق له من شعره قوله من قصيدة في الشيخ أبي بكر بناني:

أنزل بنا يا من يسوق أتـــاني ... فلقد حللت مواضع السلوان

هذا مقام قد ترفع شانـــــه ... هذا مقام الجود والإحســـان

هذا مقام قد تسامى ذكــره ... هذا مقام السر والبرهـــــان

هذا مقام العارف القرم الذي ... عظمت لديه مواهب الرحمان

شيخ المشايخ ذي المآثر والعلى ... كهف الملاذ ومورد الظمآن

أعني أبا بكر فريد زمانـــه ... بـــدر المعالي سيدي البنانـــي

ومنه قصيدة في الشيخ فتح الله بناني بمناسبة ختمه لصحيح البخاري، منها:

مواهب فتح الله أهدت لنا البشرى ... هنيئا لمن قد جاء يسمع أو يقرا

هلم إلى ذا المجلس الأزهر الـــذي ... تلوح به أنـــوار خاتمـــة غـــرا

يعطرها نشر الحديث يضوع من ... صحيح البخاري المحرز الفضل والفخرا

إمام الرواة الماجدين عميدهـــــم ... وعمدهم كـــلا وقدوهم طـــــرا

فيا فوزه يا سعد من كان حاضرا ... بـــذا الختم في ذا المجلس المرتقـــى قدرا

أما والدنا فقد وصفه[22] بأنه من أدباء الرباط وشعرائه في المعرب والملحون مؤكدا أنه أصيب بمرض منعه من المشي فكان يركب، وأنه تعاطى

[22] انظر "من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين" ج 2 ص 387 _388 _ 389 .

بسبب ذلك شعر الاستشفاء. وبعد أن أورد له بعض شعره علق فقال[23]: "شاعرية يعلوها طابع التوسط في النفس، ومن بين سطورها وأشطارها يوحى إلينا أن الرجل لو ساعدته صحته الجسمية التي لها تأثيرها الفعال على التحليق في جو التفكير والإبداع لكانت أجود مما قرأناه في هذين القطعتين".

وقد ساق له الوالد قطعة أخرى في مدح أبي بكر بناني منها في التوسل بمقامه :

قصدتك يا بحر العلوم أبا بكر لكي يرتوي من عذب نهركم فكري

فناول عليلا بالمحبة فيكم كؤوس شراب الفهم يصحو من السكر

وأوضح له نورا يضيء أمامه يقوده في نهج المسرة للخير

وعجل بإذهاب الذي منه أشتكي وحل وثاقا إنني منه في أسر

وجد لي بما أرجو وآمل عاجلا عليه صلاة الله في السر والجهر

بجاه شفيع المذنبين محمد لأنه بحر زاخر ظاهر السر

ثم قال في الهامش معلقا على هذه الأبيات "ظاهر الشعر هذا لا يساعد عليه روح التشريع الصحيح. نعم يحمل مشربه الصوفي على التعلق بالحضرة"[24]. وقال كذلك : " و لم أعثر له على وفاة، كما أنني لم أتوصل إلى

[23] نفسه ص 388 ، يقصد القطعتين الواردتين عند بوجندار.

[24] نفسه ص 389

معرفة أشياخه بالضبط ولا المدرسة التي تخرج منها. ويبدو أنه درس على ممدوحيه"[25].

ثانيا : الوالد محمد بن عبد الله ملين

ترجمه والدنا[26] ضمن علماء الرباط، حيث درس على جماعة من علمائه كالرغاي والبيطاوري والجيلاني بن ابراهيم. وذكر أنه تصوف على يد الشيخ فتح الله بناني، وأنه تولى العدالة بنظارة أحباس الرباط، ثم ناظرا لنظارة كبرى أحباس الرباط خلفا لبنعيسى بنمسعود. وبعد وفاة المولى يوسف وتولية ابنه محمد الخامس تغمدهما الله بواسع رحمته عام 1346 هـ موافق 1927 م عين وزيرا للأحباس خلفا لأبي العباس الجاي. وقد استمر في الوزارة إلى أن أصيب بمرض مزمن فناب عنه ولده الرشيد الذي كان يومئذ مديرا للمطبعة الملكية.

وبعد أن تماثل للشفاء عاد إلى منصبه وولده إلى جانبه يعينه.

أُخذ عليه بعض التساهل في أمور الأحباس يوم كان وزيرا، على عكس ما كان معروفا عنه حين كان في النظارة.

وأيام كان ناظرا كان يخطب في الزاوية الناصرية.

كانت له عناية بالتأليف، ومن مؤلفاته :

---

[25] نفسه ص 388

[26] انظر ترجمته في : "من أعلام الفكر المعاصر " ج 2 ص 169 – 173، وكذلك "التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين" ص 179 – 180 – 181 – 182 – 183.

- *) حاشية على بهجة السيوطي على ألفية ابن مالك، سماها "المناهج السوية" وهي غير تامة. قرظها له شيخه البيطاوري، ومما جاء في هذا التقريظ: "وقد تضمنت من الفوائد المزرية بالفرائد ما يعترف بحسنه كل منصف ولا علينا في المنتقد المتعسف، مع تحرير عباراتها وتحقيق المناط وإشاراتها، وعزو النقول لأربابها وإتيان البيوت من أبوابها". وقد علق والدنا فقال : "والكتابة على هذا الشرح الدقيق السبك والتخييط الذي يضع مؤلفه السيوطي كلماته بحساب ومقدار، لتبرهن على اطلاع الرجل في العربية وطول باعه في قواعدها".

- *) كتاب "إرشاد الخواص والعوام لفعل الواجب وترك الحرام" اعتمادا على الكتاب والسنة (ط سنة 1345 هـ)

اشتغل كذلك بتدريس بعض المتون، في العربية والفقه، وكذا بعض كتب الحديث كالأربعين والشمائل.

وقد ذكر والدنا أنه اطلع على مؤلف له أوسع من "إرشاد الخواص والعوام" مرتب على أبواب الفقه.

كانت له عناية بالأدب تظهر في بعض المساجلات ، من ذلك أن أبا جندار خاطبه بقوله :

إنني لوصالكم ذو اشتياق فلتمنوا بنظرة وتـــلاق

فأجابه ملين :

عن جفون لبيك لبيك ألفا لاغتنام بكم لذيذ اغتباق

هذا، وفي عام 1330 هـ حج برفقة صديقه الطاهر الرجراجي، واغتنم ابو جندار سفرهما فوجه معهما قصيدة نبوية، وهو يومئذ مريض مقعد، بقصد النيابة عنه في إنشادها بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم مطلعها :

لم لا أهيم بحسنه والورد يزهو في الخدود

وقال أبو جندار وهو يودعهما :

وداعي صحيح واصطباري عليل وخدي بمرسل الدموع عليل

فيا حرقتي وقت الوداع وأنتي ويا حزن من قد بان عنه خليل

توفي [27] ليلة 7 جمادى الأولى 1372 هـ موافق 23 يناير 1953 م ودفن بمقبرة سيدي امحمد الضاوي، وكانت ولادته سنة 1295 هـ .

ونود أن نقف لحظة عند كتابه:

" إرشاد الخواص والعوام لفعل الواجب وترك الحرام"[28].

فقد انطلق فيه من قول الله تعالى "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :"ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم".

[27] قال والدنا في الهامش لدا ذكر وفاته "لم يحضر وفاته نجله الأستاذ محمد الرشيد إذ وجد منفيا في جملة المبعدين يوم 11 دجنبر سنة 1952 عقب وقعة (سنطرال) بالدار البيضاء ثامن الشهر المذكور" ص 173 .

[28] الطبعة الأولى 1345 هـ بالمطبعة الأهلية لصاحبها مصطفى بن عبد الله (الرباط) صفحاته 115 من القطع المتوسط .

لهذا جعله قسمين :

الأول

المنهيات، مثل :

أكل مال اليتيم - أكل الربى - أكل الميتة ولحم الختزير - خيانة الكيل والوزن - الرشوة - الزنا واللواط - كتمان الشهادة _ منع الزكاة - النميمة - الغيبة - عقوق الوالدين - الكذب على النبي ص - سب الصحابة - السحر - شهادة الزور ...الخ

الثاني:

المامورات، مثل :

الإيمان بالله وصفاته - أداء الأمانة - اتباع السنة - إكرام الجار- إماطة الأذى عن الطريق - بر الوالدين - تربية الأولاد - تعلم العلم وتعليمه - تلاوة القرآن - التواضع - الحياء - ...الخ

وقد قدمت تقاريظ لهذا الكتاب، وردت في أوله :

1) تقريظ كتبه المكي بن محمد بن علي.

2) تقريظ شعري لمحمد معمري الزواوي :

أجل نظرا ومتع فكر جد بتأليف له قدر ثميـــــن

يهذب كل نفس بانتداب لأخلاق بها النجبا تدين

ويدعو للرشاد بخير هـــدي سراط أنار حجته ليقين

فآيات الكتاب له أســـاس بأنوار النبوة يستبيـــن

وبالحسنى إلى الحسنى ينادي إلى التقوى وبالله استعينوا

وإن يلن القلوب فليس بدعاً ولا تعجب فجامعه ملين

3) تقريظ لمحمد المدني بن الحسني الذي أنشأ قصيدة منها هذه الأبيات :

إن خير الحديث ما صح نقلا وتبدى عن سيد المرسلينـــا

نخبة الكون أفضل الخلق طرا أكثر العالمين عطفا ولينـــا

إلى أن قال :

قد غدا للذي يدوم حماه شارح الصدر للقلوب ملينا

4) تقريظ لمحمد بن اليمني الناصري، ذيله بهذه الأبيات:

هذا الكتاب كتـــاب به الهـــدى يستبيـــــن

ففيه نور عـــمـــيـــم وفيه فتـــح مـــبيـــــن

يجلو عن القلب رانـــاً لم يـــرن عنه اللعين

لكي يضل فريقـــــا بديـــنه يستهيـــــــن

يقلد الجهل جـــهلا بـــما تراه يـــديـــن

والخير فيما جـــلاه لنـــا النبي الأميـــــن

وقام بعد هـــــداة سنـــا هـــداه تـــبيـــن

كمن بإرشاده للـــــــــورى القلـــوب تلـــيـــن

كم مغرم به معرى لاغـــرو فهو مليـــن

سليل بيت كريم فيه الفخار مكـــين

سليل علم وحلـــم يكسوه دين متـــين

يكفي دليلا على ذا هذا الكتاب الثمـــين

دليل خير لعمـــــري بـــالاقتنـــاء قميـــن

أبقاه ربي بخيـــــــر لـــه النبي ضميـــن

عليه أزكى ســـلام تصبو لـــه الياسمـــين

ثالثا:

الولد محمد الرشيد بن مَحمد ملين

جاء في الترجمة التي كتبت على ظهر غلاف الطبعة الثانية[29] من كتابه (عصر المنصور الموحدي) ما يلي :

" * محمد الرشيد بن مَحمد ملين. ولد بالرباط عام 1336 هـــ موافق 1918 م من أسرة أندلسية الأصل نبيهة معروفة المروءة، وكان أبوه وزيرا للأوقاف.

* دخل الكُتاب القرآني فحفظ القرآن في سن الثمانية وتلقى العلوم الإسلامية والعربية تحت نظر والده. ولما نال الشهادة الابتدائية التحق بكوليج

[29] بالمطبعة الملكية بالرباط 1416 _ 1996.

مولاي يوسف لمتابعة تعليمه الثانوي. ولما أحرز الباكالوريا واصل التعليم العالي إلى أن أحرز الإجازة في القانون. لفت نظر الملك المرحوم محمد الخامس بحسن سلوكه وسعة علمه، فعينه مديرا للمطبعة الملكية، وأنابه عن والده في وزارة الأوقاف، ثم عينه نائبا لمدير المعادن.

* شارك صغيرا في الحركة الوطنية، وأنشأ سنة 1938[30] حزب الأحرار المستقلين، ونفاه الفرنسيون في أواخر أيام حكمهم ولم يُفرج عنه إلا برجوع الملك محمد الخامس من منفاه.

* عين بعد تحرر المغرب من الحماية الأجنبية وزير دولة مكلفا بالوظيفة العمومية.

* خطيب بليغ وكاتب بارع، متمسك بالدين، غيور على قيم وطنه، لين العريكة، متواضع، طيب المعشر.

* له عدة مؤلفات بعضها مطبوع وبعضها مخطوط، من أشهرها (نضال ملك) في جزئين، و(عصر المنصور الموحدي). وله بحوث ومقالات منشورة في الصحف والمجلات."

وقد تحدث عنه والدنا[31] فقال : "أبو عبد الله الرشيد من نبغاء المثقفين المغاربة الذين كونهم اجتهادهم التلقائي ومثابرتهم على المطالعة والبحث. درس أولياته على الطريقة العتيقة. وبعد حقبة يسيرة انخرط في سلك المدارس الفرنسية معتكفا على دراسة اللغة الأجنبية وما كان يدرس بها من علوم وفنون

---

[30] لعل الذي أنشأ في هذا التاريخ هو النادي وليس الحزب.

[31] التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين ج 1 ص 154 ـ 155 ـ 156 .

رياضية واجتماعية. ونال آخر المطاف ليسانس في الحقوق. وتكون بعد تدريب قضى فيه بضع سنوات محاميا. ومن وظائفه الطيبة تعيينه مديرا للمطبعة الملكية...ثم ناب عن أبيه المغفور له مَحمد ملين في وزارة الأوقاف أثناء مرضه.

وكان المترجم الرشيد من الشخصيات الوطنية ورئيس "حزب الأحرار" وعذب ونفي لأفكاره وآرائه السياسية. وبعد مدة من الاستقلال تولى وزيرا للتربية الوطنية، غير أن صحته لم تساعده على القيام بمهامه الوزارية فأقيل بعد ما كانت له مهمة بالديوان الملكي[32] ..."

وبعد أن تحدث عن كتابيه:عصر المنصور، ونضال ملك قال:

"ومن نشاطه الفكري والسياسي تأسيسه جريدة أطلق عليها - النضال - كانت تقوم بأداء ما يهدف إليه كل صحافي حر يسعى لخدمة المجتمع والعمل على تطهيره من الأدناس والأهواء"[33]. ثم ختم الترجمة بقوله :

" فكان المترجم ملين من خدمة العلم والثقافة والاعتكاف على البحث والتحرير. ولا أدل على هذا من المقدمة القيمة التي قدم بها كتاب (الفتوحات الإلهية في حديث خير البرية) للمغفور له محمد بن عبد الله. فهي وحدها تلقي الأضواء على اطلاع السيد ملين وطول باعه في العلوم الإسلامية إزاء قلمه الرفيع وإنشائه البديع..."[34]

---

[32] نفسه ص 154.

[33] نفسه ص 155 وكتب في الهامش :"وإذ لم تجد الصحيفة تشجيعا وتنشيطا وقفت".

[34] نفسه ص 156 .

بعد هذا نود أن نقف مع المحتفى به لنتبين موقفه في حوادث 1944 التي نحيي اليوم ذكراها.

فبعد الحديث عن عريضة المطالبة بالاستقلال قال في كتابه نضال ملك : "وعززت بلوائح حملت آلاف التوقيعات. وكان لكاتب هذه السطور شرف تقديم لائحة إلى الجناب العالي ضمت توقيع مئات الشخصيات المغربية المهمة على رأسها الحافظ المحدث السيد المدني بن الحسني والفقيه العلامة السيد محمد الرندي وزير العدلية سابقا وفضيلة قاضي الرباط السيد أحمد البدراوي وكبار موظفي المخزن والعلماء والأعيان والطلبة. وعند تسليمها لسيدنا أيده الله بقاعة القصر الكبرى بمحضر الوفود التي تهاطلت من جميع مدن المغرب ذلك اليوم على القصر الملكي بالرباط أسعف الحظ كاتب هاته السطور فألقى كلمة ارتجالية حظيت برضا صاحب الجلالة. وكانت سببا في العطف الذي شرف به خديمه وفي الثقة التي منحه"[35].

وعند ذكر تجمع المتظاهرين بالمشور يوم 29 يناير، قال :

"ولقد حاول الأستاذ محمد اليزيدي وكاتب هذه السطور أن يخطبا في الجماهير حاضين لها على ملازمة الهدوء والترزن والمسالمة ولكن بدون جدوى"[36].

وتجدر الإشارة إلى أن محمداً الرشيد ملين عين عام 1950 مندوبا للصدر الأعظم في الإنتاج الصناعي والمعادن، وهو المنصب الذي خرج منه إلى المنفى

---

[35] نضال ملك ص 20 .

[36] نفسه ص 23 .

وفق ما سنرى بعد، كما تجدر الإشارة إلى أنه تولى مناصب وزارية في عهد الاستقلال :

إذ كان وزيرا للوظيفة العمومية في الحكومة الائتلافية الثانية التي تكونت في 28 أكتوبر 1956 واستمرت إلى 11 مايو 1958، وكان فيها يمثل حزب الأحرار المستقلين، إلى جانب أحمد رضا اجديرة الذي كان في الأنباء والسياحة والذي كان وحده يمثل الأحرار في الحكومة الأولى التي تكونت في 7 دسمبر 1955 واستمرت إلى 27 أكتوبر 1956، إذ كان وزير دولة ثم وزير الدفاع ابتداء من 26 أبريل 1956. وكانت وزارة التربية الوطنية هي آخر منصب تحمل مسؤوليته وإن في مدة قصيرة.

هذا، وقد أنتج الأستاذ ملين أعمالا تاريخية وأدبية قيمة، نود أن نلقي نظرة سريعة عليها. وهي كالآتي :

1 - كتاب :

عصر المنصور الموحدي

أو

الحياة السياسية والفكرية والدينية في المغرب

من سنة 580 إلى سنة 595

وقد صدر في طبعتين :

الأولى عام 1365 هـ موافق 1946م بأمر من المغفور له محمد الخامس بالمطبعة الملكية [37].

---

[37] صفحاته 260 من القطع الصغير .

والثانية عام 1416 هـ موافق 1996م بأمر من جلالة الملك الحسن الثاني بالمطبعة نفسها[38]. وكان إصدار المطبعة الملكية لهذا الكتاب ضمن أعمال لجنة التأليف الملكية التي كان محمد الخامس رحمه الله قد كونها لوضع كتب علمية ولا سيما في التاريخ والجغرافيا والسيرة النبوية للتدريس بها في جامعة القرويين وما إليها من المعاهد. وفي هذا الإطار طبع كذلك الجزء الخامس من "دروس التاريخ المغربي" للوالد رحمه الله وكان عضوا في اللجنة المذكورة.

وفي أولى صحائف الكتاب تطالع القاريء رسالة موجهة إلى المؤلف من السيد محمد معمري الزواوي مدير الديوان الخاص بالملك المغفور له محمد الخامس، جاء فيها : " فقد اطلع سيدنا المؤيد بالله على الكتاب الذي وجهته لجنابه العالي طالبا فيه صدور إذنه الشريف بنشر تأليفك الذي حررته في تاريخ عصر يعقوب المنصور الموحدي، وسره نصره الله ما شاهده فيه من حسن الصنيع وجميل الاتساق الناشئين عن حميد البحث ومجد التنقيب. وتشجيعا لك على مواصلة الجهود ولأمثالك في السعي النافع الذي يعود بحول الله على مملكته الشريفة بالنفع العميم والحث على السعي في السبيل القويم إلى المعارف التي تزين الشباب وتنور الألباب، فقد أذن أيده الله بنشر كتابك محبذا حسن ما وفقت إليه من العمل، معلقا على ما يزهر مستقبل المغرب خير أمل".

وفي الإهداء الذي كتبه المؤلف وهو يقدم عمله إلى الملك المنعم قال في أسلوب ينم عن مستوى قلمه:"طبقا لإرشاداتكم الثمينة الحاضة على التفرغ للعلم وعلى الاكتراع من منهله الصافي، وفي مكتب المطبعة المحمدية التي لي عظيم الشرف بإدارتها، دبجت فصول كتاب خصصته لحياة رجل مغربي

[38] صفحاته 230 من القطع المتوسط .

عظيم، هو يعقوب المنصور الموحدي، فكانت في بعض الأحيان تلتبس علي مظاهر شخصيته الفذة، ولا تمدني النصوص التاريخية بما أريد، فأرجع إليكم – يا مولاي – بصفتكم وارث ذلك المجد المؤثل، ومجدد ذلك العهد الماجد، فيستنير ذهني وتتفتح بصيرتي. فإذا بي قد طويت مراحل التقهقر، وإذا بفكري يجول في ثنايا ذلك العصر الذهبي، ويصور مآثر تلك الحقبة السعيدة تصوير مشاهد لمس الحقيقة لمسا".

2 _ كتاب :

نضال ملك

صاحب الجلالة سيدي محمد بن يوسف :

طبع بالمطبعة الملكية في الرباط بدون تاريخ (ويرجح من تاريخ صورة جلالة الملك المهداة إلى المؤلف أن الطبع كان في 1956).

وهو يتناول الفترة من 1947 إلى 1951، وكان عبارة عن أحاديث ألقاها في الإذاعة.

ويقع في 284 صحيفة من الحجم المتوسط وبحرف كبير.

وعلى الرغم من أن المؤلف لم يشر إلى أن هذا الكتاب إنما هو جزء أول، وإن كان ذلك واضحا من سياق تتبع الأحداث، فقد أصدر في المطبعة نفسها جزءاً ثانيا بدون تاريخ كذلك.[39]

[39] يبدو من تاريخ صورة جلالة الملك المنعم الحسن الثاني _ ولي العهد يومئذ _ أن التاريخ هو 1956. ولعله كان يشير رحمه الله في الكلمة المكتوبة أسفل الصورة إلى الجزء الأول .

وفي مقدمته قال مخاطبا القاريء : "استعرضت وإياك في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي أردته تسجيلا صادقا وصورة حية ناطقة بمآثر محمد الخامس، ومشاريعه، وجميع مظاهر نضاله، كما أردته شاهدا عدلا منصفا، لا يراعي إلا الحق ولا ينطق إلا بالصدق. استعرضت وإياك مراحل المعركة من أجل الاستقلال، من فجر النهضة إلى سنة 1951، التي كانت ميدانا للعراك الشديد بين ملكنا المفدى رمز الوطنية المتوثبة للحياة، والجنرال جوان رأس الاستعماريين وعضد الإقطاعيين. وقد أسفرت المعركة عن خيبة الجنرال الفرنسي، وفشله ورجوع كيده في نحره.

وها أنا اليوم وفاء بالعهد، أقدم لك الجزء الثاني وقد عنونته بالتضحية بالعرش في سبيل الاستقلال".

3 – كتاب :

فصل الشتاء في أسول

أو

الكفاح السياسي لحزب الأحرار

(القسم الأول)

وهو يقع في ثلاث وخمسين صحيفة من القطع الصغير بتتابع لم يقطعه عنوان واحد.وقد أصدره ضمن "سلسلة الأحرار السياسية" حسبما يظهر في

النسخة المصورة التي أمدني بها - مشكورا - صديقه الفقيه محمد الهرم ؛ وإن كان في مستهل الكتاب وهو يخاطب القارئ أو المستمع ما يثبت أنه قدمه بعد نيل المغرب استقلاله.

ونظرا لأهمية الكتاب في إبراز معاناة المؤلف وهو في المنفى[40] بأسول الواقع شمال معتقل اغبالو نكردوس[41] ؛ وكذا في إبراز أدبية أسلوبه، فإنا نسوق فقرة - نعتذر عن طولها - ولكنها مؤثرة ومعبرة، إذ يتحدث فيها عن وصول نبإ وفاة والده وهو في المنفى، من غير أن يسمح له بالعودة إلى الرباط لمواساة والدته. يقول : [42].

"لقد أتاني نعي والدي، في صباح يوم كانت سماؤه زرقاء، صافية الأديم، وكانت شمسه ناصعة براقة، جاءني نعيه بواسطة رسالة كتبها الدكتور كربوي معزيا ومحاولا المواساة. لقد قضى والدي المرحوم الساعات الأخيرة من حياته في راحة، فلم يتألم جسمه عند مفارقة الروح، ومن الجدير بالتخفيف عن شدة الصدمة كما يقول الطبيب أن والدي لم يعرف أبدا أني بالمنفى، بل تواطأ

---

(40) تحدث السيد محمد الرشيد ملين عن هذا المنفى في الجزء الثاني من "نضال ملك" من ص 113 إلى 132، ذاكرا أنه بدأ يوم 10 دجنبر 1952. وقد استمر فيه إلى حين عودة الملك المغفور له محمد الخامس من منفاه في نونبر 1955 .

(41) وهو موقع معروف بشدة البرد وكثرة الثلج. وقد أشار محمد المختار السوسي في كتابه "معتقل الصحراء" إلى أنه لقي الرشيد وهو في طريقه إلى المنفى كذلك وقال : "وقد استرعى نظري منه أنه لم يلبس إلا لباسا رقيقا، مع أن الوقت وقت صَبّارة البرد، فلعلهم أزعجوه عن اللباس، أو لم يكن مستعدا لهذا الحادث كما استعد له من يعرفون أنهم لا يفلتون منه "ص 25.

(42) صفحات 34 - 35 - 36 - 37 - 38.

الجميع على عدم اطلاعه على الحقيقة، فمات وهو يظن أن ابنه مريض، طريح الفراش، بالطبقة العليا من المترل، وكثيرا ما كان يطلب من عواده، أن يحملوه إلى بيت ولده ليمتع نظره برؤيته قبل مغادرة الحياة، فيضطرون إلى الاستنجاد بالطبيب لتأكيد منع الوالد من الصعود إلى ابنه، ومنع الابن من الترول إلى والده. لقد أسدل الستار على هذه المأساة، ولكن هناك مأساة العائلة بأجمعها. ومن الممكن أن يرق قلب الطغاة العتاة فيأذنوا لي بالرجوع إلى الرباط لمشاركة والدتي، وجميع أهلي آلامهم وأحزانهم. إن الطبيعة البشرية ليست منطوية على الشر، وكدت أتيقن أني سأغادر أسول عندما جاء أكراش يعلمني أن القبطان يريد مقابلتي. ومن الغريب - أني عند دخولي لأول مرة - على القبطان الجديد لم أشعر نحوه بأي حقد أو ضغينة، بالرغم من الظروف القاسية التي كنت أعيش فيها، والتي كان هو منذ أن وصل أسول المكلف بتطبيقها. فهل من حسن حظ الإنسان أم من سوء حظه أن لا يكون قادرا على الحقد؟ تذكرت في ذلك الحين مجادلة عنيفة جرت بيني وبين صديق عزيز علي سنة 1936 عندما كنا نضع أسس حركة وطنية أخوية جعلنا مبدأها الأول تطبيق الحديث النبوي الشريف "أحب لك ما أحبه لنفسي". وكان صديقي يدافع عن نظرية تطهير القلب من الحقد نحو أي أحد، وكنت أرى على العكس من ذلك أن الذي لا يقدر على الحقد ليس بقادر على الحب. فليس من العدل في شيء أن تكيل للمحسن وللمسيء بنفس المكيال. ولقد أدركت عند دخولي على القبطان نوندودو أني أصبحت غير قادر على الحقد، فهل ضاعت كذلك قدرتي على الحب؟ مهما يكن من أمر فقد قدم لي الحاكم تعازيه في احترام وتأثر، وأعلمني أنه يشاطرني ألمي وحزني - وكان قد بلغه الخبر منذ أيام على

طريق رئيسه بقصر السوق ولكن لم يجرؤ على تبليغه، خشية أثره العنيف علي- ولكن اليوم وقد وصلت رسالة الدكتور كاربوني يسره أن يحمل لي خبرا من شأنه أن يدخل الفرح والبهجة إلى نفسي، وتضاعفت سرعة ضربات قلبي بين جوانحي، وتعلق بصري بشفتي القبطان يحاول أن يقرأ عليهما ما سيفوه به بعد هنيهة. وسكت محدثي برهة صور لي فيها خيالي الشكل الذي سيقدم لي فيه التدبير الذي قررته سلطات الرباط إذ لم تعد المسألة مسألة جوهر، بل مسألة شكل فقط، فليس من سبيل إلى التردد في أن الخبر السار متعلق بالتدبير الذي اتخذ في شأني والذي سيسمح لي بالرجوع إلى مسقط رأسي - تغمدك الله برحمته يا والدي - لقد أبيت ألا تكون محسنا حتى بموتك، كما كنت محسنا كريما في حياتك، وأخذت أتصور سرور أهلي وأصدقائي بالرباط عندما يأتون لاستقبالي.... وانفتحت شفتا القبطان، ونزلت كل كلمة نطق بها كلطمة قصد بها إيقاظي من أحلامي، وتفتيح عيني حتى أرى بها الحقيقة التي أتعامى عنها - لقد تمنيت في ذلك الوقت أن أكون قادرا على الحقد، فأصب وابله على هذا الشخص الماثل أمامي، والذي كان رمز فرنسا واستعمارها وأوروبا ومدنيتها، والمسيحية وترهاتها، ولكن البغض لم يكن في طاقتي، فأنصت في هدوء إلى الضابط يقول : (لقد أذن لفرد من الرباط أن ياتي لزيارتك، بمناسبة موت والدك، وقد سمح له أن يحمل لك ثيابا وأطعمة وكتبا وجرائد، وستقابله هنا في مكتبي وبمحضري كما تنص التعليمات التي تلقيتها، وسيصل هذا الفرد إلى أسول حوالي الساعة الثانية بعد الزوال، وبإمكانه أن يبقى معك ساعة).

و لم أدرك إلا بعد مدة معاني عبارته هذه، فخرجت من المكتب وقد انطفأ بريق الأمل الذي انبثق في ذهني، وقد أخذت كلمات نور تتردد على ذاكرتي كضربات مطرقة كهربائية ثقيلة تجعل من المعدن الصلب صفحات رقيقة واهية: ثياب، أطعمة، كتب ، جرائد ...

ويل للإنسان من أخيه الإنسان، ثياب، أطعمة، كتب، جرائد...لو أن لي ما في الأرض جميعا، ومثله معه من ثياب وأطعمة وكتب وجرائد، ومعادن الأرض وجواهرها وخيراتها لأعطيته مقابل 24 ساعة أقضيها قرب والدتي غداة موت والدي، ولكنهم يمنون علي بثياب وأطعمة وكتب وجرائد. يجب أن أحقد، يجب أن أبغض، يجب أن أشفي غليلي من هؤلاء الأجلاف الذين شتتوا شملي... سياتي يوم آخذ فيه الثأر لنفسي...وسيكون يوما مشهودا... وروحت أغذي عاطفة الثورة في روحي ولكن بدون جدوى...وحاولت أن أغرس في قلبي جذور البغض، فلم أفلح، إني لست قادرا على البغض، فهل أنا قادر على الحب؟"

* * *

أما بعد هذا فمن الإنتاج الصادر عن المحتفى به ما كان يحرره في جريدة "النضال" التي كانت لسان حزب الأحرار المستقلين (أو بالأحرى النادي) الذي أسسه عام 1937، على إثر انشقاق كتلة العمل الوطنية، وهو الحزب الذي كان في فترة الحماية مجرد هيئة محدودة، والذي أصبح في بداية عهد الاستقلال تنظيما بقواعد تسعى إلى التوسع والتقوية على الرغم من المعارضة التي كان يلقاها من غيره. وقد نقل عن السيد ملين أنه هو الذي وقع البطاقات

الأولى للانخراط في هذه الكتلة، وأنه قبل ميلادها كان قد انضم إلى المجموعة الأولى للحركة الوطنية وترأس فيها أول خلية، وأن ذلك حدث بمجرد حصوله على الباكالوريا من الثانوية اليوسفية بالرباط عام 1935.

ولعلنا أن ننوه في الأخير بالمقدمة التي كتبها لكتاب "الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية" للسلطان محمد بن عبد الله، والتي امتدت على خمس عشرة صحيفة[43] وفيها أبرز عناية هذا السلطان بالحديث النبوي الشريف، وهي عناية بدأت بالاعتكاف مع بعض علماء عصره على صحيح البخاري ومسلم وموطا مالك، واكتملت بالوقوف على مسانِد أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل التي لم تكن يومئذ معروفة في المغرب.

وكان - انطلاقا من فكره الإصلاحي - "يريد من القضاة والمفتين أن ينبذوا كتب المتأخرين المتشعبة الملتوية، ويرجعوا إلى آراء السلف الصالح. فهو يقول في منشور:"إلى من اشتغل بأخذ الفقه من خليل وشروحه، وترك أخذ الفقه من كتب الأقدمين المرضيين كان كمن أهرق الماء واتبع السراب. فليضرب رجل القضاء صفحا عن تلك المختصرات التي حجبت بمعمياتها وتلويحاتها بساطة الدين ويسره وليعودوا بالناس إلى كتاب الله وسنة رسوله، ففيهما غناء عن كل ما سواهما، وليقتدوا في كل ما يرفع إليهم من الأقضية بما أمر به النبي صلوات الله عليه"[44].

[43] من ج إلى ف. (المطبعة المحمدية _ الرباط 1364 هـ _ 1945 م).

[44] المقدمة صفحة ط .

وقد أبرز السيد محمد الرشيد ملين في مقدمته لهذا الكتاب مدى "ازدهار الحركة العلمية في المغرب ونضجها وخروجها من طور التقليد والاتباع إلى طور التجديد والإبداع"وانتهى إلى الربط بين الهدف منه في وقته، وبين ما ينبغي لأمثاله من الشباب المفتون بثقافة العصر، في غير اهتمام بتراثه، فقال مؤكدا ما رمينا إليه حين اخترنا لهذا العرض عنوان "أصالة عريقة وفكر متجدد":"وبالجملة، فالفتوحات الإلهية مصنف ديني يحق للمغرب والمغاربة أن يفاخروا به، وأن ينكب علماؤهم على تدريسه وشرحه، وأن تزدان خزائنهم باقتنائه ونشره. ونحن الشباب – الذين قطعوا كل صلة بينهم وبين ماضيهم المجيد، ونظروا إلى كل آثار السلف نظرة إهمال، ورموا وراء ظهورهم تلك الكنوز التي خلفها لهم سلفه الصالح، والتي تعج بالقوة الروحية، وتفيض بالإيمان الثابت الذي لا تزعزعه صروف الدهر، ولا تقلبات الزمان، وتبين قواعد الحياة وتكشف عن أسرار النهوض والرقي – نحن الشباب جدير بنا أن نغير وجهة نظرنا، وأن نرجع إلى تلك المصادر التي استمد منها أجدادنا عزمهم القوي، ومآثرهم الخالدة، فنلقي بأنفسنا في ذلك الجو الطاهر الصافي، نلتمس منه العون على القيام بواجبنا، وعلى حمل العبء الثقيل الملقى على عاتقنا، والذي سنحاسب عليه حسابا"[45].

إخوتي أعضاء جمعية رباط الفتح

حضرات السيدات والسادة

[45] صفحة م – ن.

هذه معالم من شخصية السيد محمد الرشيد ملين الذي يعد في طليعة نبغاء المغرب وأعلامه البارزين. وإننا إذ نأسف لعدم تمكنه من الحضور بنفسه في هذه الندوة التكريمية، ندعو الله عز وجل أن يمتعه بالصحة والعافية حتى يتسنى له نشر ما لم يتح إصداره من أعمال لاشك أنها – لأهميتها – ستكمل ملامح شخصيته وما أدى للوطن من جليل الخدمات.

أعتذر عن الإطالة.

وأشكر لكم حسن إنصاتكم

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ملامح من جهاد
الحاج أحمد الشرقاوي

نص العرض المرتجل كما استخرجه – مشكورا – من شريط التسجيل، الدكتور مصطفى الجوهري. وقد ألقي في الندوة التي نظمتها جمعية رباط الفتح مساء الثلاثاء 23 ذي القعدة 1420 هـ = 29 فبراير 2000م، تخليدا لذكرى 29 يناير 1944م، والتي كرمت بها المرحوم الحاج أحمد الشرقاوي الذي وافته المنية يوم الأربعاء 14 رجب 1398 هـ : 21 يونيو 1978 م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

حضرات السيدات والسادة

يسعدني أن أشارك في هذه الدورة، التي أظنها الدورة السادسة التي تقيمها جمعية رباط الفتح في إطار الندوة السنوية التي أخذت على عاتقها تنظيمها كل سنة إحياء لذكرى رواد الوطنية، ولا سيما أولئك الذين ترعرعوا في هذه المدينة وكان لهم دور فاعل في هذه الحركة.

وسوف أقول كلماتٍ عن ملامح من جهاد المرحوم الحاج أحمد الشرقاوي، ولكن قبل ذلك أريد أن أقول كلمة قصيرة عن الهدف من هذا التكريم وأضرابه : لماذا نكرم هؤلاء أحياء وأمواتا ؟ إنهم في غير حاجة إلى تكريمنا، فالذين انتقلوا إلى رحمة الله لم يكونوا يطمعون في أن نحييهم أو نقيم لهم مناسبات أو احتفالات أو ذكريات، أو أن نتحدث عنهم. ومثلهم الذين أطال الله في عمرهم. فما قاموا به كان احتسابا لله عز وجل، ولكننا نحن حين نحيي هذه المناسبات، فلكي نعرف أنفسنا ولكي نعرف من نحن؟ والأسف شديد أننا لا نعرف من نحن ؟ من هم رجالنا ؟ من هم أبطال هذا البلد ؟ ومن هم المجاهدون الذين أتوا بهذا الاستقلال الذي نستمتع به اليوم، وربما نعبث به من غير أن نكون شاعرين بذلك ؟

إذن نحن نقيم هذه الذكريات لكي نعرف أولا، ثم لكي نُعرف الأجيال الصاعدة، هذه الأجيال التي لا تعرف شيئا عن تاريخها، ولا سيما التاريخ الحديث والمعاصر، وخاصة فيما يتعلق بتاريخ الحركة الوطنية، وما قام به المجاهدون الذين ساهموا في هذه الحركة. إذن من أجل هذا نحيي هذه الذكريات ونسعى من خلالها إلى أن نقوم بهذا التعريف.

ولو شئت أن ألخص حياة المكرم المرحوم الحاج أحمد الشرقاوي لقلت إن حياته كانت جهادا مستمرا، الجهاد المستمر، الجهاد بلغة العصر، الكفاح الوطني، هذا الكفاح الوطني وهذا الجهاد الذي قام به الأستاذ الحاج أحمد الشرقاوي إلى جانب نخبة من أقرانه وتلامذته ومن الذين عاصروه والذين عملوا معه. لو أردنا أن ننظر في هذا الجهاد لوجدنا أنه يمكن أن يوضع في خانات ثلاث : الخانة الأولى أو الجانب الأول هو العمل السياسي، الحاج أحمد الشرقاوي رحمه الله، منذ كان في بداية شبابه، أي منذ سنوات العشرين، وهو يعمل في إطار هذا الكفاح السياسي في الخلايا السرية، وقبل أن تتكون الهيآت، وقبل أن يتكون الحزب الوطني، وقبل أن يتكون حزب الإستقلال. كان عاملا مجاهداً مخلصا في هذه الخلايا الوطنية التي كانت تقصد في السنوات المبكرة، في سنوات العشرين والثلاثين، إلى بث الوعي في النفوس، وإلى تحريك الهمم، وإلى جعل الناس يشعرون بواقعهم، وأنهم يعيشون في جو استعماري، وبأنه يجب عليهم أن يحاربوا المستعمر لاسترداد حريتهم.

وهذا الجانب السياسي سوف يبرز في مراحل معينة، سوف يبرز في حادث الظهير البربري، إذ سيؤذى الحاج أحمد الشرقاوي لأنه قام بدور كبير وبدور فاعل في التوعية بهذا الحادث، حادث الظهير البربري، ولا سيما في

بعض الجهات في الرباط، وفي حي العكاري الذي كان له دور كبير في بعث النهضة فيه، وفي تحريك همم شبابه وسكانه.

ثم بعد ذلك نقفز إلى مرحلة أخرى، وهي مرحلة التوقيع على وثيقة المطالبة بالاستقلال ؛ وبعدها نقفز إلى مرحلة أخرى، وهي مرحلة الاعتقال الذي ساقه في سنوات الخمسين بصفة خاصة إلى معتقل كلميم، حيث كان جماعة من الوطنيين المجاهدين الذين اعتقلتهم فرنسا يومئذ ؛ وكانت دائما تعتقل أمثال هؤلاء.

إذن المرحلة السياسية تمثلت في جملة من المحطات كلها تتسم بالجهاد، وتتسم بالرغبة في الاتصال بالجماهير وبالشباب بصفة خاصة، وبث الوعي وتحريك الهمم وجعل الناس يشعرون بما عليهم وما ينبغي أن يقوموا به. هذا الملمح الأول : الجهاد السياسي، ولا أحتاج إلى أن أتوسع فيه فقد نستمع إلى كلام مفيد ومفصل من الإخوة الذين عاشروه وعاصروه وعاشوا معه هذه اللحظات، سواء في العمل الوطني في الخلية أو في الحزب، أو في المعتقل.

الجانب الثاني وهو جانب مهم، ومهم من حيث هو جهاد ومن حيث هو كفاح، ذلكم هو مجال التعليم. الحاج أحمد الشرقاوي رحمه الله، كان من الأوائل الذين أدركوا أنه لا مجال لأية نهضة ولا لأي نهوض بدون التعليم، وبدون القيام بعملية تطوعية في هذا المجال. عمل أولا في المدرسة المعطاوية، فالرحمانية، ثم عمل في المدرسة الغازية، هذه المدرسة التي أصبحت اليوم خرابا، وأصبحت مهملة لا يعرف الناس قيمة الدور الذي قامت به. في هذه المدارس كان يشارك إلى جانب نخبة من المعلمين يومئذ، ومن العلماء الذين كانوا يهدفون إلى تحريك الهمم وبث الوعي. وهذا المجال التعليمي سوف يأخذ بعده

الكبير وبعده المتميز على مستوى مدارس محمد الخامس، ابتداء من سنة سبع وأربعين حين تكونت تلكم اللجنة الملكية التي أسست برعاية من الملك المجاهد مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه، بطل التحرير. وكان من بينها مجموعة من أعيان الرباط ومن علمائه ومن مربيه، ونعتز بأن يكون إلى جانبنا الأستاذ الحاج عثمان جوريو الذي كان في طليعة العاملين في حقل التعليم والمواكبين لهذه الحركة منذ بدايتها، والذي كان مع هؤلاء الذين كانوا يشكلون لجنة تأسيس مدارس محمد الخامس. والذين درَسوا في هذه المدرسة أو الذين درَّسوا فيها يعرفون قيمة هذه المؤسسة وما كان لها من دور طليعي، ليس فقط على مستوى مدينة الرباط، ولكن على مستوى نشر اللغة العربية في المغرب، وعلى مستوى نشر الوعي العربي الإسلامي في هذه البلاد. إذن هذه هي المرحلة الثانية، مرحلة التعليم.

ثم تأتي المرحلة الثالثة، وهي مرحلة ما بعد الاستقلال. سوف تأخذ بعدا آخر عند الحاج أحمد الشرقاوي، باعتباره من الرواد ومن المناضلين ومن الوطنيين ومن الذين يُشرِّفون هذا البلد، ويعطون صورة مشرقة للمغرب. ولهذا لم يُستغرب، ولا يُستغرب أن يعين أول الاستقلال في سفارة المملكة المغربية بالمملكة العربية السعودية، إلى جانب رائد مجاهد وطني كبير من رجال الوطنية الأحرار، وهو الفقيه سيدي محمد غازي رحمه الله. هنا مرحلة أخرى، وهي مرحلة تؤطر دائما في نطاق الكفاح الوطني والجهاد من أجل إبراز المغرب ودور المغرب، ولكنها في هذه المرة، لتعطي صورة في الخارج عن هذا البلد.

لا أريد أن أتوسع وعندي كلام كثير أريد أن أقوله في هذه المجالات، وعندي كلام كثير حول صلتي الشخصية بالحاج أحمد الشرقاوي، لأنني عرفته

وأنا طفل صغير، سواء وهو يزور والدي، رحمة الله عليه وإياه، في البيت، أو وأنا أنقل رسالة إليه أو ما ذلك، مما جعلني أعرفه منذ طفولتي الأولى وتكون لي ذكريات كثيرة عنه.

بالإضافة إلى هذه الجهود الجبارة التي قام بها مع ثلة من المخلصين، والتي ما أحوجنا إلى أن نستحضرها، وأن نبعثها في نفوسنا، وأن نقدر هؤلاء الذين قاموا بها، وأن نسعى إلى أن نحافظ على النتائج التي أدركناها بفضل جهادهم حتى لا نعبث - كما قلت في البداية - بهذه النتائج، وباستقلال هذه الأمة وبمقوماتها، تلكم المقومات التي كافح هؤلاء المجاهدون من أجلها، جاهدوا من أجل اللغة العربية، وجاهدوا من أجل الدين، وجاهدوا من أجل التراث، وجاهدوا من أجل الثقافة ومن أجل الكيان، ومن أجل هوية هذه الأمة. رحمه الله ورحم جميع الذين كانوا معه، والذين جاهدوا والذين لا يمكن أن نجزيهم ولكن جزاؤهم عند الله عز وجل.

شكرا على حسن إنصاتكم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ذكرياتُ مَكْلوم
من وقع الفراق المحتوم

النص المستخرج من شريط التسجيل للكلمة التي ارتجلها عباس الجراري في الحفل التأبيني الذي أقيم للفقيد العزيز السيد مصطفى بن المبارك بمنزله بعد عصر السبت 19 شعبان 1418 هـــ الموافق 20 دسمبر 1997، وكان قد توفي ليلة السبت 14 رجب 1418 هـــ : 15 نونبر 1997 م ، بعد أن حضر جلسة النادي مساء الجمعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين وجميع المومنين المبتلين الصابرين.

إخوتي أفراد أسرة الفقيد العزيز، أصدقاءنا والأحباب؛

إنه لصعب على مثلي في هذه المناسبة التأبينية أن يتحدث عن سيدي مصطفى بن المبارك رحمه الله، وقد رزئت فيه كما رزئتم جميعا ورزئ الناس كافة. ومن ثَم فإني لا أحس بالقدرة على الكلام وعلى الإعراب عما أشعر به. ولعلي- لكي أَحُل بعضاً من عقدة اللسان - أن أتأمل قليلاً حقيقة الموت؛ فقد يسعفني ذلك في التعبير عما أريد أن أقوله وأفصح عنه، وإن في النطاق الضيق الذي يتيحه هذا الجمع الذي التأمنا فيه للترحم على الفقيد الكريم.

لقد خلق الله الموت وجعله حقاً وحتَّمه مصيراً لكل حي. إنه عز وجل يخاطب رسوله العظيم فيقول : "إنك ميت وإنهم ميتون". ويقول : "كل نفس ذائقة الموت". ويخبرنا تبارك وتعالى بأنه خلقنا ثم يتوفانا، ويخبرنا كذلك بأن الموت ليس عدماً، لأنه سبحانه لا يخلق العدم : "الذي خلق الموت والحياة"، بدليل أن الإنسان في موته يكون مطالبا بالحساب، وهو حساب يبدأ منذ اللحظة الأولى لوجوده في القبر. إذن خلق الله الموت وجعله محطة من المحطات، كما جعل الدنيا دار عبور، وجعل الموت كذلك طريقاً وسبيلاً للدار الآخرة، تلكم الدار التي هي الدار الحقيقية : "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون " أي الحياة حق.

دخل بعض الصوفية إلى مأتم فوجد الناس يبكون ميتهم، فأخذه العجب والاستغراب، وقال : "إني لأعجب من قوم يسيرون في قافلة؛ بعضهم وصل وبعضهم لم يصل بعد، والذين لم يصلوا يبكون الذي وصل". هذا كلام لا شك أن من شأنه أن يبعث في نفسنا – نظرياً – شيئا من الهدوء ونحن نواجه فاجعة الفراق. ولكن الواقع شيء آخر، لأن الله سبحانه وصف الموت – ووصفه وحده – بأنه مصيبة : "فأصابتكم مصيبة الموت"، "وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون". لقد سمى تعالى الموت مصيبة، لماذا سماه كذلك ؟ ونحن نعرف أننا سنلتقي في العالم الآخر ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأن المرء يوم القيامة مع من أحب، حين سأله بعض الصحابة أظهر حبه للرسول صلى الله عليه وسلم، قال صلوات الله وسلامه عليه : "المرء مع من أحب".

إذن نحن سنلقى من نحب في الدار الآخرة، ومع ذلك نحن نتألم ونشعر بالمصيبة، لماذا ؟ لأمر نحس به جميعا، وهو ألم الفراق وصعوبة الوداع، لا سيما حين يكون الذين عاشرناهم أحباباً وأصدقاء، وحين يكونون أساتذة وعلماء، وحين يكون الرزء فيهم جسيماً، وحين يظلون غير مُعوَّضين، وإن كانوا غير مُبالى بهم من قبل :

المرء مادام حياً يستهان به ويعظم الرزء فيه حين يفتقد

من أجل ذلك – أيها الإخوة – وانطلاقاً من هذه الرؤية للموت، ولما ينبغي أن نتحلى به، نحن نصبر على المصيبة، مقتنعين بأننا مبشرون بالنعيم إن نحن صبرنا واحتسبنا، لأن قوله الكريم : "وبشر الصابرين" يعني : وبشرهم بالنعيم، لأنهم تحملوا هذه المصيبة.

في سياق هذا التأمل البسيط لقضية الموت، نردد لتقوية الصبر في نفوسنا :

الموت لا يبقى أحد لا والداً ولا ولد
مات لبيد ولبد وبقي الفرد الصمد

ونردد كذلك :

الموت أفنى من مضى والموت يُفنى من بقي
والموت يجمع في الثرى بين المنعَّم والشقي
يا محسناً فيما مضى كن محسنا فيما بقي

وانطلاقاً من هذا التأمل لحقيقة الموت، ماذا يمكن أن أقول عن سيدي مصطفى، محل العم، والصديق الحميم والأخ العزيز، ومحل الشيخ والأستاذ ؟ ماذا أقول عنه ؟ فقد فارقنا بعد أن كان معنا في النادي لآخر لحظة من لحظات حياته. لقد استمعنا إلى كلام في غاية الأهمية، ألقى الضوء الكاشف عن شخصية الرجل ... هذا الرجل الذي كان لا يحب الأضواء، وكان يغمر نفسه حتى فيما أكرمه الله به. يكفيني أن أشير إلى بعض الخصال التي كان يتمتع بها، وأُولاها خصلة الوفاء، وقد "عز الوفاء فلا تلقاه في أحد". سيدي مصطفى بن المبارك كان مثال الوفاء. وقع الحديث عن علاقته بوالدي رحمة الله عليه. إنها علاقة استمرت نحوًا من سبعين عاماً، منذ مرحلة التلمذ عليه، إلى أن لقي ربه عام ثلاثة وثمانين وتسعمائة وألف. ولم يحدث طوال هذه العقود السبعة ما يخدش هذه العلاقة، بل كانت في كل يوم تزيد قوة وتنمو مكانة وتعمق رسوخاً. ونحن قد نشأنا في ظل هذه العلاقة، تحت نظر سيدي مصطفى وأمام عينيه وبتوجيهه، أنا وإخوتي. ولم نلاحظ في هذه العلاقة،

علاقة الوفاء والصادق والأخوة المتينة، شيئا إلا ما اكتسبناه من أهميتها وضرورة الاقتداء بها والتمسك. كان والدي رحمة الله عليه كثيراً ما يقول وهو يشير لابن المبارك : "رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك".

ويقول كذلك :

أخي والذي إنْ أَدْعُــهُ لِمُلمــة   يُجبْني وإنْ أَنهضْ إلى السيف ينهض

ذلكم هو سيدي مصطفى بالنسبة لوالدي، وكذا بالنسبة لأصدقائه وأحبائه. وأود هنا أن أذكر بعضهم من الذين كانت تربط بينهم هذه العلاقة في رحاب مجلس الوالد، والذين انتقلوا إلى رحمة الله : الفقيه النوازلي الحاج محمد بن عبد الله، العلامة الأديب الحاج محمد المختار السوسي، الأستاذ المحقق مصطفى الغربي، الشاعر الشيخ أبو بكر بناني ... وغيرهم من العلماء ومن مثقفي مدينة الرباط وغير مدينة الرباط.

إذن هذه خصلة أولى تميز بها الفقيد العزيز، وهي خصلة الوفاء الذي انعدم اليوم أو كاد. وخصلة أخرى هي العلم، وكما سمعتم : العلم والفهم. وأحب أن أشير إلى أن بعض العلماء من غير أبناء هذه المدينة وَصَف علم الرباطيين بوصف غير متداول لم أسمعه من قبل، وصفه بأنه علم مُصَفّى، أي العلم الصافي النقي الذي لا شائبة فيه ولا تهريج ولا حذلقة ولا ادِّعاء، العلم القائم على القواعد وعلى الأصول وعلى الأحكام الثابتة، وعلى ما ينبغي أن يكون عليه من قيم ومقومات. كان علمه رحمة الله عليه علماً مصفى، فقهاً ونوازل وحساباً ولغة.

وأود أن ألح على اللغة، وأشهد أني لم أر- وسبق لي أن قلت هذا - لم أر شخصاً من أبناء هذا الوطن يغار على اللغة العربية ويدافع عنها ويضيق بمن يلحن فيها أو يخرج عن قواعدها ويحيد بها عن الاستعمال الصحيح السليم، مثلما رأيت سيدي مصطفى بن المبارك. كان يكفي الشخص أن يلحن مرة واحدة لكي يحكم عليه بأنه ليس عالماً على النحو الذي ينبغي أن يكون عليه.

إلى هذا الحد كانت غيرته على اللغة كبيرة، مع العلم ومع الفهم الذي أكرمه الله به. والفهم ليس مُعطى لكل أحد، ولكنه مِنة من الله تعالى ومنحة منه عز وجل. وقد رأينا كيف أن سيدي مصطفى أكرم بهذه المنحة. وإذا كنا نأسف اليوم على فقيدنا العزيز، فلأن هذا العلم انتهى أو كاد، ولأنه قبض وانتزع. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله لا يقبض العلم ينـــتزعه انتزاعاً من صدور العلماء، ولكنه يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوساً – أو رؤساء – جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"، أو هكذا قال صلوات الله وسلامه عليه.

ذلكم هو سبب ألمنا على سيدي مصطفى بن المبارك، هذا العلم الذي ذهب حاملوه ورحل حماته، ونراهم واحداً واحداً يمضون وينصرفون تاركين الفراغ، ليس الفراغ العلمي من حيث العلم مادة، لأن العلم اليوم كثير، ولعل ما يوجد اليوم منه في المغرب وفي الأمة العربية الإسلامية لم يتقدم في التاريخ، إلا أنه علم جاف لاروح فيه، خالٍ من الورع ومجردٌ من الصفاء ؛ ومن ثم فهو قليل النفع. ولهذا حين يرحل عنا عالم كسيدي مصطفى، فإننا نتألم لأنه يترك فراغاً هائلاً وثلمة كبيرة.

وأضيف خصلة أخرى – وإن كنت لا أريد أن أطيل – أحسب أن ابن المبارك تميز بها وتفرد، أو على الأقل ظهرت عنده بقوة قلما ظهرت بها عند غيره، تلكم هي صفة الاعتزاز بالعلم وبأنفة النفس وكرامة الذات؛ لا يرضى أن يذل العالم، ولا أن يهان طالب العلم، ولا أن يُحط من قدر حامل كتاب الله العزيز. كان يشعر باعتزاز هذا العلم، وكان يبلور هذا الاعتزاز في سلوكه وفي كلامه وفي جلوسه وفي مشيته وفي لقائه مع الناس... في كل هذا وغيره يشعرك بأنه العالم المعتز بعلمه، لا يتدنى ولا يتملق ولا ينحني أو ما إلى ذلك من هذه الأنماط السلوكية التي ألفناها اليوم... ألفناها إذ ضاعت شخصيتنا، وضعف الحضور الفاعل للعلماء، وقل التأثير الذي ينبغي أن يكون لهم. سيدي مصطفى كان معتزاً بعلمه إذن، وكثيراً ما كنا نردد معه :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في البلاد لعظّما

أي لو أن أصحاب العلم وحامليه اعتزوا بأنفسهم وبعلمهم، ووضعوا هذا العلم في مكانة اللائق الحق، لما انحنوا، ولما هزموا، ولما ذلوا، ولما ضعف وجودهم، وقلت فاعليتهم، وانعدمت الثقة فيهم. وهذا البيت الذي كثيراً ما كنا نردده في مجالسنا مع الراحل العزيز، هو في الحقيقة نظم لحديث شريف يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أن العلماء أنصفوا العلم ووضعوه في مكانه لصانهم" أو هكذا قال صلوات الله وسلامه عليه، أي لكان هذا العلم مطية صون لهؤلاء العلماء وحفظ لهم وتعظيم.

هذه – أيها الإخوة والأصدقاء – جوانب مما كان يتحلى به سيدي مصطفى بن المبارك، واستمعنا وسنستمع إلى جوانب أخرى. وما أريد أن أختم به هو أن جماع هذه الخصال كان يتجسم في جلسته داخل النادي مع

بعض أقرانه وهم اليوم قلة، أرجو الله تبارك وتعالى أن يطيل عمرهم، كالأستاذ الشاعر سيدي الحاج عثمان جوريو والفقيه العالم السيد محمد حكم، وكذا مع غير أقرانه، أقصد مع الشباب من أساتذة الجامعة والباحثين، أولئك الذين يسألونه أو يناقشونه في تواضع وتقبل، وأرى الآن بعضا منهم حاضرين للمشاركة في هذا التأبين.

إذن الذكريات كثيرة عن سيدي مصطفى، والكلام متعدد الجوانب، وليس من السهل على مثلي أن يستحضر أو يتذكر كل شيء.

ومع القليل الذي أذكره، أرجو الله تبارك وتعالى أن يجزي الراحل الكريم، وأن يثيبه، وأن يجعله من الذين خدموا بلادهم بعلم ووطنية، وبصمت وصدق. ويكفي أنه عاش حياة حافلة بالمواقف البطولية الجهادية، ومضى، وكثير من الناس لا يعرفون عنه هذه المواقف. نحن الآن نذكر شيئا منها حتى نأخذ الدرس، وحتى نتعظ، وحتى نعرف هؤلاء الرجال الذين نودعهم. ونحن حين نثني على سيدي مصطفى ونشيد ببعض محامده، فإنا على يقين مما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : "من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة". نسأل الله عز وجل أن يتغمده بواسع رحمته، وأن يرزقنا وأسرته وأحبابه جميل الصبر والعزاء، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أ أنساه ؟
في تأبين الفقيه محمد حكم

(*) ألقيت في الحفل التأبيني الذي نظمه النادي الجراري وجمعية رباط الفتح في الذكرى الأربعينية لوفاة الفقيه المرحوم محمد حكم بقاعة ولاية الرباط وسلا مساء الجمعة 17 صفر 1422 هـ الموافق 11 مايو 2001 م. وكان قد توفي يوم الثلاثاء 8 محرم 1422 هـ الموافق 3 أبريل 2001م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

السيد رئيس جمعية رباط الفتح

سيادة والي صاحب الجلالة على الرباط وسلا

أسرة فقيدنا العزيز

حضرات السيدات والسادة.

في الحديث الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

وفي الصحيح كذلك أنه عليه الصلاة والسلام قال : "من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض" وكررها ثلاث مرات.

نعم، أيها الإخوة، من أجل أن نقدم هذه الشهادة، وأن نقدمها على الصعيد العام، نلتقي اليوم في هذا الحفل التكريمي الذي ينظم تأبينا لفقيدنا العزيز، الفقيه القاضي، والعلامة الأديب السيد محمد حكم، تغمده الله بواسع رحمته وجزيل مغفرته.

تنظم هذا الحفل جمعية رباط الفتح. ولا بدع، فالمرحوم بكرم الله من مؤسسي هذه الجمعية، ومن أعلام هذه المدينة. قضي حياته عالماً عاملاً، يملأ

المساجد بالدروس؛ ويفض التراعات في المحاكم، عدلاً مبرزاً وقاضياً نزيها، شغل وقته بالدرس والبحث، وبالعلم والوعظ. وإني لأشهد - وهو رفيقي في المجلس العلمي وعمدة هذا المجلس - أنه كان المواطن الملتزم، والحريص على أن يؤدي رسالته هو، على النحو الصحيح، وعلى أن يؤدي المجلس كذلك رسالته.

وكان في الرباط علماً بارزاً، ليس في العلم فحسب، ولكن في الوطنية كذلك. ولقد سجل له التاريخ أنه كان من بين الخطباء الذين أوذوا في سبيل الله أيام الحماية، حين أوقفت إدارة الاستعمار ثلة من الخطباء كان هو في طليعتهم. هذا بالإضافة إلى ما سمعنا عن موقفه وموقف أسرته في كتابة وثيقة المطالبة بالاستقلال واستنساخها.

ثم إن النادي الجراري يشارك كذلك في تنظيم هذا الحفل. ولا عجب فالنادي بالنسبة لي ولعلاقتي بالراحل المنعم كان البدء والختم. فقد بدأت معرفتي به رحمه الله، في رحاب النادي وأنا طفل صغير لم أتجاوز الرابعة أو الخامسة من عمري، وهو يتردد على مجلس والدي رحمة الله عليه، مع ثلة من العلماء ورجال الفكر والأدب والوطنية.

وختم العهد بيننا بالنادي كذلك، إذ لم نفتقده ولم يفتقده رفقاؤه فيه إلا حين أقعده المرض. وفي هذا النادي كنا نعيش لحظات استفادة واستمتاع، بها كنا نفتح صفحة جديدة، صفحة غير معهودة عند الفقيه المرحوم محمد حكم.

كنا نتطارح الشعر ونتبادل الأدبيات. وكان في ذلك يجد لذة ومتعة ونشاطاً ؛ وكانت لي - شخصياً - معه مساجلات ومطارحات.

وانطلاقا من هذه الذكريات الأدبية الطيبة، رأيت أن أرثيه بأبيات لعلي أن أرد بها ما كان مدحني به من قبل، في حفل تكريمي بمراكش، حين ألقى قصيدة ينوه فيها بشخصي المتواضع.

ولهذا، قلت هذه الأبيات، تخليداً لهذا الطابع الذي يسم النادي ووسم حضوره فيه :

أ أنساه ؟

تنوح رباط الفتح تبكي وتندب ... ويُرزأ أهلونا جميعا وننحب

ففي كل يوم نكبة إثر فاجع ... نوائب تترى موجعات وتسلب

مصائب تنتاب الكرام، وتنتقي ... أعزاء قومي، بالأماجد تذهب

مآس تحث العين دوماً على البكا ... وتطفو بما في النفس طوراً وترسُب

كوارثها كالصاعقات لوقعها ... فؤادي بها أضحى يئنُّ يُعذَّب

تحملتُها رغم الفداحة صابرا ... فليس لغير الصبر عندي مهرب

وقد كنت بالكتمان أبدو، فهذه ... تُقض ضلوعي والمدامع تَسكب

وهل لي أن أخفي أساي على الذي ... بقلبي له ذكرى تُمض وتُلهب ؟

قضى حَكَمٌ خل الصفاء ومن له ... خصال بمتن الفخر تُروى وتكتب

بقية أسلافٍ كرام مضوا لهم ... صحائف فضل في المناقب تحسب

لقد كان فرعا من أصول عَلا بها ... وسادت به فيما يُنال ويوهب

وكان بحق للمعالي منارة ... وموردَ عذبٍ للظِّمي يتصبب

أديب، وإن تسأل كلانا مساجل … بشعرٍ له أنغام سحر تُشبِّب

وإن شئت أن تصغي لأغنية لـه … فأحمد بيضاوي بها يتطرب

فقيه جليل لا يبارى وقد غدا … بشرح عويص للحواشي يقرب

فمن لخليل إذ يفك غموضه … إذا غيره يشقى بذاك ويَنصَب ؟

ومن للقضا بالشرع والعدل قائم … يوثق أحكاماً لـه أو يُعقِّب ؟

ومن للكراسي، للعلوم بسنة … على فتية يملي وإن هو متعب ؟

ومن للدروس الوعظيات هفت لها … حشود يغذي عقلها ويهذب ؟

ومن للرباط اليوم إذ ناح مجلس … لعلم به قد كان يفتي ويخطب ؟

ومن يحمل الرايات بعده داعياً … لدين بيسر ليس فيه تعصب ؟

ومن لي بناد إذ خلا منه منزلي ؟ … لمن يا ترى قولي: "أهلاً" أرحب ؟

ستبكيه هذي كلها فهي بعده … بيتم، فلا أمٌّ تحن ولا أب

وأبكيه خلا بالوفاء عهدته … وما كان دمعي في الحوادث ينضُب

أأسلو وخلي في الثرى لا يجيبني … وأرثيه في حزن وقد كان ينسب ؟

أأنساه بعد الذكر والود بيننا ؟ … بلى، هي عهود ليس تنسى وتَغرُب

كذا هيَ دنيانا ولسنا سوى بها … عبوراً إلى الأخرى نساق ونُسحب

فذاك المصير الحتم ليست ترده … علاجات طب أو كتابٌ يحجِّب

ومامات من أبقى وأنجب صفوةً … برورٌ وعلمٌ، والكواكب تُنسَب

سلام من المولى وسقيا لقبره … بفوح الشذا، نَدٌّ وعطر مطيب

القسم الثاني
تقدير وتكريم

الأستاذة نعيمة المدور البوعزاوي
الطبيبة الباحثة

ألقيت هذه الكلمة في الحفل الذي أقامته جمعية رباط الفتح مساء الخميس 11 رمضان 1408هـ 28 أبريل 1988م، تكريما للأستاذة الدكتورة نعيمة المدور البوعزاوي، بمناسبة حصولها على جائزة الطب لدول المغرب.

حضر هذا الحفل وزير الصحة يومئذ السيد الطيب ابن الشيخ، ووالي الرباط وسلا المرحوم عمر بنشمسي (المتوفي متم رمضان 1421هـ 16 دجنبر 2001م) .

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله و آله وصحبه

معالي وزير الصحة

سيادة والي الرباط وسلا

أخواتي إخواني

يسعدني باسم رئيس جمعية رباط الفتح الأستاذ الأخ عبد الفتاح فرج الذي حالت ظروف عمله القاهرة دون حضوره، وباسم جميع أعضاء المكتب أن أرحب بكم في هذا الحفل البهيج الذي نقيمه احتفاء بعضو من جمعيتنا، تسنى لها بنبوغها وجدها واجتهادها أن تحقق التفوق والتميز، وأن ترفع عاليا رأس مدينة الرباط والمغرب كله، مما يدعو إلى كثير من الفخر والاعتزاز.

إنها الأخت الفاضلة الأستاذة الدكتورة نعيمة المدور البوعزاوي التي أحرزت في عام سبعة وثمانين على جائزة الطب لدول المغرب، وهي جائزة يمنحها معهد العلوم الصحية بباريز. وقد نالتها عن أعمال علمية ثلاثة أنجزتها في مجال تخصصها في طب الأطفال الذي هي أستاذته في كلية الطب بالرباط ورئيسة قسمه بالمركز الطبي الجامعي في نفس المدينة.

وهذه الأعمال هي:

1- De la pédiatrie الذي صدر عام 1983

2- Au service de la santé de l'enfant المنشور سنة 1986.

3- conelation entre l'état nutritionnel de la mère et le poids de l'enfant à la naissance au Maroc وهو آخر أعمالها إذ صدر عام 1987. وعن هذا

البحث وحده حصلت على جائزة ثانية هي الجائزة المغربية للنشر من المركز الوطني للبحث العلمي.

ولعله ليس غريبا أن تقدم الأستاذة نعيمة هذه البحوث، وأن تنال بها جائزتين مشرفتين، فقد كانت مؤهلة لذلك، إذ أحرزت على دكتوراه الطب عام سبعين بامتياز كانت به في طليعة الفوج، واستحقت بذلك جائزة أطروحة الطب (Prix de thèse de médecine). ثم لم تلبث أن طوت مراحل التكوين الجامعي العالي بنيلها سنة تسع وسبعين شهادة التبريز في طب الأطفال.

وإذا كان مجال هذه الكلمة القصيرة لا يسمح بالتوسع في الحديث عن جميع أطوار الحياة العلمية والعملية التي طبعت مسيرة الأخت نعيمة، فلا أقل من أن أتحدث عن أمرين:

الأول: النشأة والتربية في بيئة أصيلة، فإنه لا يخفى ما هي معروفة به أسرة المدور من فضل وخيارة، وكذا ما هي مشهورة به في ميدان العلم والوطنية. وأود هنا أن أذكر المرحوم أحمد المدور الذي توفي عام 1922م، وكان من كبار أساتذة الرباط العارفين بالقراءات القرآنية على حد ما وصفه به والدنا رحمه الله في "أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين"؛ وأود أن أذكر كذلك عمي المحتفى بها الفقيه المدرر المرحوم ابراهيم المدور الذي يعرف الرباطيون كتابه بقرب جامع المولى سليمان، وأخاه الفقيه الجليل الأستاذ المحجوب المدور الذي تكونت على يديه أجيال من أبناء الرباط، سواء في كتابه القرآني بللا أم الكنابيش أو في مدرسته الحرة بالزاوية المعطوية، حفظه الله وأبقاه ممتعا بالصحة

والعافية[1]. وهل نستطيع أن ننسى في هذا الصدد الأستاذ المجاهد محمد المدور الذي كافح في ميدان التربية والتعليم بمدرسة محمد جسوس، كما ناضل في ميدان الوطنية وكان له دور بارز في أحداث يناير سنة أربع وأربعين[2]، وحكم عليه بالإعدام وإن نجا منه رحمه الله وطيب ثراه، فقد توفي عام أربعة وستين بعد أن عاش مرحلة حصول المغرب على استقلاله وساهم في بناء هذا الاستقلال.

الأمر الثاني الذي أريد الإشارة إليه هو تأثير هذه البيئة في تكوين الأستاذة نعيمة وفي تشكيل فكرها وطبعه بالأصالة والعمق والتأني والتثبت والحرص على طرح الآراء في نطاق العقيدة، بما لا يخدشها أو يتجاوزها على حد ما يفعل الكثير من الباحثين المتسرعين والمتهافتين. وقد ظهر لي ذلك في كتابها المتعلق بتدبير صحة الطفل (de la pédiatrie) حين تحدثت عن تغذية الطفل ودورها في الحماية من الأمراض الفتاكة التي تصيبه، وأهمية لبن الأم في هذه التغذية، لما له من مزايا وخصائص لا توجد في غيره من الحليب المصنع. ونظرا لأن هذا اللبن غير متوافر، فقد اقترحت إنشاء بنك للبن الأم، أي بنك يجمع فيه الحليب من أمهات كثيرات. وهذا التجميع سيفضي بطبيعة الحال إلى اشتراك الأطفال في لبن واحد قد يكونون به إخوة في الرضاع. ولكن الباحثة لم يأخذها العجب برأيها ورأت ضرورة عرضه على الفقهاء المتخصصين حتى

---

[1] انتقل إلى عفو الله يوم الإثنين 7 ذي القعدة 1422 هـ : 21 يناير 2002 م

[2] في نطاق إحياء ذكرى أحداث 29 يناير 1944، نظمت جمعية رباط الفتح يوم 29 يناير 2002 م ندوة عن المرحوم محمد المدور، شارك الكاتب فيها بعرض سينشره إن شاء الله في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

يقولوا كلمتهم فيه، وإن كان في ظنها أن الحليب إذا اختلط بغيره ضاعت أصوله.

صاحبـــي المعالي والسعادة

حضرات السادة

إن جمعية رباط الفتح، وهي تحتفي بالأستاذة نعيمة المدور البوعزاوي، إنما تكرم نبوغها المبكر وجهودها العلمية المتواصلة واستحقاقها على هذه الجهود، وتكرم في نفس الوقت أسرة المدور العريقة في مجال التعليم والوطنية، وتكرم في شخصها عبقرية أبناء هذه المدينة وأبناء المغرب كله، أولئك الأبناء البررة الذين برهنوا عن جدارتهم حين أتيح لهم من ظروف التعليم في مختلف مراحله، وكذا ظروف البحث العلمي ما لم يكن يخطر ببال على أحد، وما لم يتقدم مثله في تاريخ هذا البلد.

ومن ثم، فإننا بمناسبة هذا التكريم نحيي حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، فقد خطط للوطن مسيرات تنموية شتى، في طليعتها مسيرة العلم التي يرعاها ويرعى القائمين عليها بنفسه حفظه الله وأيده وأعز أمره.

فلتهنئي- أيتها الأخت العزيزة - بما أنجزته وبما نلته، وليحالفك دوام التوفيق واطراد السداد في جميع ما أنت مقبلة عليه، وليبارك لك وفيك، ولتهنأ بك أسرتك وأهلك، وكلنا أسرتك وأهلك؛ وشكرا لكم جميعا على مشاركتنا هذا الاحتفاء، والسلام عليكم ورحمة الله.

احتفاء ببعض أعضاء جمعية رباط الفتح

ألقيت هذه الكلمة في الحفل الذي أقامته جمعية رباط الفتح بفندق حياة ريجنسي، مساء الخميس 16 ربيع الثاني 1410 هـ الموافق 16 نونبر 1989، على شرف ثلة من أعضائها حظوا بالتنويه والتقدير، وهم : الشيخ محمد المكي الناصري (رحمه الله)، والسادة : محمد اجديرة، والطاهر العلوي، وعبد الحق المريني، وعبد اللطيف بربيش، وأحمد بيرو.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه

سعادة والي الرباط وسلا

سيادة المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

سيادة مؤرخ المملكة

السادة المحتفى بهم

أيها الإخوة الأعزاء

باسم رئيس جمعية رباط الفتح سيادة الأستاذ الأخ عبد الفتاح فرج الذي حالت ظروف التزاماته دون حضوره معنا، ونيابة عن أعضائها كافة، يسعدني أن أرحب بكم في هذا الحفل الرائق الذي نحن مبتهجون غاية الابتهاج بمشاركتكم إيانا فرحته واغتباطه.

وإنه لمما يزين هذا الحفل أن يقترن بذكرى عودة بطل التحرير مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه، مظفرا منتصرا إلى أرض الوطن، يحمل بشرى انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية.

إن جمعية رباط الفتح تقيم هذا الحفل الزاهر بحضوركم الكريم، احتفاء بثلة من أعضائها العاملين، حظوا في مدارج الرفعة والرقي بما أسعدهم وأسعد إخوانهم، ونالوا من الشرف والتقدير ماحث مدينة الرباط على الانتشاء مزهوة فخورة.

وكيف لا يغمرها هذا الشعور الفياض، وقد جاء ما نالوه وحظوا به برهان حبهم المخلص للمغرب، ودليل تفانيهم في خدمتة، ورمز سعيهم

الحثيث لإبراز دوره والإشعاع به في شتى الحقول ومختلف المجالات. وستتحدث عنهم هذه الكلمة تبعا لمناسبة تكريمهم دون أي اعتبار آخر، فالمناسبة شرط كما هو معروف.

لقد تم انتخاب اثنين من أعضاء الجمعية لتحمل مسؤوليات كبيرة على مستوى الوطن وخارج الحدود، تقديرا لمكانتهما وكفايتهما، ولما لكل منهما من تجربة وخبرة في ميدانه.

اختير الصديق الكبير فضيلة الأستاذ العلامة محمد المكي الناصري[1] أمينا عاما لرابطة علماء المغرب، وهو أجدر من يتحمل هذه الأمانة، لجهاده العلمي والوطني الذي يمتد فترة نصف قرن من الزمان، ناضل خلالها بلسانه وقلمه، دفاعا عن المغرب واستقلاله ووحدته، وصونا لمقدساته وقيمه الدينية والوطنية، مما أهله لحمل أعباء ومسؤوليات، نذكر منها أن جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله كان عينه عاملا بإقليم أكادير وسفيرا بليبيا ووزيرا للأوقاف. وهي مناصب توجت بتعيين مولانا أمير المومنين لسماحة الشيخ الجليل رئيسا للمجلس العلمي للرباط وسلا والأقاليم المجاورة وعضوا بأكاديمية المملكة.

واختير الأستاذ المقتدر السيد محمد اجديرة أمينا عاما للمركز التجاري الإسلامي التابع للمنظمة الإسلامية، كما انتخب في هذا الأسبوع رئيس (المرصد الاقتصادي والاجتماعي للمغرب العربي). وإنها لثقة غالية جاءت وليدة ما للأخ الكريم محمد اجديرة من كبير الأهلية وحسن الأحدوثة ؛ فهو عالم الاقتصاد وخبيره، والمحنك اللامع في مختلف آفاقه، وقد خاض منها الكثير فظهر وبرز، وتفوق وتألق ؛ وآخرها كان توليه إدارة المركز المغربي لإنعاش الصادرات.

---

[1] توفي رحمه الله يوم 28 ذي القعدة 1414هـ : 10 مايو 1994م.

والجمعية بهذا الحفل تحتفي باثنين كذلك من أعضائها كان لهما الشفوف والاعتبار في الميدان الجامعي الذي تعتز مدينة الرباط أن تتبوأ فيه مكانة متميزة بالجامعة التي أنشأها الملك المغفور له محمد الخامس رضوان الله عليه، منسوبة إلى اسمه الكريم.

فلقد تفضل جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله فعين عميدا لكلية الطب بهذه الجامعة أحد أعلامها المبرزين، الأستاذ الدكتور مولاي الطاهر العلوي، الطبيب الماهر والعالم المتخصص في أمراض الولادة والنساء. وإن زميل الجامعة الفاضل مولاي الطاهر، بما حققه في هذا الحقل العلمي الذي أهله تميزه فيه للفوز بالثقة المولوية الكريمة، ليحتل موقعا مرموقا زانه بشيم حميدة وخصال نبيلة أضفت على طبه مسحته الإنسانية التي كادت اليوم أن تضيع.

وفي هذا المجال الجامعي لمع اسم أحد خدام جلالة الملك المقربين وعضو اللجنة الإدارية للجمعية الأستاذ الباحث الدكتور عبد الحق المريني بالأطروحة القيمة التي أحرز بها درجة الدكتوراه، في موضوع ذي أهمية قصوى هو (شعر الجهاد في ا لأدب المغربي). وقد سعدت بالإشراف على هذا العمل العلمي الجاد الذي أغنى به الأخ العزيز سيدي عبد الحق مكتبة الدراسات المغربية، والذي أضافه إلى بحوثه التاريخية والأدبية السابقة ككتابه عن (الجيش المغربي) والكتابين القيمين اللذين أعدهما بدراسات وشهادات، ونشرهما عن الملك المنعم مولانا محمد الخامس قدس الله روحه وخليفتة ووارث سره مولانا أمير المومنين أطال الله عمره.

ثم إن الجمعية بهذا الحفل تحتفي باثنين أيضا من أعضائها فازا بتقدير كبير جلاه الوسام الذي حلى صدر كل منهما رعيا لأهليته وشاهدا على مكانته، يحمله بمزيد الزهو والفخار.

فلقد قلد جيد أحد خدام جلالة الملك المقربين كذلك، أمين سر أكاديمية المملكة المغربية الأستاذ العميد والطبيب السفير، عضو اللجنة الإدارية للجمعية الدكتور عبد اللطيف بربيش بوسام فرنسا للفنون والآداب من درجة قائد، تقديرا لجهوده العلمية الطبية ودوره الفعال في مد جسور التعاون الثقافي بين المغرب وفرنسا.

ولقد كان حفلا مشهودا ذلكم الذي أقامته وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية بقاعتها الكبرى في الكيدورصي، بحضور أعضاء أكاديمية المملكة، لتسليم هذا الوسام الكبير لأمين سرها الدائم. وتأكيدا لما يتمتع به الصديق الحميم سيدي عبد اللطيف وما يحظى به في ميدان تخصصه، فقد انتخب عضوا في الأكاديمية الوطنية الفرنسية للطب. وإنا لنأسف لعدم حضوره بيننا في هذا الحفل، فقد سافر إلى باريز لحضور اجتماع لجنة التحكيم التي تمنح جائزة المغرب العربي للطب.

وفي هذا الصدد التكريمي أنعم جلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله، بوسام العرش من درجة فارس على أحد أبناء مدينة الرباط البررة، خدم المغرب وتراثه الموسيقي الزاخر، هو الفنان البارع الأستاذ أحمد بيرو، الذي ما ذكر الطرب الغرناطي إلا وهو مقرون باسمه. فقد حافظ مع نخبة من الفنانين المولعين على هذا الطرب الذي تفردت باحتضانه وتداوله مدينة الرباط ووجدة. ومن ثم لم يكن بدعا أن تقيم عاصمة شرق المغرب وجمعيتها الناهضة "أنكاد" حفلا تكريميا لفنان الرباط، وأن يوشح صدره رئيسها معالي الأستاذ السيد أحمد عصمان بذلكم الوسام الرفيع الذي أنعم به عليه مولانا المنصور بالله.

سادتي، إخواني

إن جمعية رباط الفتح لتشعر بالفرحة الغامرة، وهي تقيم هذا الحفل الذي تسعى به إلى أن تظهر تلكم الفرحة وتعرب عنها، وأن تعبر من خلالها عن مدى افتخارها واعتزازها بما يحققه أعضاءها، وأن تؤكد في نفس الوقت كامل استعداد أبناء هذه المدينة المجاهدة العريقة وتجندهم الدائم – على سنن آبائهم وأجدادهم – لخدمة الوطن بتفان وإخلاص، وولاء دائم للعرش العلوي المجيد والجالس عليه جلالة الملك الحسن الثاني، أبقاه الله ذخرا للأمة ورمزا للوحدة وقائدا للمسيرة، وحفظه قرير العين بولي عهده المحبوب الأمير الأمجد سيدي محمد وصنوه السعيد المولى الرشيد وجميع أفراد أسرته المطهرة.

وشكرا لكم على حضوركم

والسلام عليكم ورحمة الله.

الأستاذ محمد بنشريفة
الدارس المحقق

ألقيت هذه الكلمة في الجلسة الختامية للندوة التي نظمتها كلية الآداب بجامعة محمد الأول في وجدة، أيام 15-16-17 جمادى الثانية 1416 هـ 9-10-11 نونبر 1995م والتي كان موضوعها: " تحقيق التراث المغربي الأندلسي: حصيلة وآفاق". وفيها تم تكريم الدكتور محمد بنشريفة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

سيادة القيدوم الموقر

زملائي وإخوتي الأساتذة

أبنائي الطلبة

حضرات السيدات والسادة

لا أخفي كم أسعدني الحظ حين أحسن الظن بي زملائي الكرام الأعزاء، قيدوم هذه الكلية الغراء، وأساتذها الأحباء، فطلبوا مني شهادة أدلي بها في حق من تجمعني وإياه صحبة مديدة أليفة، صديقي ورفيقي الدكتور محمد بنشريفة؛ وهم ينظمون - مشكورين- ندوة علمية تكريما لشخصه واحتفاء، واهتماما بأعماله واعتناء.

ومنذ انغماري في بحبوحة هذا الشعور، وما أفاض علي من بهج وحبور، حملتني أحاسيس رفقة سنوات عديدة ماضية، وهزتني خلجات ذكريات جميلة زاهية، كلها مبرات هنية ومسرات بهية؛ ثم ما لبثت أن استخفني الشوق بنـــزاع، وقاد الأنامل إلى اليراع، وإن نداء الحب يلبي وأمره يطاع. وإنه لكذلك، طالما أن الحب له موقع في الفكر مكين، وموئل في النفس حصين، وكيف والقلبان منا متآخيان، والروحان متناجيان.

لقيته وعرفته منذ عهود تمتد إلى أزيد من أربعة عقود، فلمست فضائله، وأكبرت خصاله؛ يهتز للمكارم والمحامد، ويسند عند العظائم والشدائد. أحسن معي الوصال فلم يغير له صحوا، ورعاه حريصا عليه فلم يكدر له صفوا؛ بل ما عانيت فيه على امتداده خطأ ولا ذنبا، ولا كلفني إليه لوما ولا عتبا.

هكذا عاشرته وكذلك صاحبته: خلا صادقا صفيا، وودا مخلصا وفيا. ولعمري إن هذا لمن أعلى ما يسد للمرء من حاجات، وأحلى ما يناله من لذات. وإذا كانت هذه وتلك تبدو متفاوتة المدى بدءا من الدقائق والثوان، إلى ما لا حد له في مسيرات الزمان، فإن لذة العمر هي مصاحبة الإخوان، وأكبر حاجة فيه هي مصافاة الخلان. وما هذا بالشيء العجاب، فقد ورد في حكمة الأقدمين أن احتياج الإنسان للأصحاب، كاحتياج الأرض للسحاب.

لو شئت أن أختصر ما يوصف به الأخ الكريم، والصديق الحميم، وأنى لي أن أختزل واسعا، وأجمع شاسعا، لقلت إن معشره لطيف وطبعه أليف، وإن جده طريف وهزله ظريف. تزينه دماثة سمحة رصينة،ورجاحة حليمة رزينة، في هدء وأناة وسكينة؛ مع دؤوب وثبات وغور بعيد، وحرص وروية ونظرسديد. يطيل الإصغاء حين ينصت، ولا يحدث إلا بالهمس ويخفت، وقد يستغني بالتلويح عن التصريح، وربما استبدل بالعبارة الإشارة، وعمد الى الرمز والإيماء، أو التلميح والإيحاء.

وبفضل هذه المزايا والأوصاف، وسعي دائم بها إلى الاتصاف، كان التعارف بيننا قائما باستمرار على تأكيد الائتلاف، ونفي ما هو معتاد عند الغير من اختلاف.

خاللته وخبرته، فلم أجد غير خصال حميدة وشيم كريمة، حببته إلى نفسي وقربته إلى قلبي، مع صدق في الود، وحفظ للعهد، وشرف دائم في القصد.

* * *

وأي قصد أنبل مما صرف إليه همه وغايته، وأولى له وسعه وعنايته؟ وكان للمعالي مفضلا، ولنيلها مؤهلا.

أخبرني عن طفولته من أثق به من المنصفين العارفين بأخباره، فذكر لي أن مخايل النجابة كانت بادية عليه منذ نعومة أظفاره، وهو يجتاز التعلم في بداية مراحله وأول أطواره، إذ أخذ نفسه بالتلقين والتهذيب، طامحا إلى ما كان يومئذ بعيد المنال غير قريب، فاتصل بشباب النهضة في أسفي الغراء، ومراكش الحمراء، وبدأ بالمطالعة التي مال إليها شغفاً، وأولع بقراءة الصحف والمجلات الشرقية —ولا سيما المصرية– يتتبعها لهفا.

درس في كلية ابن يوسف العامرة، واختلف إلى فصول الجامعة العصرية لأول إنشائها في الرباط الزاهرة، ثم في أختها الكبرى بجيزة القاهرة؛ وتخرج بعلماء من المغرب والمشرق أفذاذ أعلام، واحتك برجال من أقطارهما كبار عظام. وبفضل اجتهاده وعصاميته، عرف كيف يستفيد من تعليم نفسه مثلما استفاد من شيوخه وأساتذته، إذ كان الكتاب أليفه، والقلم حليفه؛ يلتهم ما يتسنى له من مطبوعات ومخطوطات، سواء منها ما كتبه الأسلاف، أو ما صدر عن الأخلاف، فاكتملت بذلك ثقافته، واستوت زكانته، وانتظم له الأمر واستقام، واطرد له في اتساق والتئام؛ وكان بذلك جديرا حقيقا، وحريا خليقا.

اقتحم مجال البحث العلمي فولع به وتعلق وشغف، ومرن به ودرب وكلف، في محافظة شديدة على الصالح من القديم، وتطلع متزايد إلى الحديث القويم، وفي تمييز دقيق بين ما هو أصيل ودخيل. انتبه في مجالات هذا البحث إلى موضوعات بكر لم يلتفت إليها، ففتش عنها وجال ونقب، ودأب عليها ودون وكتب، فأتقن فيها وأجاد، وفتح آفاقا بها وأفاد.

وسع من دائرة الكشف عن تراث الفردوس المفقود، فاهتم بما هو ضائع منه أو مهمل أكثر مما اهتم بما هو معروف وموجود، وعني بما هو مدرسي من تراث الآباء والجدود، وما هو صادر عن "العوام"، وما تناقلوا من "أمثال"، تداولوها على مر الأعوام. حقق "الزمان والمكان" لابن الزبير الثقفي، وأجزاء من "الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي، وأخرى من "ترتيب مدارك" عياض اليحصبي، وأخرج "نوازله" و"تعريف" ولده به، و"روضة الأديب" للشريشي "في التفضيل بين أبي الطيب وحبيب" و "طرفة الظريف" للملزوزي "في أهل الجزيرة وطريف".

وعرف بأسرتي "بني عشرة" و"بني زهر"، وترجم لأحمد بابا التمبكتي وللإبراهيمين "الكانمي" و"الساحلي"، و"عبد الله بن قاسم الثغري" و"أبي زيد عبد الرحمن سقين السفياني القصري"، و "أبي عبد الله الغرناطي المنتوري" . وأفرد بدراسة موسعة: أبا بكر "ابن مغاور الشاطبي"، و"أبا المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، وأظهر "تنبيهاته"؛ وسجل سيرة "ابن عبد ربه الحفيد" و"البسطي" محللا شعره ومحتوياته؛ ونشر "مظهر النور" لابن فركون، وكذا "ديوانه" و"ملعبة كفيف زرهون".

بهذه التحقيقات والتراجم والدراسات في آفاقها الأندلسية، وأبعادها المغربية، وأصدائها الإفريقية، اضطلع ونهض، محتفيا بموضوعاته ينتقيها ويتخيرها، يهيئ لها عدته، ويعد لها أهبته، فأغناها بما له من كفاية وغناء، وجدد حلاها بماله من نفاذ ومضاء.

وعلى كثرة ما أنتج وأصدر فإنه لم يشغل باله إلا بما يأخذ من نفسه، وأكاد أقول كذلك من حسه، إذ تعلقت همته – على نحو ما أشرنا إليه – بالنصوص الغميسة العريقة، والمباحث الشائكة الدقيقة، ينكب عليها ويفك غوامض قضاياها ومشكلاتها العميقة، يقربها إلى الفهوم والعقول، معتمدا باستمرار على الرجوع إلى المصادر الأولى والأصول.

أولى تراث الأندلس فائق عنايته ورائق رعايته، فبدا مأخوذا به متيما هائما، وبشتى جوانبه ملما عالما. أرهق فيه فكره، وأنهك عمره، ونظر فيه بعالي بصره، واستقلال فكره، وتأمله بثاقب رأيه وبصيرته، وأعطاه من قوة إرادته وحجته، فملك منه العنان، ونافس به المعتنين من الأقران، فاستحق بذلك تخليدا مميزا لاسمه بين علمائه الدارسين، والباحثين فيه المتخصصين.

ما أخرج ترجمة أو حقق مخطوطة إلا بذل فيها إمكانه واستطاعته، وأفرغ جهده وطاقته، وأعارها ما يرتضيه لأعماله كلها من تثقيف وتهذيب، ساعيا بها إلى إدراك الكمال وراغبا في بلوغ التمام، متثبتا فيما يصدر من أحكام، غير عجول متسرع، ولا غال أو مبتدع.

وقد اتخذ له في ذلك أدوات منهجية وفق طريقته، وسلك سبلا تستجيب لطبعه وسيرته، وتنسجم مع فكره ووتيرته.

وإنه بهذا لمن أوائل الذين اضطلعوا بالبحث العلمي، إلى جانب التدريس الجامعي، منذ البوادر الأولى للنهضة التي عرفها المغرب في عهد الاستقلال. وكان قبل هذا العهد وفي بدايته قد أمضى قسطا من شبابه في تكوين الأجيال، بالحقول الأولية للتربية والتعليم، مما عاد على الوطن بالنفع العظيم والخير العميم.

على هذا النحو من العمل الباهر، وذاك النمط من السلوك العاطر، عرفت "السي محمد" الزميل الصديق والأخ الشقيق: نفسا ترنو إلى المطامح العالية، وهمة تهفو إلى المطامع السامية .

وقد أسعده الجد وأسعفه الجد، فوفق إلى جليل الأعمال، وأدرك ما تحد دونه أعظم الآمال، مما جعل له صيتا يردد اللهج بذكره، والإيفاء بشكره.

ولم يكن غريبا – بهذا وغيره – أن يلقى العطف والحظوة لدى المقام الأسمى والجناب الأسنى، مولانا أمير المومنين دام له العز والتمكين، فيعينه قيدوما مؤسسا لهذه الكلية العامرة، فمحافظا لمكتبة القرويين الفاخرة، والخزانة العامة بالرباط الزاهرة، ثم يشرفه بعضوية الأكاديمية الملكية، مما سيتعزز بانتخابه في المجامع السورية والمصرية والأردنية، ويتوج بإحرازه جائزة الملك فيصل السعودية، وجائزة الاستحقاق المغربية.

وإنها لمناصب كبرى ومراتب عظمى. وهي – جميعها- ترتبط بالمجالات العلمية والميادين الثقافية، وتخدم بذلك ما اختط لنفسه من نهج لا يتعدى اختياره ولا يتجاوز مساره.

* * *

وبعد، فهل تراني – أيها الأخ الكريم – وفقت في هذه العجالة إلى إبراز رباطنا الحميم ؟ أم قصرت في إظهار قدرك الكريم؟

إن كنت وفقت، فيكفيني من هذا التوفيق أن يوافق ظن الزملاء بي في هذه الكلية والأصدقاء، إذ حفزوا إلى كلمة في يوم تكريمك، أشيد فيها بنافع علمك وناجع مجهودك، وأنوه بصادق مودتك وخالص محبتك. ولن أكون مع دلك إلا كالساعي إلى دليل لإثبات ما هو ظاهر باهر، ومحاولة تقديمه لمن له بصر ناظر.

وإن كنت قصرت، فذاك جهد المقل، ولعله أن يكون أجدى من عذر المخل. وقديما قال العرب في أمثالهم متأثرين بالذكر الحكيم: "إن لم يكن وابل فطل "، وزادوا: "وإن لم يكن خمر فخل" .

وحسبي في الحالين، بوح فاض به الوجدان، تعبيرا عما يكنه من حب وعرفان، فأسرع ليصدر عبر البنان، مستجيبا لما يجيش به الجنان. وأنى له أن يكشف حقيقة الوفاء، وقدر الثناء.

ولو أمكنني ما هو فوقه وأعلى ، وأرفع منه وأغلى، لنظمت لك عقدا من الجمان، لا كلمات على الأوراق، ولزففت إليك أثمن الدرر وأنفس الأعلاق، وما يناسب ما أنت عليه من باسق المزايا وسامق الأخلاق، ولقدمت لك منها باقة زاهرة زهية؛ ولكن الكريم يقبل ما يقدم الناس له على أقدارهم من هدية.

فلتتقبل مني هذا الذي بلغه حد غايتي،وانتهى إليه وسع طاقتي، إعرابا عما يختلج في قلبي من ود متين وتقدير مكين، مشفوعا بالدعاء إلى الله عز

وجل أن تستمر – على نحو ما ترجو ونرجو لك – منتظم السرور والأمور، موفور الحبور والسرور، في صحة كاملة وعافية شاملة، وأن يقر لك العين في يحيى وشيماء بالهداية والصلاح، ويقرن مسيرهما الدراسية بالتوفيق والنجاح.

وإذا كنت أفردتك في هذا الخطاب بما أنت له أهل من كريم المشاعر وعظيم المفاخر، فما إخالك – عبر هاتف القلب – إلا متلمسا ما هو مستبطن فيه، مما للأستاذة الفاضلة من مجال واسع ومكان رحب. فلتتبوأه في سعادة به وهناء،واعتزاز وبهاء، ولتدم لك وللفلذتين ألمع سناء وأسطع ضياء، أنسا لكم على مدى الأيام والسنوات، وذخرا زاخرا بالخيرات والحسنات.

وشكرا لحضراتكم أن شاركتموني هذه الشهادة بالإصغاء والإنصات، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى والبركات.

الفقيه محمد بربيش
الأستاذ المقرئ

ألقيت هذه الكلمة في الحفل الذي أقامه المجلس العلمي للرباط وسلا والأقاليم المجاورة، بعد عصر السبت فاتح صفر 1418 هـ ـ 7 يونيو 1997م بمقر المجلس، تكريما للفقيه محمد بربيش.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أصحاب الفضيلة العلماء والأساتذة

حضرات السيدات والسادة

يسعدني وجميع أعضاء المجلس العلمي للعدوتين أن نرحب بحضراتكم في هذا الحفل الكريم الذي نقيمه، بتنسيق مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ودار القرآن، تكريما لأحد علماء الرباط الأفاضل وفقهاء المغرب الأماثل، الأستاذ المقرئ السيد محمد بريش.

نكرم فيه العالم العامل الذي ينفع بما أفاء الله عليه من معرفة يشكر نعمتها بالإنفاق منها في تطوع وسخاء، مدرسا وخطيبا وواعظا.

ونكرم فيه حافظ كتاب الله المتقن لمختلف علومه والملقن لها، رسما وتجويدا وقراءة ورواية، والمكون لأجيال من القراء تعاقبت تأخذ الفن على يديه وما تزال.

ونكرم فيه الإنسان الخير المتواضع والمتحلي بكريم الخصال والمحامد ونبيل الشيم والفضائل، في هدوء طبع وعلو نفس ورفعة همة.

ولا بدع أن تجتمع هذه المحاسن وغيرها في شخص مكرمنا العزيز، وقد تفرقت في غيره بعد أن شح أمرها وغدت نادرة أو تكاد.

فهو من أرومة عربية أصيلة تنمي إلى معاقلة بني حسان الذين كان لهم منذ القرن السادس الهجري، فضل المساهمة في نشر الدين والثقافة العربية الإسلامية بالمغرب والأقطار الإفريقية جنوبه، بعد أن وفدوا إليه في هجرات معروفة من شبه الجزيرة العربية.

وكان لمقام أسرته في الرباط منذ أمد بعيد أثر حميد، لما عرف به أفرادها من فضل وصلاح، وما نهض به بعض أعلامها من دور علمي، يكفي للتمثيل له أن نذكر المرحوم محمد بن عبد الله بربيش الذي كان يلقب ب "سيبويه عصره وشيخ نحاة مصره"، وكانت وفاته عام ستة عشر وثلاثمائة وألف للهجرة الموافقة سنة ثمان وتسعين وثمانمائة وألف للميلاد. ولا يمكننا في هذا المجال أن نغفل الإشارة إلى والد مكرمنا، الفقيه المدرر شيخ الأساتيذ المقرئين المكي بن أحمد بربيش المتوفى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف الموافقة عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف. وعنه أخذ والدي بعض الروايات القرآنية، مجازا منه بما كان أجازه به شيخهما العلامة المقرئ محمد المهدي متجنوش المتوفى عام أربعة وأربعين وثلاثمائة وألف الموافق سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف، تغمدهم الله جميعا بواسع رحمته. وقد سعدت في طفولتي بأخذ قسط من القرآن الكريم على سيدي المكي أواخر سنوات الأربعين، في حصص خاصة كنت أوفق فيها بين الانتظام في مدرسة أبناء الأعيان والتردد على كتابه الذي كان ملاصقا لجامع عطية بالزنقة المنسوبة إلى هذا الجامع،

والذي كان ينقله في الصيف إلى الزاوية المباركية الواقعة بزنقة غنام. وكانت هذه الحصص تقتضي مني أن أحضر، إلى الكتاب ثلاث مرات في اليوم، في الصباح الباكر قبل الذهاب إلى المدرسة ثم إثر مغادرتها زوالا وعشية؛ في غير ملل من هذا اللقاء القرآني الذي كان يشدني إليه ما كان فيه من نفع وبركة، وما كان عليه الفقيه المنعم من هيبة ووقار. ولم يكن رحمه الله يقتصر على تلقيني كتاب الله وتحفيظي إياه، بل كان من بالغ الاهتمام بي وكثرة العناية، يلح علي في دخول المحراب في بعض ليالي رمضان لأداء صلاة التراويح على الرغم من صغر سني، على حد ما فعل حين حملني القيام بهذه المهمة بالزاوية الناصرية التي كان ولده المحتفى به اليوم ينوب عن إمامها الراتب إذ ذاك الأستاذ المربي السيد محمد ابن القاضي الفقيه أحمد بناني رحمهما الله. ولعل هذه هي أول مرة رأيت فيها عن قرب مكرمنا الفاضل، فأخذت بوداعته وتواضعه وحسن سمته وحسه التربوي المشجع.

في حضن هذه الأسرة البريبشية الأصيلة، ولد السيد محمد، في شهر جمادى الثانية عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف الموافق سنة سبع عشرة وتسعمائة وألف، وفق ما أطلعني على ذلك في ترجمة له بخطه.

وبرعاية والده وفي كُتابه حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ثم شرع في أخذ التجويد والقراآت السبع، متوسلا ببعض المتون المتعلقة بها والمتداولة، ك: "الدرر اللوامع في مقرا الإمام نافع" لعلي بن محمد التازي الرباطي المعروف بابن بري، والمنظومة الجزرية المعروفة ب "المقدمة" لأبي الخير محمد العمري الشهير بابن الجزري، ومنظومة "حرز الأماني" لأبي محمد الشاطبي الأندلسي المعروفة ب "الشاطبية".

وبموازاة ذلك، كان يختلف إلى الحلقات العلمية التي لم يكن يخلو منها مسجد في الرباط أو زاوية. وفيها أخذ على شيوخ ذكر لي منهم الفقهاء والعلماء المرحومين بكرم الله، السادة: أبا شعيب الدكالي، والمدني ابن الحسني، وبناصر بريطل، وقاسم الحاجي، ومحمد الرغاي، ومحمد الرندة، وعبد الله الجراري، وعبد الواحد بن عبد الله، ومحمد العبدي، والحاج محمد بن عبد الله، وعبد الرحمن الغريسي، وأحمد البدراوي، وعبد الرحمن الشفشاوني، وزين العابدين بن عبود، ومحمد غازي، ومحمد بن العربي العلوي، والمهدي العلوي، ومحمد العوينة، والصديق العوفير الذي أجازه كتابة بعد أن كان محمد الرندة والمدني ابن الحسني قد أجازاه إجازة شفوية.

وعلى غرار أقرانه من طلبة العلم الناهين يومئذ، كان لا بد وقد اكتمل له التكوين والتحصيل، أن يتحمل رسالته التعليمية، فبدأ – مشجعا من أساتيذه– بإلقاء دروس بمسجد مولاي سليمان. وكانت هذه الدروس تدخل في نطاق مشروع كان قد صدر به قرار من الصدر الأعظم مؤرخ في رابع عشر شوال عام واحد وستين وثلاثمائة وألف الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة وألف. وكان هذا المشروع يقضي بتعيين عدد من العلماء في أهم المدن المغربية، لإلقاء درسين كل يوم، بعد صلاة الصبح وبين العشاءين، يكون أحدهما خاصا بمبادئ النحو من خلال المقدمة الأجرومية، ويكون الثاني منصبا على الأسس الفقهية عبر متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

ولم يكن غريبا، وقد تألق اسم الفقيه بربيش من بين هؤلاء العلماء، أن يرشح لاجتياز مباراة الالتحاق بالتعليم في مدارس البنات، وهو التعليم الذي

كان الملك المجاهد مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه يتعهده بنفسه ويسهر عليه، مكلفا والدي رحمه الله بتفتيشه، إلى جانب تفتيشه للتعليم العربي الحر. وكانت تنظم لاختيار معلميه هذه المباراة التي كانت تجرى بالقصر الملكي العامر. فعين بعد الفوز فيها عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف أستاذا بالمدرسة الواقعة في زنقة سيدي العكاري. وقد استمر يؤدي هذه المهمة حتى عام تسعة وستين وتسعمائة وألف، حين عين متفقدا للكتاتيب القرآنية؛ وهو الوظيف الذي ظل يمارسه إلى أن أحيل إلى التقاعد سنة سبع وسبعين وتسعمائة وألف.

ولم يكن هذا العمل الرسمي ليحول دون نهوضه بمسؤوليات دينية وثقافية أخرى، كالمساهمة في دروس حلقات جامع السنة التي نظمتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ابتداء من سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وألف الموافقة عام واحد وسبعين وتسعمائة وألف؛ وكذا دروس دار القرآن ؛ إلى جانب الخطابة بالضريح المكي، مع الإمامة في مسجد للاسكينة. وهو المنصب الذي عينه فيه مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، بمناسبة تدشينه هذا المسجد بعد عصر الثلاثاء السادس والعشرين من رمضان عام تسعة وأربعمائة وألف الموافق ثاني مايو سنة تسع وثمانين وتسعمائة وألف. وقد أسعدني الحظ إذ كنت، إلى جانبه في هذا التعيين، بعد أن طوق جلالته عنقي بمهمة الخطابة في المسجد نفسه.

يضاف إلى هذه المسؤوليات، مشاركته في لجان التحكيم التي تشكلها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، للإشراف على المباريات الإقليمية والوطنية في حفظ كتاب الله وتجويده؛ ومشاركته كذلك في لجان جامعية

وغيرها لهذا الغرض، وحتى بعض اللجان المغاربية والدولية، على نحو حضوره في مسابقة مكة المكرمة عام ثلاثة وثلاثمائة وألف الموافق ثلاثة وثمانين وتسعمائة وألف، ومسابقة طرابلس ليبيا سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف الموافقة عام تسعين وتسعمائة وألف. ونظرا لقدرته العلمية في هذا المجال، فقد وكل إليه الإشراف على تسجيل "المسيرة القرآنية" التي تذاع في شهر رمضان المعظم، كما انتدب إلى جانب نخبة من العلماء المتخصصين لتصحيح رسم المصحف الحسني والمصحف السبعي اللذين طبعتهما وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بأمر من مولانا أمير المؤمنين دام له النصر والتمكين، وكذا المصحف الذي نشرته دار الكتاب في الدار البيضاء بإذن من هذه الوزارة.

ولا أريد وأنا أتحدث عن المهام التي يتحملها الأستاذ المحتفى به، أن أغفل حضوره النافع والفعال في مختلف برامج المجلس العلمي للعدوتين، بدءا من الوعظ والإرشاد إلى المساهمة في الدورات التدريبية للقيمين الدينيين ولجان اختبارهم. وهو حضور متسم بالمداومة والالتزام، والتفاني الصادق في العمل، وبالتطوع في غير قليل من الأحيان.

ويسعدني في هذا السياق، ونحن نحتفي به في هذا الحفل البهيج، أن أزف إليه - باسم السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية – بشرى تعيينه أستاذا لكرسي القراآت بجامع السنة، إكبارا لمكانته العالية في هذا المجال العلمي الدقيق، وتقديرا لما قدمه في مضمار خدمة كتاب الله العزيز.

هذه - أخواتي إخواني – ملامح من الجهود التي بذلها ويبذلها الفقيه الجليل الأستاذ السيد محمد بريش. وهي التي حثت المجلس العلمي على تكريمه

بتنسيق مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ودار القرآن بالرباط، اعترافا من الجميع بهذه الجهود التي يذخر له الحق سبحانه جزاءها الأوفى، بعد أن أحظاه بمرتبة مرموقة سامية نسوق لإبرازها الحديث النبوي الشريف الذي رواه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، والذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". وهي خيرية تأتي من كون من يقوم بهذه المهمة يكون متابعا أداء أمانة النبي الأعظم صلوات الله وسلامه عليه في تبليغ كلام الله عز وجل. ونورد كذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها : "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة " مصداقا لقوله تعالى في سورة عبس: " في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة "، أي بأيدي ملائكة يتولون القرآن في عالم الملكوت، ضمن بقية الكتب الإلهية التي حملها هؤلاء الملائكة إلى الرسل الذين بلغوها.

فطوبى لك أيها الزميل الكريم والصديق الحميم، بما أهلك الله ويسرك له، ولتتقبل خالص تهنئتي، مشفوعة بتهاني أعضاء المجلس العلمي والعاملين فيه، وجميع إخوانك ومحبيك، ومقرونة بالدعاء إلى العلي القدير أن يطيل عمرك لمتابعة الرسالة، وأن يحفظك في صحة كاملة وعافية شاملة، وأن يسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يمتعك بالسعادة والهناء في أهلك وأسرتك، وأن يبقيك معززا على الدوام بعز القرآن ومكرما بتكريمه.

وقبل أن أختم هذه الكلمة، أود ألا يفوتني باسم المجلس العلمي ودار القرآن، تقديم عبارات الثناء العاطر والشكر الوافر لوزير الأوقاف والشؤون

الإسلامية السيد عبد الكبير العلوي المدغري، لما قدمه بأريحيته المعهودة، شخصيا وعبر وزارته الموقرة ونظارة أوقاف الرباط، لإنجاح هذا الحفل، وللإعراب عن تقديره الخاص للمحتفى به. وإن هذه العبارات لتوجه كذلك إلى جميع الوجهاء المحترمين والإخوة المحبين الذين ساهموا بسخاء في هذا التكريم.

أشكر لكم جميعا تشريف الحفل بحضوركم،

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الأستاذ طه عبد الرحمن

المفكر الأديب

كلمة سجلت بالهاتف لبرنامج قدمته إذاعة المملكة المغربية، تكريما للأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن، يوم الثلاثاء 12 شوال 1418 هـ ـ 10 فبراير 1998 م

بسم الله الرحمن الرحيم

تربطني بالأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن صلات متينة متعددة : فهو صديق كريم وأخ حميم يطبع علاقتي معه وفاء صادق وود خالص. منذ عرفته على مدى نحو ربع قرن، لم يشب هذه العلاقة ما يعكر صفوها أو يعوق استمرارها، على كثرة ما يملأ الساحة من عوامل التلويث المادي والمعنوي، وما يسيطر على معظم الأجواء من عناصر الإفساد، وما يستبد بأغلب الناس من أنانيات وانشغال بالنفس وانغلاق على الذات.

وهو كذلك زميل لي في المهنة، نلتقي في رحاب جامعة محمد الخامس بالرباط وأبهاء كلية الآداب بهذه الجامعة. يتمتع من بين زملائه الأساتذة وفي وسط طلابه بجميل الذكر وحسن الأحدوثة، لما هو معروف به من جد واجتهاد في الدرس والتحصيل وتفان في التدريس وتكوين الأجيال وتأطير الباحثين الشبان، ولما هو معروف عنه كذلك من مثابرة على البحث العلمي، في سعي دائم لتطوير هذا البحث وإغنائه، وعمل دائب على مد قنوات التعارف والاستزادة بين شعب التخصص المختلفة، رغبة منه في تحقيق سعة العلم والمشاركة فيه على نحو ما كان يتميز به أفذاذ الفكر والثقافة على مدى عهود الازدهار.

فهو إذا كان منتميا لشعبة الفلسفة وأحد أبرز أساتذها، يدرس المنطق وفلسفة اللغة، فإنه ما تسنى له أن يبرز في هذا الضرب من العلم

وما يقتضي من منهج أو مناهج، لولا هذه المشاركة وتلك السعة، مع تمكن من أداة التعبير عربية كانت أم فرنسية.

وإنه ليكفي النظر إلى بعض مؤلفاته المنشورة لتتضح هذه الظاهرة، فقد كتب عن "اللغة والفلسفة"، وألف في موضوع "المنطق والنحو الصوري"، ونشر دراسة في "أصول الحوار وتجديد علم الكلام".

وفي سياق هذه الكتب التي يصدرها معالم واضحة في مسيرته العلمية، أخرج مؤلفا متميزا ولافتا لنظر من يتابعه في هذه المسيرة، ذلكم هو كتاب "العمل الديني وتجديد العقل". وقد أصدره منذ نحو عقد من السنين، متجاوبا مع الصحوة الدينية التي عرفها العالم الإسلامي. فعنده أنها صحوة تمس العقيدة وتحتاج إلى سند من الفكر وفق ما يقتضيه العقل ويتطلبه العلم. وهو في تركيزه على جانب التعقل يستدعي التجربة التي هي تجربته هو، أي تجربة سلوكية نفذ بها إلى أعماق الإيمان بعد أن تغلغل في المعرفة العقلية. وما إخاله بذلك إلا متطلعا إلى تأصيل فكر إسلامي عملي ومتجدد.

ورغبة في إشاعة هذا الفكر والتوعية به وبالأنماط العلمية المتكاملة معه، لا يكتفي الأستاذ طه عبد الرحمن بالتدريس والتأليف، ولكنه لا يفتأ يشارك في الندوات ويلقي محاضرات داخل المغرب وخارجه. وهو نشاط ثقافي دائب يشهد له الجميع فيه بالتمكن، وبالتميز في لغة الإلقاء، وهي لغة مشحونة ومكثفة، وتكاد أن تكون اصطلاحية.

ولعلي هنا وبصدد هذا النشاط الموازي والظهور المشرف فيه أن أشيد بالدرس القيم الذي كان شارك به في نطاق الدروس الحسنية التي

تلقى بحضرة مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله. كان ذلك منذ أزيد من عشر سنوات، وكان في موضوع ما زلت أذكر أنه تناول فيه قضايا الجدل في ارتباطها بالمناظرة والاعتقاد.

وأود وأنا أشير إلى هذه المسيرة العلمية الغنية التي يتميز بها الصديق العزيز، أن أذكر بأولى خطواته فيها، حين كان مأخوذا بالإبداع الأدبي والفني، ينشر فيه نصوصا شعرية ومقالات تنم عن حس مرهف ووجدان شفاف. وإن من يرجع إلى أعداد مجلة "آفاق" في سنوات الستين، وهي المجلة التي يصدرها اتحاد كتاب المغرب، أقول إن من يعود إلى أعدادها في تلك السنوات يقف على بعض قصائد الشاعر طه عبد الرحمن، وعلى مترجمات أدبية وشعرية، وكذا على رأيه يومئذ في الإبداع الفني وموقفه الفلسفي منه.

ولا أريد أن أنهي هذه الشهادة في حق الأستاذ الصديق من غير أن أشير إلى صفات يتحلى بها أصبحت اليوم نادرة. فهو يتقد حماسا للدين وغيرة على الثقافة الإسلامية واللغة العربية، إلى حد انفعالي يصل عنده إلى درجة الالتهاب والاكتواء، وإلى حد كبير من التجاوب المتألم مع ما يعانيه العرب والمسلمون في مواجهتهم للتحديات الداخلية والخارجية التي تعترض إرادتهم في النمو والتقدم.

فهنيئا للأخ العزيز طه عبد الرحمن هذا التكريم الذي تقيمه له مشكورة إذاعتنا الوطنية الموقرة، والذي هو به وبأمثاله حقيق وجدير.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الأستاذ عبد الحق المريني
الباحث المثابر

نص الكلمة التي ألقاها عباس الجراري في الجلسة الاحتفائية التي نظمتها جمعية فاس سايس والتي عقدتها تحت الخيمة الثالثة للشعر العربي بفاس، يومي الجمعة والسبت 1 و2 رجب 1412هـ - 29 و30 سبتمبر2000م، تكريما للأستاذين عبد الحق المريني ومحمد الحلوي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة

حضرات السيدات والسادة

أستسمحكم في أن أستأذن أخي عبد الحق، وهو إلى جانب الصديق الحلوي، نجم هذه الجلسة التكريمية وكوكبها الوضاء، أن يتيح لي مجال التعبير بكلمتين أستهل بهما ما سأدلي به من شهادة في حقه بتقدير ووفاء؛ بل أرى لزاما علي أن أبدأ بهما، لأعرب عما يخامرني من عميق المشاعر والأحاسيس، ليس فقط وأنا أحضر هذه المناسبة الغراء، ولكن في كل مرة يتسنى لي أن أستمتع بمثيلاتها، وأن أجتمع بإخوة أعزاء.

أما الأولى، فكلمة حب تبدي ما أكنه لهذه الحاضرة العريقة الغناء، مدينة فاس الفيحاء، بما يعطر جنباتها من أريج قدسي يضوع بالأمجاد التي راكمتها السنون، وما يفعمها من عبق العلوم والآداب والفنون، وما يتردد في أبهائها من صدى الأشداء واللحون، وما لفلذها الغر الميامين، والمسؤولين الساهرين على مصالحها أجمعين، من كريم الأرومة والمحتد الأصيل، وما لهم من نبيل المحامد والفضل الأثيل. كذلكم كانت على امتداد تاريخها الثري الحفيل، وكذلكم هي اليوم زهرة مدائن المغرب الجميل.

وأما الثانية، فكلمة تنويه وإكبار للجمعية، جمعية فاس سايس الفتية، وما تنهض به في مختلف الميادين الثقافية، من أنشطة رفيعة علمية وأدبية وفنية، مع شعور عميق بالاعتزاز والافتخار، يغمرني كلما أحظتني بدعوة للمشاركة فيما تنظمه باستمرار، من لقاآت لا أخفي كبير سعادتي بعقدها حتى حين أغيب عنها باضطرار. ولعلي أن أخص بالثناء زميلي وصديقي العزيز الأستاذ محمد القباج رئيس الجمعية، والأخت الفاضلة الأستاذة لويزا بولبرس المشرفة على خيمة الشعر والأنشطة الأدبية.

وبعد، فما أروع حفلا يقيمه في هذه الرحاب الندية، والأبهاء السنية، إخوان ود وصفاء، وخلان صدق ووفاء، تكريما للأدب الحق الرصين، عبر الاحتفاء بمبدعيه الشعراء والدارسين. وإن هذه الروعة لتزيد رونقا وألقا باختيار أستاذين جليلين، ليكونا ضيفي هذا اللقاء المكرمين.

وإنه ليعز علي أن تفوتني فرصة الحديث عن صديقي العزيز، شاعر المغرب الكبير، السيد محمد الحلوي، إذ اقتضى البرنامج أن يحظى بذلك بعض رفاقه في الإبداع الشعري، وهم لا شك بذلك أولياء وبه أحرياء.

ولأمر ما طلب إلي أن أتحدث عن الدكتور عبد الحق المريني، الصديق المتفرد بوداعته ودماثته، والباحث المتميز بجده ومثابرته. وما إخال هذا الأمر إلا كامنا في هاتين الصفتين الحميدتين، والخصلتين النادرتين، وكأني بالجمعية الموقرة قد أدركت ما يحتله صاحبهما في نفسي من مكانة بهما وبغيرهما، فألقت علي عبء الإشادة بما له من السؤدد والمجادة، وإني بذلك لفي غاية السرور والسعادة.

أجل، فمنذ سنين تقارب الخمسين، لقيت السيد عبد الحق المريني، وتوطدت بيننا على مداها الطويل، صداقة موصولة برباط متين نسجت أول خيوطه مودة خالصة كانت تجمع بين والدينا تغمدهما الله بواسع رحمته، وأنعم عليهما بجزيل مغفرته.

ففي رحاب هذه العلاقة الحميمية، وأنا والصديق عبد الحق ما نزال في فترة صبانا الأولية، عرفت الحاج محمد المريني وجها لامعا في حاضرة الفتح بين أعيانها، وعلما بارزا بين وجهائها، شريف القدر نبيل الذكر، متناسل النسب راسخ الحسب، في تبتل وسماحة وتعبد، وتنسك ووقار وتزهد، متسما بمزايا سلوكية ذاتية كان بها مضرب المثل بين الناس، ملازما مجالس ذوي الهمم الأكياس، شغوفا بالدرس والمطالعة والتقاط الشوارد، يدون ما فيها من فوائد وفرائد. آية ذلك ما سجله في سفر نفيس ضم أصنافا من المباحث خبيئة كالدر المكنون، نشره بعنوان "أزهار مقتطفة من بستان العلوم والفنون"، وكان أهداني إياه جزاه الله وأجزل له المثوبة والغفران ما تماطلت الهتون.

في أحضان هذا الأب الفاضل الجليل، وفي هذا الجو التقي النقي الأصيل، نشأ النجل وتربى يحذو حذوه مقتفيا آثاره، ومقتديا بمن كان يعاشرهم من أقطاب ذلكم الجيل، وأفذاذ ذلكم الرعيل. فكان على نهجهم خلقا عاليا، وشمما ساميا، متطلعا إلى الأمور العلية والمراتب السنية، طموحا إلى اكتساب المفاخر وانتزاع المآثر، في أنفة وإباء وتواضع، وعفة وتنـــزه وترفع. لا يلقى أحدا إلا والبشاشة تعلو محياه الهادئ السمح الريان، والبسمة ترتسم فيه باعثة على الثقة والأمان والاطمئنان، يغني بشخصه عن الاختبار، كأنه الجواد – كما يقال — في عينه الفرار. وإذا جالسه أو حادثه أخذ بلبه

ومجامع قلبه، وسحره بحلو كلامه وجميل عباراته، وأمتعه برائع فوائده وإنشاداته، وأطربه بلذيذ طرائفه ونكاته، في ظل خفيف وروح لطيف.

وهو بهذا حريص على صداقة إخوانه، محافظ على أواصر خلانه، مهما تباعده الظروف عنهم والأحوال، أو تفرق بينهم المهام والأشغال؛ مع نقاء الطوية والاستقامة، وصفاء السريرة باستمرار وإدامة، ومع كامل الأهبة والاستعداد، لتقديم العون والمساعدة والإنجاد، وإن ووجه جميله بالنكران، أو قوبل بعدم العرفان.

تلكم ملامح شخصيته في طفولته وهو غلام، ظلت في ذهني عنه وذاكرتي على مر الأيام، حتى حين تباعدنا بسبب ما قضيت خارج الوطن من أعوام، ثم لم تلبث بعد العودة وتجديد التلاقي، أن ترسخت ثابتة قوية، لم يزدها ما تحمل من مسؤوليات سامية، إلا زينة سنية بهية.

أخواتي وإخواني الكرام

زميلاتي وزملائي الأفاضل

على النهج نفسه سار الصديق المريني في مراحله الدراسية، بدءا من الكتاب القرآني إلى المدرسة الإبتدائية، قبل الالتحاق بالثانوية اليوسفية، ومنها إلى معهد الدروس العليا المغربية. وبعد نيل دبلومه، أحرز الإجازة من كلية آداب الرباط في الشعبة العربية، مما أهله لمتابعة تكوينه العالي في معهد الدراسات العربية والإسلامية العليا التابع لجامعة ستراسبورغ الفرنسية، ومنه حصل دبلوم الدراسات العليا ثم الدكتوراه الجامعية.

وقد أهلته هذه الشهادات ليلج ميدان التعليم، أستاذا للغة العربية والتربية الوطنية، وليتولى بعد ذلك رئاسة بعض الدواوين الوزارية، ثم ليعين بمديرية التشريفات الملكية والأوسمة، ملحقا بها فمكلفا بمهمة فمديرا لها؛ وهو المنصب الذي يشغله حاليا بكفاية وغناء، وجد ومضاء.

ولعل تحليه بمثل هذه المزايا السنية، كان هو موصله إلى الحضرة الملكية والأعتاب الطاهرة الزكية، ومحببه إلى جلالة الملك المقدس مولانا الحسن الثاني طيب الله ثراه وأكرم مثواه، وإلى خلفه ووارث سره دام علاه، مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك المعظم سيدي محمد السادس أبقى الله عزه المكين ونصره المبين.

ومن ثم لم يكن بدعا أن يصرف لهذا المنصب غاية عنايته، ويبذل فيه فائق رعايته، جريا على مألوف عادته وطريقته، وسيرا على معتاد سيرته ووتيرته، متفانيا في خدمة السدة المنيفة، وفائزا برضى الجلالة الشريفة، ومدركا بذلك درجات من السمو والبسوق، ومراتب من العلو والسموق.

ورغبة منه في أن يحظى لدى المقام العالي على الدوام بهذه المسرة، ويسعد بما فيها من مبرة، فقد تاقت نفسه إلى استكمال دراسته العالية بتحضير دكتوراه الدولة في الآداب العربية. وكنت سعيدا بالإشراف عليه في إنجاز أطروحتها، هنا في فاس وجامعتها. وعلى الرغم من أني كنت أشفق عليه من ذلك لكثرة مهامه وتنقلاته، وتعدد مشاغله والتزاماته، وما تتطلب من استغراق شمولي عام، وكذا لما يستلزم البحث العلمي من تفرغ كلي تام. فقد أحكم التوفيق بين القطبين، إن لم أقل الضرتين، في حرص وإحكام، لا تفارقه الكتب والدفاتر في حله والترحال وفي كل مقام. وكثيرا ما كنت أبدي

إعجابي واندهاشي لهذا التوفيق، وأتساءل عن سره وسببه، فلا أجد الجواب في غير التعلق الجبلي بالعلم الذي قذف الله نوره في قلبه، يسعى إليه بشغف شديد وأمل بعيد ونظر سديد. وقد تمكن بهذه الاستنارة أن يأخذ لهذا الأمر عدته، وأن يعد له أهبته، باحتفال كبير واستعداد، وتأهب نادر واحتشاد، حتى تسهل له بجده واجتهاده وتيسر، وانقاد له بإمعانه ودؤوبه ما صعب فيه أو توعر.

بهذا الزاد من العلم والعمل والتعليم المتين، وما ناله قبل ذلك في أسرته من تربية وتكوين، وما له من همة قعساء عالية، وقريحة شماء سامية، تسنى له أن يتابع خوض غمار البحث العلمي في مجالات شتى تاريخية وأدبية، وأن ينجز بحوثا ودراسات مغربية، نابعة كلها من تشبعه بروح الوطنية ومقومات الهوية، فألف كتاب "الجيش المغربي عبر التاريخ" ونال به جائزة المغرب بعد أن نشره في طبعتين، كما أخرج أطروحته عن "الجهاد في الأدب المغربي" واستحق بها جائزة عبد الله كنون للآداب، وكان أصدرها في جزءين؛ إضافة إلى ما أعد من أعمال جليلة، منها أسفار ثلاثة قيمة عما "قال جلالة الملك الحسن الثاني"، وآخر عن "مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني"، وكذا كتاب "جلالة الملك الحسن الثاني الإنسان والملك"، ومصنف في جزءين بعنوان "دليل المرأة المغربية"، وثلاثة مجلدات تضم "مجموعة الخطب الملكية والرسائل المولوية والأوامر اليومية الموجهة إلى وحدات القوات المسلحة الملكية" ؛ من غير أن ننسى ديوانا في ثلاثة أسفار باسم "الحسنيات"، وكتاب "محمد الخامس دراسات وشهادات ".

على هذا المنوال، يتابع مساهماته الأدبية والتاريخية، تبرزها مختلف المجلات المغربية، ومنها ما أفرده بالنشر، كبحثه اللطيف عن "الشاي في الأدب المغربي"، وهو منحى في الدراسة لا شك طريف.

أصحاب المعالي والسعادة

حضرات السيدات والسادة

هل وفقت في تقديم شهادة عن الأستاذ الدكتور عبد الحق المريني، الصديق الحميم والزميل الكريم، وفق ما كان مني مطلوبا، وما يقتضيه المقام وجوبا؟ وهل أتيت فيها بما يكشف جده واجتهاده، وما يوازي فضله ومجده، ويضاهي منــــزلته ومحتده؟ مهما يكن ما كتبت في هذه الورقات، فإنه لن يوفيه ما أدركه في علمه وعمله من رفيع الدرجات، وما له في نفسي من مكانة كبيرة جليلة، وإن جاءت كلماتي عنها قصيرة قليلة.

وإنه لجدير بهذا الإحتفاء والتكريم، وحري بما نال فيه من تقدير وتعظيم، فليهنأ به مصحوبا بالسعادة في نفسه وأهله، ومؤيدا بالتوفيق والسداد لتحقيق سائر أمله، مع الدعاء إلى العلي القدير أن يبقيه نجما ساطعا وبدرا طالعاً، وأن يديمه كوكب النظراء والإخوان، وحلية الأكفاء والأقران، وأن يوصل له السوالف بالروادف، والسوابق باللواحق.

وبالمتمنيات نفسها، أسوق التهنئة مشفوعة بودي الأخوي للشاعر الأصيل الأستاذ محمد الحلوي.

وبعبارات الثناء والعرفان، أجدد شكري لجمعية فاس سايس، على هذا الحفل وما تنظمه من لقاآت في كل ميدان.

أشكر لكم حسن إنصاتكم

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

تحية
ترحيب بالأستاذ عمر عزيمان
في أكاديمية المملكة المغربية

ألقيت في استقبال السيد عمر عزيمان عضوا بأكاديمية المملكة المغربية، في الجلسة الافتتاحية لدورتها الربيعية بالرباط، أيام 27-28-29 ذي الحجة 1417 هـ الموافقة 5-6-7 مايو 1997 م.

بســم الله القوي المعين

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والنبيئين أجمعين

سيدي أمين السر الدائم، سيادة مدير الجلسات

زملائي الكرام، حضرات السادة والسيدات

شاءت إرادة مولانا أمير المؤمنين، جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله بنصره المكين، وهو يؤسس أكاديمية المملكة بفائق عنايته، ويوليها رائق رعايته، أن يجعلها مجمعا متفردا للبحث وتلاقح الأفكار، ومنتدى متميزا للتأمل وتبادل الحوار؛ وأتاح لها كي تحقق هدفها الكبير النبيل، تشكلا نادر النظير والمثيل، حتى لكأنها عقد يتخير لتنظيمه أغلى اللآلي والجواهر، أو باقة ينتخب لتنسيقها أزهى الأقاحي والأزهار.

وإن مشاعر السعادة لتغمرنا بالبهج والحبور، وتفعمنا بالفرح والسرور، في كل مرة يلتئم جمعنا لاستقبال من فازوا فيها بكريم الإنعام، ونالوا إليها شرف الانضمام.

وإني لأحس باعتزاز يقصر عن كشفه البيان، إذ أنوب عن سائر الأعضاء الإخوان، في إلقاء تحية الترحيب بالأستاذ أبي حفص عمر عزيمان، بعد أن أحظاه راعي الأكاديمية، ليشغل المقعد الذي كان لسلفه فقيد الدين والعلم والوطنية، الشيخ محمد المكي الناصري، طيب الله ذكراه، وأكرم مثواه.

وأود منذ البداية، أن أشيد في هذه الكلمة التعريفية، بما للرصيف الجديد من فضائل ومزايا نص الظهير المحدث للأكاديمية، على ضرورة توافرها في المحتظين الذين يكونون لمرتبتها معتلين، ولمقام الخالدين بها محتلين.

ومن ثم فإني أستـــأذنكم وإياه في أن أكتفي بإبراز بعض الجوانب، آثرتها وأنا أتأمل سجل حياته الثري بالمناقب، وإن كنت أخشى ألا أنصفه لو حاولت أن أستقصيها حديثا وذكرا، لأني لن أستطيع لها عداً ولا حصرا، ولأن الوقت المخصص لن يسمح بإمكان البسط فيها والإسهاب، على النحو الذي أريده وعلى الوجه الذي يستأهله بحق وإيجاب.

أخي العزيز

إلى أرومة عريقة المنابت والمحاتد، وأسرة راسخة في الأماثل والأماجد، يعزى انتماؤك، ويعود انتسابك، مرتبطا بأفذاذ حليت باسمهم صحائف تاريخ المغرب الناصعة الزهية، ودبجت سجلات عروس حواضر الشمال الرائعة البهية، من أمثال الفقيه محمد بن علي عزيمان، المتوفى عام ثلاثة عشر وثلاثمائة وألف للهجرة، بعد أن كان في هذه المدينة تطوان، قد تولى القضاء لفترة طويلة بنـــزاهة وإخلاص وتفان. وإنها لسلسلة ذهبية يحتل فيها والدك الأستاذ مَحمد عزيمان، مكان الدرة الغالية، بما كان له وما زال من جهود مثمرة في حقل التعليم والتربية، وفي شتى المجالات الفكرية والثقافية، أطال الله عمره وأبقاه ممتعا بالصحة والعافية[1].

---

[1] توفي رحمه الله يوم السبت 24 شعبان 1422هـ : 10 نونبر 2001م

في حضن هذا البيت المجيد ولدت، يوم سابع عشر أكتوبر سنة سبع وأربعين، وفي كنفه نشأت، وعلى نهج سيرة أفراده تربيت وترعرعت؛ تحذو مثالهم حذوا، وتنحو على إثرهم نحوا، سالكا خط سيرتهم، ومقتديا بسبيل سنتهم. وقديما قيل "إن المرء تكرم شمائله وخصاله، إذا كرم حمله وفصاله".

ولا عجب فمن معين لفظ نسبك، وعمرية اسمك، قويت عزيمتك، وشحذت نيتك، وأعليت همتك؛ فقطعت أشواط تعليمك مسابقا أقرانك النظراء، ومباريا خلانك الأكفاء، حتى نلت إجازة القانون الخاص من كلية الحقوق بجامعة محمد الخامس في الرباط سنة سبعين، ثم دبلوم الدراسات العليا في قانون الأعمال من جامعة باريز بعد سنتين، وتوجت ذلك كله بدكتوراه الدولة في القانون الخاص من جامعة نيس عام تسعة وسبعين، بامتياز أهل عملك لأولى جوائز أطاريح الباحثين، إذ تناولت "المهنة الحرة بالمغرب"، وهو موضوع كما لا يخفى مغر لجمهرة المعتنين والمهتمين.

ولم تلبث بعد هذا أن تدرجت سريعا في سلم الأستاذية، بنفس الكلية التي تلقيت فيها دراستك القانونية، وأدركت أعلى مراتبه في اقتعاد للمكان، وامتلاك للعنان.

ولم يكن بدعا وقد تجلى مالك من كفاية وغناء، وما أنت متحل به من نفاذ ومضاء، أن تدعوك للتدريس فيها مؤسسات جامعية أخرى مغربية وأجنبية، كالمدرسة الوطنية للإدارة العمومية، والأكاديمية العسكرية، وككليات جزائرية وتونسية، وأخرى فرنسية وإيطالية.

وقد تسنى لك بهذا أن تبرز في مدخل دراسة القانون بمختلف فروعه المدنية، بدءا من نظرية الالتزامات والعقود والمسؤولية، إلى التحفيظ والتجارة الدولية، فالمقارنات القانونية.

وإذا كان هذا التبريز قد ظهر في دروسك ومحاضراتك، وفي تأطيرك للباحثين وإشرافاتك، فإنه أفضى بك إلى رئاسة شعبة القانون الخاص بكليتك، وإلى الانتظام في سلك المحاماة ومجلس هيئتها بالرباط، وفي لجان انخرطت فيها باغتباط، محلية وعالمية، على نحو عضويتك في لجنة ابن رشد، ومؤسسة الملك عبد العزيز للعلوم الاجتماعية والإسلامية، والجمعية الدولية للقانون الاقتصادي في بلجيكا، ومعهد الدراسات والبرامج المتوسطية في إيطاليا، والمجلس الأعلى بباريز لنظام التوفيق والتحكيم العربي الأروبي، وكذا تمثيلك للمغرب على مدى عدة أعوام في دورات الملتقى السنوي، لمنظمة الأمم المتحدة فيما يخص القانون التجاري والدولي، ثم شغلك منذ العام الماضي كرسي اليونسكو لحقوق الإنسان، وغير هذه وتلك من المؤسسات التي كان لك فيها الشفوف والظهور بما لك من اقتدار وعرفان.

ولم يقتصر تألقك على هذه النشاطات، بل زدت فنظمت الكثير من اللقآت والمؤتمرات، وشاركت في تأسيس غير قليل من الجمعيات، كالجمعية المغاربية للقانونيين الجامعيين بتونس، ونادي علمي الأحكام والسوسيولوجيا القانونيين في إكس أمبروفنس، واللجنة العلمية لمجموعة الدرس والبحث المتوسطية، والمنظمة المغربية لحقوق الإنسان، وقد ترأستها قبل أن يعينك صاحب الجلالة أعزه الله وأعلى مقامه والشان، وزيرا منتدبا لدا الوزير الأول مكلفا بهذه الحقوق ما بين سنتي ثلاث وتسعين وخمس وتسعين. ولعمري إنه

لمنصب لا يسند إلا لذي علم غزير، وحلم وفير؛ ولمن حسن سمته، وبانت أناته، وتحلى بالسكون والوقار، وتجنب مآزق الانزلاق والعثار؛ وكان موطأ الأكناف، ميسر الألطاف، يميز الحالي من العاطل، ويفرق الحق عن الباطل. وإنك كنت به حريا جديرا، وللنهوض بأعبائه قمينا قديرا. فطوبى لك إذ نلت بذلك مكانة علية ومرتبة سنية. وقد قرأت فيما ينسب للخليفة المرضي الصديق، أن "أفضل الناس عند الله من عز بموقفه الحق، وشاع بقوله الصدق، ورتق برأيه الفتق".

وإن هذه المسؤوليات على أهميتها وجسامتها - لم تحل دون مواصلتك البحث العلمي، تبذل فيه جهد طاقتك، وتفرغ وسع استطاعتك، غير متراخ ولامتوان، ولا مضيع من وقتك أية برهة أو آن؛ تستسهل الوعر والصعب، وتقرب البعيد ومنيع المطلب. وكيف وقد التأم لك الأمر واستقام، واتسق في اكتمال وانتظام، فهان عليك ما ثقل على غيرك وتعسر، وانقاد ما تعذر على أمثالك وتعثر. وهذه دراساتك شواهد صادقة، ودلائل ناطقة، منذ رسالتك الأولى الجامعية عن "البنيات القانونية للبنوك المغربية"، إلى أطروحتك التي نشرتها في سفر نفيس، بتقديم كريم من السيد جان دوبريز الأستاذ بجامعة نيس. وقبل بضع سنوات، أخرجت كتابا عن "العقد" لعله أن يكون فاتحة حلقات، عن "قانون الالتزامات".

إلى هذه الأعمال الجيدة البديعة، يضاف اشتراكك في إدارة إنجاز بعض المؤلفات الجماعية كسلسلة "النساء مواطنات الغد"، وسلسلة "مقاربات"، وهما من ضمن ما أصدرت "الفنيك" من منشورات. وإليها كذلك تضم

مجموعة من البحوث والمقالات، كتبتها لموسوعات علمية، ومجلات متخصصة مغربية وأجنبية. وكنت قد ساهمت في إصدار بعضها، وتحمل أمر تسييرها، والمشاركة في لجان تحريرها، ك "مجلة المغرب القانونية والسياسية والاقتصادية"، و"المجلة الدولية لنظرية القانون والسوسيولوجيا القانونية"، و"دفاتر القوانين المغاربية".

ولا أخفيك – أيها الزميل الفاضل- أني كنت استمعت لما بلغ من أصداء هذه الكتابات، فتاقت نفسي للاطلاع عليها تشوفا وتشوقا، ثم قرأت بعضها – على بعد التخصص – فزادني إلى استقصائها تعلقا وتعشقا؛ إذ وجدتك لا تقرب من الأغراض إلا ما أنت به مشغوف ومنهوم، أو ملهوف ومهموم، وألفيتك فيما تبحث تنقب وتدقق، وفيما تدرس تغور وتعمق، سالكا نهج التأني والتمهل، غير مجهض لموضوعاتك بأدنى ميل للتسرع والتعجل.

وفي هذا الذي حبرت وأنشأت – وقد حررته باللغة الفرنسية، وحبذا لو ينقل لتعميم النفع به إلى العربية – لفتت انتباهي جملة قضايا أثرتها، أستسمح في الإشارة منها إلى سعيك الحثيث، لربط القانون بالبيئة والمحيط؛ وتأملك الدائم لمسألة التوفيق بين القانون الوضعي والتشريع الفقهي عند التأويل والتطبيق؛ ومنظورك لحقوق الإنسان، في نطاق المفهوم الإسلامي الذي ينطلق من تكريم الخالق المنان، ليؤكد جميع هذه الحقوق وما تنبني عليه من قيم رفيعة كثيرة؛ في نفي عن الدين كل تهمة في هذا المجال مثيرة، وفي رد ما يلاحظ اليوم من معاناة فيه إلى التوقف الذي اجتازه العالم الإسلامي فترة غير يسيرة.

ولا أريد أيها الصديق الأود، أن أختم هذه الإشارات المجملة، وهي مجرد محطات في حياتك الغنية الحافلة، من غير أن أذكر ما يجمعني بك – عبر القبس الأبوي – من رحم الإخاء، ولحمة الوفاء؛ وما لمسته فيك شخصيا من محامد أصيلة، ومكارم أثيلة، أكدت لي ما ذاع عنك من حسن الذكر، وما شاع من طيب النشر.

ولست بذلك أزعم مدحك أو تطريتك، كلا ولا تقريظك أو تزكيتك، فإني أخشى – لو زعمت هذا وأنت له أهل – أن أغفل شيئا من جميل مفاخرك، وجليل مآثرك، فأوصم بالتفريط والتقصير، في إبراز ما غيري به عليم بصير.

وإني إذ أرحب بك وأحييك، باسم جميع زملاء الأكاديمية، وأهنيك، بما حظك به راعيها مولانا الحسن الثاني أدام الله رفعته السامية، أتمنى أن يكون مقعدك بيننا في رحابها سانحا بتحقيق واسع الآمال، وإنجاز نافع الأعمال؛ بما يوافق ظن جلالته بك، وتقديره لك، وثقته فيك، وبما يتفق ومالك من غالي المؤهلات، وما نهضت به من عالي المهمات، وما هو معروف عن سامق همتك من طموحات وتطلعات.

وأختم بالدعاء إلى العظيم المتعال، أن يوفقك في مقتبل أيامك والأعوام، وأن يسدد خطاك في جميع مساعيك على الدوام، وأن يبقي عليك وعلى أهلك وأسرتك سوابغ آلائه ونعمه، وفواضل مننه وكرمه؛ في فوائد وعوائد موفورات، ولواحق بالسوابق موصلات.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى والبركات.

باقـــة ريحـــان
مهداة من مولع محب ولهان
إلى صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

كلمة شارك بها الكاتب في المؤتمر الذي نظمه مركز زايد للتراث والتاريخ بمناسبة العودة الميمونة لصاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان إلى أرض الوطن بعد أن من عليه المولى بالشفاء والصحة (الإمارات العربية المتحدة 26- 28 ذي القعدة 1421هـ الموافق 20-22 فبراير 2001م).

الحمد لله المنعم المنان

والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة عدنان

وخير من أفصح ببيان، وعلى آله وصحبه في كل حين وآن

أصحاب المعالي والفضيلة رفاق القلم والعرفان

حضرات الإخوان

بمشاعر يفعمها وجد صادق يقصر عن إبدائه أي لسان، وبأحاسيس يغمرها حب خالص يستعصي في التعبير على كل تبيان، يسعدني ويشرفني أن أحضر هذه الندوة التي ينظمها – مشكورا - مركز زايد للتراث والتاريخ في سياق احتفال يقيمه ومهرجان، لأشارك أهلي والأحباب في الإمارات العربية المتحدة بقلب طرب جذلان، مبراتهم والمسرات التي أبوا إلا أن يعربوا عنها بأسطع برهان، وأنصع إعلان، فرحا واستبشارا بالأوب الحميد الميمون لصاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، إلى أرض الوطن العزيز ممتعا بالصحة الكاملة والعافية الشاملة بفضل الكريم الحنان.

فما أعظم هذه المنة يوتيها الباري تعالى أصفياء عباده أولي العزم والإيمان، وما أروع اللقاء يلتئم فيه شمل الوالد بأبنائه ومحبيه والخلان، وبه البلاد تزدان، ويزهى فيها كل حي وميدان. وكيف وقد هفا له الأصدقاء الأوفياء من مسلمين وعربان، وتطلع إليه العاشقون من كل صوب قاصيهم والدان، وألقت إليه الدنيا نظرها والسمع، شاهدة العيان مصغية الآذان.

وإن شرفي وسعادتي بحضور هذا المجمع الحافل ليكبران ويزيدان، إذ تتاح لي بمناسبته المتميزة الغراء أن أقدم باقة ريحان، أعرب بها عما يخامرني من أشواق وتحنان، وما يخالج شعب المغرب بقلوب دائمة الخفقان، مما تبلوره روابط إخاء متفرد أقامه زعيمان فذان، وقائدان ملهمان: سمو الشيخ زيد ابن سلطان آل نهيان، أطال عمره الخالق الديان، وجلالة الملك المنعم مولانا الحسن الثاني تغمده الله بواسع رحمته وجزيل الغفران. وهو إخاء يرعاه خلفه ووارث سره جلالة الملك المفدى سيدي محمد السادس بحدب وحرص دون توان؛ وكيف وقد ألحمت بين جلالته وأخيه الأكبر الأعز سمو الشيخ عهود وثيقة التمتان، قوامها آصرة الصداقة ووحدة الرؤى وهم تشييد الأوطان. حفظهما الله بخفي ألطافه وعنايته وأدام عليهما رفعة الشان وعز السلطان، وأبقاهما غرة الأشباه وحلية الأكفاء وتاج الأقران، وحقق على ندي يدهما وفي مديد عهدهما نهضة أمة قوية الدعائم وطيدة الأركان.

والحق أني مهما قلت؛ بل مهما جلى المبدعون وتفنن المنشدون صادحين بأحلى الأشعار وأعذب الألحان، توقع أنغامها أوتار العيدان، فإن أحدا لن يستطيع إيفاء سموه ما هو حقيق به من سمح الخليقة ونبيل الأرومة وكريم الشيم ونادر الإحسان، وما هو حري به من مفاخر ومآثر رددتها وسارت بذكرها الركبان.

وأنى لي أو لغيري من المشدوهين أمام زكي سيرته وعظيم منجزاته في كل مجال ومكان، أن يحيط بملامح شخصه الكريم ومعالم عهده الزهي بوارف الأغصان، وزاهر الأفنان. فمنذ صباه الريان — وهو سيد الفتيان وزين شيب قومه والشبان – حلته مهابة وضيئة عطرية الأركان، منبعها صدق النية وصفاء

الطوية وإقدام الفرسان، وإرادة الشجعان، فالتفت حوله القلوب في إخلاص وتفان، يغمرها دفق حبه ودفء الحنان، ويسحرها بهاء طلعته ومنطقه المستبان، فأخذ العدة والأهبة وفرغ الجهد وصرف العناية وأيقظ الهمم وحرك الوجدان، وخاض العباب بمعرفة وحلم وسكينة وحكمة واتزان.

وبنخوة لا تستسلم وإباء لا يلين لهوان، وبإصرار لا تروعه عوادي الحدثان، ولا تزعجه صولة العدوان، قاد السفينة وكان لها خير ربان، ورد إليه الأمر واعتمد لديه حتى انتظم والتأم واستقام دون شنآن؛ فلم الشعث وجمع الشتات ووحد الدولة وذب عن عروها وحوزها وأرسى قواعد الكيان، ووطد التنمية والعمران، وأقام عالي البنيان،وفتح آفاق الفكر الأدب ونشر العلم والعرفان، وبسط العدل وأمن من الظلم والقهر والطغيان، وخفف الآلام وعالج الأدواء وكشف الغماء وفرج الكروب والأحزان، وأعلى وأغنى وأكفأ وأجزأ وأشاع الرغد والرفاه وأزال كل معاناة أو حرمان.

وبأريحية نادرة وكرم ليس له ثان، مد اليد للأشقاء والأصدقاء ببذل وسخاء دون امتنان، فشيد وأنجد وأسعف وأعان.

وزاد بنبضة ملتاع وفطنة يقظان، فأخذ بشفوف وسموق يرقع الخروق ويفتدي الأقرباء والجيران، متجاوزا كل خلاف أو نكران، ومطهرا من بقايا الأدران، وماحيا رواسب الأحقاد والأضغان. وغدا بذلك موئلا ومعتصما فأطفأ لهفة الظمآن، وروى غلة العطشان. وكان أن أتى بما لم يخطر ببال أو يكن في حسبان، مدركا مبتغى الأمل ومحققا منتهى الرجاء وكاسبا صعب الرهان، إذ كان سائرا على هدي القرآن، وسنة المبعوث بخاتم الأديان، موفق الخطى بسداد وعون من الله ورضوان.

فلا عجب بهذا أن يكون للمجد هو منتقاه والرمز والعنوان، وهو محضه وعصبه والشريان، ونخبته ولبابه والضمان، يزين جيد الزمان، بقلائد العقيان، وعقود الجمان. ولا بدع بعد هذا أن تكتب له بإبداع وإتقان، وبذهب خالص وحسن فتان، صحائف ناصعة من خير ما دبجت يراعة فنان؛ وأن يشتهر وينتشر له صيت ذائع رنان، ويمتد له الثناء في جميع الأكوان، يفتتن به كل مبتهج فرحان، ويستلذه كل راقص نشوان، على ترنيم زغاريد عود قائده بالسلامة يرخي العنان، لشدو الألحان، بين تغريد البلابل والهزارات وتحليق النسور والعقبان، في مراتع الظبيان والغزلان.

فهنيئا لشعب الإمارات ولنا جميعا بهذا اللقاء ومرحى له في كل إبان وأوان، وليتقبل صاحب السمو من محب ولهان، وافد من بلد أشقائه والخلان، كلمة ختمها دعاء إلى العلي القدير أن يديم عليه نعمة الصحة والعافية وفواضل المنن والإحسان، مشدود الأزر بولي عهده صاحب السمو الشيخ خليفة ابن زايد وإخوته قرة الأعيان، وبأصحاب السمو الشيوخ حكام الإمارات أعضاء مجلس الاتحاد الذي هو لوئام الإخوة عنوان.

ولعلي بهذه الكلمة – على ما يعتريها من نقصان — أن أتوخى موافقته وأبتغي رضاه، آملا أن تكون عن عواطفي خير ترجمان، وأن تكون سطرا في ديوان، لمكرمنا المبجل فيه جماع الكلم الخالد بأروع بيان.

أشكر لكم حسن إنصاتكم باهتمام وإمعان

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته والأمان.

القسم الثالث

تنويه وتعقيب

مع الأستاذ حسن جلاب في أعمالـــــه

نص العرض المقدم في اليوم الدراسي الذي عقدته كلية اللغة العربية بمراكش يوم الخميس 13 ذي العقدة 1418هـ : 12 مارس 1998م، والذي دار حول : "قراآت في أعمال الدكتور حسن جلاب" وقد نشر في : حوليات كلية اللغة العربية — عدد 11- 1419هـ - 1998 م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أصحاب الفضيلة والسعادة

زملائي وإخوتي الأساتذة

أبنائي الطلبة

حضرات السيدات والسادة

بابتهاج متفرد غامر، واغتباط متميز وافر، أَسعَدُ اليوم بالقدوم إلى مراكش الحمراء، هذه المدينة السنية الفيحاء، والحاضرة الندية الزهراء؛ يسوقني إليها شوق هائج، ويقودني وجْد لاعج. بلدةُ التمر والحناء، و"الطنجية" والشواء، و"الدقة" الغناء. تعبق جنباها بفوح الأزهار وتغريدِ الأطيار، وتُردّدُ سوحُها والأسوار ترنيم الأوتار وصدى القصص والأشعار. فسيحةٌ أفنيتُها والأرجاء، رحبةٌ حياضها والإناء، كريمةٌ أرضها والأبناء. يتدفق نداها للعفاة انسكاباً وانهمارا، يَغمر الطائفين بها حجاً واعتماراً. مازارها أحد إلا نال منها تحفة الوارد القادم، وعاد كلفاً بها كلَف الولهان الهائم. وكيف وهو واجدٌ فيها ما ليس في غيرها من جميل الإدْناء والاحتفاء، وجليلِ الإكرام والإعظام.

في ربوعها ازدهرت جنانُ الأخوة، وامتدت شعاب المُروة، فازدهت المتنــزَّهات، وازدانت المُتوجَّهات. وفي رحابها تعانق النخيل المثمر الباسق،

والطلحُ النضيد السامق. وفي رياضها أينعت غصونٌ رِطاب، يُستراحُ في ظلالها من الأوصاب. فواحةُ الورود والزهَرات، منَّاحةٌ للطيبات والمسرَّات، منَّاعة للشرور والمحزنات.

هي على الدوام مضمخة بنسيم الأشواق، ومعْلوةٌ بوسيم الإشراق. تربةٌ معطاء، ومُفجِّرُ البهجة والضياء، وباعثةُ البها والسناء. بادٍ على المدى صَفْوُها، ودائمٌ في الأديم صحوها. محطٌّ العلماء والأدباء، ومقرٌ الأولياء والصلحاء؛ منها مجيئهم وإليها الذهاب، طوبى لهم وحُسن مآب.

أحرزت الفضائل بجملتها، ولـمّت المحامد برمتها؛ ليس فقط بهذه المزايا والحسنات، ولكن كذلك بما اختصت به من لطيف المداعبات والمهازلات، وحُلوِ النِّكات والمفاكهات. بها يَلقَى أهلُها الوافدين مقرونةً بطلاقة وظرافة، يلقونها إليهم مشفوعة بدماثة ولطافة.

ولابدع، فهي بلد المودة والقربى، وموطنُ الكرامة والنُّعمى، ومَوئلُ المترلة العظمى. عُرفت في التاريخ بمالها من سنِي الأخبار، وما قضت على امتداد العهود من سامي الأوطار، وبالمواقف العظيمة التي سَجَّلها أبطالُها الأحرار، وفقهاءُ جامعتها اليوسفية الأبرار. كما عُرفت بعالي منارالها، وعامر مساجدها، وما يقام فيها من صلوات، ويُرتَّل من آيات. وعُرفت كذلك بما يتلى في زواياها من نافع الأدعية ومبارك الأذكار، يتلوها العُبَّاد الزهاد، وتُرددها جموع الأخيار.

وإذا كنت يمَّمت هذا الربْع والمَغْنَى، أُهديه ما أمكن التعبير عنه من رائق اللفظ والمعنى، فعلى عهد بيننا قد أُحكِم عَقده، والتأم على جيد المحبة عقده؛

ففاح بالأريج نَدُّه، وفاض من بحر المكارم مَدُّه. يشوقني من الحرص شائق، يحثني للتغلب على كل عائق، كي أشارك في أفراح هذا العيد، وأحضر يومه السعيد، احتفاءً بمن نتحلّق جميعا حوله مُجمعين على تكريمه، تقديراً لفضله وإجلالاً لعلمه، ومن هو لهذه المدينة ابنٌ كريمٌ بار، ووجه مسعد سار.

ومهما يكن ما يَصرف من مشاغل، أو يمنع من عراقيل، فكيف أكون من المتأخرين أو المتغيبين ؟ ولا أقتعد مكان الأوائل السباقين، للاحتفال بمن يصافيني المحبة والإخاء، ويبادلني المودة والوفاء؛ ومن هو لي في الغيب أطيبُ عهداً، وعلى النأي أكثر ودا؛ حتى لكأني في البعد أَشعُرُ به على قُربي، وعلى مرأى مني ومسمع جنبي ؟ فقد توطدت بيننا ثقةٌ مَنوطة، وامتدت آمالٌ مبسوطة، دلَّ عليها حسن أقواله والأحوال، وصالح أعماله والأفعال، وسابقُ منائحه والأفضال؛ وبرهن عليها لينُ قِشرته وطيب عشرته، وجميل خصاله وحميدُ وصاله. كوكب الأحباء الأوداء، وحلية الأخلاء الأصفياء؛ من يبدي محياه من البشاشة والبشر، ما به تقر العين وينشرح الصدر؛ ذو الخلق الجذّاب، والفكر الخلاب، أخي وصديقي حسن جلاب.

* * *

نلتقي للنظر في كتبه ومؤلفاته، وتأمل بحوثه ودراساته؛ تلكم التي أعلت منزلته، وبلغَته غايته. وكيف وقد شمَّر لها عن ساعد الجد، وسلك إليها سبيل الرشد، فلاح له بها أفقُ المجد. لكن، ماذا عسى أن يسعفني القول والتعبير، أو تُتيح لي الكتابة والتحرير ؟ وقد وجدت الألسن متفقة على اللهج به وتقريظ أعماله، وإطراء ثاقب فكره ورجاحة عقله؛ شاهدة على أن منشوراته ناطقةٌ

عن أهميتها ببيانها، ومفصحةٌ عن قيمتها بلسانها؛ إذ أتى فيها بما يوافق الظن به ويضاهي الثقة فيه، وما يُوازي تقديره ويضارع الرجاء المعقود عليه.

كذلكم هي كتاباته بحق، وكذلكم هو صاحبها بصدق. فمنذ عرفته قبل نحو من ثلاثة عقود، لاحظت فيه مدى الحدب على التعلم والتحصيل يفيد منهما باذلاً أقصى الجهود؛ ولَمست فيه شديدَ الرغبة في البحث والتنقيب يرنو إليهما تطلعاً واصطباراً، ويخوض غمارهما إبداعاً وابتكارا.

أرهف يراعه منذ فترة الدراسة الأولى فدبج غير قليل من المقالات، وأجاد في العديد من الموضوعات ؛ وقد درج على الغوص في بطون الدفاتر والمدونات، المطبوعات منها والمخطوطات؛ وأُولع بدءا من هذه المرحلة بتاريخ مراكش وأعلامها، وما كان من آدابها وفنونها وعلومها، مأخوذاً بالدرس الصوفي يتتبعه بالتحقيق، ويمارسه بالتدقيق.

أخلص في تلقي العلم وتدوينه، وأخلص أيضا في بثه وتلقينه؛ وقد تزاحم عليه الذين يطمحون أن يكونوا على شاكلته ووتيرته، ويودون أن يسيروا على عادته وطريقته. ما صرفته مشاغل الإدارة المنهكةُ الكثيرة، ولا منعته أعباؤها الرتيبة العسيرة، عن متابعة بحوثه العلمية ودراساته الأدبية. وما ذاك إلا أنه يُعد لكل أمر عُدتَه، ويأخذُ له أُهبته. يتحرّى المسرة ويتقصى المبرة، ساعيا إلى أن يجنيَ من المعرفة نَورها ونُورها، وأن يقطف من الكتابة حرَّها وحورها. فكانت هذه المؤلفات التي نظمها في جيد الدراسات جمانا وَدُرّاً، وأرجها في الأبهاء طيبا ونشرا.

يدعو القلم للتحرير فيجيب قريحته عفوا، وينقاد لسماحته صفوا. فكم من موضوعات اصطنعها واخترعها، وكم من أغراض حللها وافترعها،

فجاءت على نحو ما هو له قاصد مريد، وما نحن به نستمتع ونستفيد. لا يكاد يقبل على ما هو به مطالب وعنه مسؤول، حتى يصادف لديه القبول والمامول. في كل مرة يروم مشكلا يتصدى لحله مهما تكن صعوبته أو مشقته، يبذل قصارى المجهود، ويكُدُّ لإنجاز الموعود؛ يصرف له عنايتَه، ويبذل طاقته. لا يخطئ فيه سبيل الرشاد، أو يضل طريق المراد، إذ يسهل الله له صعبه، ويكشف لرؤياه خطبه، فينقاد له ما تعسر وتعذر، ويطاوعه ما تمنَّع وتوعر. تشهد بذلك مدوناته والدفاتر، وما يتناقل عنها من خبر متواتر؛ فقد ضمت موضوعات خرج بها من ظلمة التخمين إلى نور اليقين، وتميَّز فيها بما أكرمه الله به من فهم وإدراك وعقل، وما رزقه من تشبث بقواعد الجذور والأصل.

وإذ كنت لا أخفي أني مفتون بنفيس مصنفاته وآثاره، معجبٌ بصوب آرائه وذوب أفكاره، فماذا تُراني أقول عنها وقد توالت بُذورها تترى منبثقة من الأكمام، وأَنضجها الدرس المتعاقب على مر الأيام والأعوام، فاعطت ثمارها على الكمال والتمام، كأنها الرُّطَب الجنية الشهية، لا يشبع من حلاوتها الهنيئة ولذاذتها المريَة.

ما بعث لي مولوداً جديدا من كريم عطائه وعظيم سخائه، إلا أحسست وأنا أقرأه بصدري ينفتح له تأهباً وانتظاراً، وذهني يتفتح له اهتبالاً واستشعاراً. وإن لهذه المؤلفات لمكاناً في الفؤاد، لعله يساوي ما في النفوس للأولاد؛ فإنها مثلهم قطعٌ من الأكباد، فكيف حين تكون صادرةً عمن هم في محلهم بما لهم في القلب من محبة ووداد ؟

وإن المجال لا يتسع لتتبع جميع كتاباته ومآثره، وعرض محاسنه ومفاخره، وماله فيها من جليل الفوائد وجميل الفرائد. فقد كتب عن الدولة المرابطية[1]، مبرزا رسالتها الجهادية، وماقامت عليه من دعامة فقهية، وتأثيرها على الحركة الفكرية والأدبية. وحرَّر عن الدولة الموحدية[2]، فجلى مرتكزاتها المذهبية، ومدى تأثير عقيدتها على الإنتاجات الإبداعية. وقد تقصى مختلف جوانب هاتين الدولتين ومالهما من مظاهر، دارساً ما ينبثق عنهما من قضايا وظواهر؛ يعتمد تحليل التاريخ ومالهما فيه من شأن وخطب، ومن سلم وحرب، وما لهما كذلك فيه من آداب وفنون وعلوم، وما أبدعوا فيها من منثور ومنظوم.

وما كان له أن يعمق الدرس في الدولتين اللمتونية وأختها التومرتية، من غير أن يعنى بقاعدة خلافتهما فأطال البحث والتأمل وعدد التأليف عن حركتها الصوفية، وتأثيرها ومالها من آثار أدبية[3]. ووقف مليا على عتبات سبعة رجال[4]، متجاوبا مع ما كان لهم من سلوك وأحوال، وما أثروا به على مدىالعهود والأجيال، وماخلفوا من بصمات طبعت التصوف المغربي وما تزال؛ مع تخصيص الجزولي[5] بمقاربة تحليلية لكتابة الصوفية، والعناية إلى

---

[1] إشارة إلى كتابه : "الدولة المرابطية : قضايا وظواهر أدبية".

[2] إشارة إلى كتابه : "الدولة الموحدية : أثر العقيدة في الأدب".

[3] إشارة إلى كتبه : " الآثار الأدبية لصوفية مراكش".
و"مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي".
و"بحوث في التصوف المغربي".

[4] إشارة إلى أطروحته : "الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب : ظاهرة سبعة رجال".

[5] إشارة إلى كتابه : "محمد بن سليمان الجزولي : مقاربة تحليلية لكتابته الصوفية".

جانب ذلك بإلقاء أضواء على الزاوية البوعمرية[6]، وما تميزت به في هذه المجالات الروحية.

على أن اهتمامه بالزوايا ورجالها، جعله يدرس أبا عبد الله المرابط[7] عالم الزاوية الدلائية وأديبها؛ كما أن شغفه بالأعلام – وعددهم جمٌّ غفير– قاده إلى مرافقة أحمد بابا السوداني[8] في كتابه الدر النضير. وهو في هذا كله مأخوذ بالتراث المغربي، سواء منه المدوَّنُ أو الشفوي، على نحو ما بدأ التعريف به في بحوث بيبليوغرافيا التراث[9] المدرسي المكتوب، على أن يلحق به إن شاء الله ما هو شعبي محبوب.

وقد قرن عشقه لهذه الذخائر باعتماد أسلوب في البحث يتوسل به للمعرفة الصحيحة العلمية، وفحصها لتحقيق الغايات المعنية؛ يكشف الحقائق ويصفها، ويفسرها ويؤولها، ويتأملها وينقدها، لإدراك حركيتها، وربطها بالنسق الفكري الذي به تم توظيفها؛ متحفزاً من أصالة يلخصها ما يتوافر في العلم الإسلامي من مبادئ وقيم وأنماط تفكيرية، وما فيه كذلك من تجربة طويلة أثمرت حركة غنية، أفادت منها الأقطار الشرقية والغربية.

وانطلاقا من هذه الذات والهوية، اتضحت له الرؤيا المنهجية، عبر منظومة تكاملت جوانبها المرئية واللامرئية، وتبلورت في كُنْهٍ روحي يجليه

---

(6) إشارة إلى كتابه : "أضواء على الزاوية البوعمرية بمراكش".

(7) إشارة إلى رسالته : "أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي : عالم الزاوية الدلائية وأديبها".

(8) إشارة إلى كتابه : "أحمد بابا السوداني وكتابه الدر النضير".

(9) إشارة إلى كتابه : "بحوث في بيبليوغرافيا التراث المغربي المكتوب".

إجراء الأدوات، والتوسل بها للبرهنة والإثبات، مهما يكن لهذه الوسائل مع غيرها من عناصر الشبه والائتلاف، أو ملامح التباين والاختلاف.

* * *

تلكم – إخوتي والأحباب – لمحات عن مؤلفات الأستاذ الدكتور حسن جلاب. ولو لا أن الوقت على ما حدد لهذه الجلسة غلاب، لأفضت القول فيها طالما اللسان بحديثها مسعفٌ رغاب؛ إذ لا أملٌ من الثناء عليها أعيده وأبديه، وأنشر ذكره وأطويه. ولكني أقدم ما تيسر لي وتسنى، وإن جاء دون ما أبتغي وأتمنى. وقديما قيل : إن غاية الجود في بذل الموجود، وما كان أجود من لو كان.

وأستسمح في أن أختتم بالدعاء أن يسبغ الله على أخي الأعز موفور نعمه بالتمام، ويربط تمامها بالدوام؛ وأن يبقى له المجد تعلوه سمته، وترفعه همّته؛ وأن يمده بسداده لمواصلة التوفيق، وبعونه لمتابعة الطريق، مثلما أكرمه بحميد الشيم، ورزقه بعظيم القيم؛ وأن يهنئه نعمة التأليف، وما تضفيه عليه من تشريف؛ فهي من أكثر نعم الله خيرا، وأسيرها بين الناس ذكراً، وأجلبها للعالم فخرا، وأوجبها عليه شكرا.

فلعله بحمد لله يضاهي قدرها، أن يقضي حقها، حتى تستمر له كاملة الفوائد، موفورة العوائد، في إقبال زائد، ونجم صاعد؛ وحتى يبقى ميمون الطالع والطائر، مأمون الغائب والحاضر، موفور العُدد والذخائر، محمود العواقب والأواخر؛ وحتى تظل أيام هذه الكلية العامرة التي يتقدمها ويرأسها أعياداً ضاحكة المباسم، ومناسباتها العلمية الدائمة ظاهرة المواسم؛ يسعد بها

ويصعد منها إلى ما فوقها، حيث ترجو نيته، وتامل بغيته. وذلكم ما نتمناه له جميعا، متوسلين لتحقيقه بصادق الدعوات وخالص الصلوات.

أشكر لأخوتكم وحضراتكم حسن الإنصات، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى والبركات.

مع الأستاذ يسري شاكر في مجموعة : حكايات من الفولكلور المغربي

(الجزء الأول)

مطبوعات دار النشر المغربية — الدار البيضاء 1978.

التناول الصحيح للتراث، سواء على صعيد الجمع أو الدراسة، يعني موقفا من هذا التراث قائما على رصد موضوعي نزيه ورأى مدعم مقنع، وان تباين التذوق أو اختلفت الرؤيا سلبا وإيجابا إليه.

والموقف الذي اتخذناه والتزمنا به ودعونا إليه — ولا نزال — ينطلق من النظر إلى التراث من خلال مفاهيم العصر ومناهجه وقضاياه، بما يتيح لنا الكشف فيه عن جوانب القوة والفعالية، ويجعلنا إذا نحن ضبطنا هذه الجوانب، قادرين على امتلاك التراث في الصميم، وعلى إخضاعه للواقع وربط حركته في التاريخ القريب والبعيد بصيرورة المستقبل.

وتحقيقا لهذه الغاية، لم نفرق في التراث بين ما هو مدرسي وما هو شعبي، واعتبرنا هذا مكملا لذلك، لما يمتاز به من خصب وغنى وحيوية وتلقائية. وزادنا إلحاحا على هذا ما وجدناه في التراث الشعبي المغربي من تنوع وغزارة واحتفاظ بملامح الأصالة والعراقة، مع التروع المستمر إلى التطور والتجدد.

وإذا كانت هذه السمات تعد من خصائص تراثنا الشعبي ككل، فهي في الجانب الأدبي منه أوضح وأبرز، لتوصل هذا الجانب بألوان من القول، وأشكال من القوالب، وأنماط من أدوات التعبير متنوعة وغنية بتنوع البيئة المغربية وغنى روافدها ؛ لكنها أبدا تلتقي في البوتقة الوطنية لتكشف عن وجدان مغربي موحد قادر على التكيف والامتصاص بعفوية وتلقائية غريزيتين.

ومع ذلك، فإن الرأي العام الأدبي في المغرب، والمثقف عموما، ما زال يبدى حذرا شديدا من الأدب الشعبي لعدم إدراك قيمة مضامينه وجودة فنيته،

ثم لخوفه من العامية على اللغة المدرسية وما يرتبط بها من تعريب حين يتعلق الأمر بالأدب الشعبي الصادر بالعربية، أو لخوفه من اللهجات الأمازيغية على الوحدة الوطنية حين يكون الأمر متعلقا بأدب هذه اللهجات. وإذا كنا بالنسبة للعامية العربية قد فرغنا من القول حين كشفنا عن إيجابية العناية بها، فإننا بالنسبة للهجات الأخرى، لا نملك إلا أن نؤكد جدوى الاهتمام بها وما صدر فيها من آداب، دون أن ننسى قرابتها مع العربية في الأصل، ودون أن ننسى كذلك مدى ما اقتبسته منها خلال العصور، سواء على صعيد اللفظ أو التركيب فضلا عما نقلته من مضامين.

وإذا كنا ذهبنا في السابق إلى حاجة اللغة العربية – فيما تحتاجه للتطور والتجدد والتوسع – إلى العامية وسيلة من وسائل الاغتناء وتقريب الهوة بين أداتي الكتابة والتخاطب، فإننا نزعم أن اللهجات الأمازيغية بما لها من خصائص قريبة من العربية قادرة على إيجاد قنوات للاتصال تذيب قليلا أو كثيراً مما بينها من فوارق.

وهناك حذر آخر يبديه بعض المثقفين تجاه مضمون الأدب الشعبي حين يتعلق الأمر بالحكاية الشعبية، إذ يرون أن انتشارها يزيد في شدنا إلى أرضية التخلف، لأنه لا يدل إلا على خرافية عقلية متداوليها، أو على عدم وجـــود وعي لديهم يدركون به مختلف الظواهر والحقائق والتناقضات السياسية والاجتماعية. ولا يدل هذا في النهاية إلا على أنهم كانوا دائما خارج التاريخ بعيدين عن التخطيط لمصيرهم وتحقيقه، أو التحكم فيه على الأقل، وأنهم لجأوا إلى الخرافة لمجرد التعويض.

ولسنا نشك في أن الخرافة كانت مجالا واسعا للتعبير في المجتمع خلال مراحل من تاريخه لم تكن تتسم بالرقي والتطور، لكن استمرار انتشارها يعني – بالإضافة إلى الجانب الترسبي في الذهن والفكر – أن المجتمع كان يلجأ إلى التعبير بها حين لا تتاح حرية التعبير، وحين يفرض عليه توجيه من شأنه أن يثبت لعقلية معينة.

من هنا كانت الخرافة متنفسا له يرفه بها عن نفسه، ويعبر عن موقفه، ويبعد بواسطتها آلامه ويقرب آماله ؛ بل أنه كان يجد فيها الحل أو السبيل للراحة والاطمئنان حين تضغط المشاكل عليه، فيقف أمامها حائرا أو غير قادر على المواجهة.

ومع ذلك، وإذا كنا لا نستطيع أن ننكر أن هذا النوع من الأدب، يزيد انتشاره في البيئات التي تعاني .التخلف، فإننا نلاحظ ميلا يكاد يكون غريزيا إلى الخرافة حتى في المجتمعات التي تخطو نحو التعلم، كما هو الحال في المجتمع المغربي والعربي عامة، حيث يتضح هذا الميل ليس في الإيمان والاعتقاد فحسب، بل حتى في الممارسة والسلوك.

. وهذه حقيقة لا تؤكد إلا أن العلم في مجتمعنا ليس غير مادة نظرية لم تتحول بعد إلى تطبيق. وهي تؤكد بالتالي أن متعلمينا لم يتعمقوا في المفهوم الحقيقي للعلم ولم يدركوا أبعاده ولم يتشربوا روحه، وأنهم في النهاية لم يربطوه بالحياة.

حقا أن الإنسان مدفوع بالغريزة والتفكير معا، سواء على النطاق الفردي أو المجتمعي، إلى معرفة ما في ذاته من الخصائص والطاقات والإمكانات

والقدرات على الإضافة والعطاء، وحقا كذلك أن عناصر تركيبة هذه الذات تتغير على مر العصور كما تتغير المؤثرات الفعالة فيها، ولكن الجوهر يبقى إلى حد بعيد - وخاصة عند الطبقات البسيطة - ميالا إلى الاحتفاظ بمقوماته العقلية والذهنية، لارتباطه بواقع مادي ونفسي معين، وإن مال إلى بعض التطور بقدر ما يتطور التاريخ في هذا المجتمع.

وهو بهذه الملامح أكثر ظهورا في ما يمارس الشعب من عادات وتقاليد، وما يبدع من آداب وفنون، وخاصة في مجال القص والحكى.

وهذا ما يحفزنا – ونحن مازلنا بصدد البحث عن الذات – إلى العناية والاهتمام بهذا النوع من الأدب الشعبي والدعوة إلى جمعه أولا، وإلى دراسته ثانيا، من جوانب مختلفة، أنثروبولوجية ونفسية وتاريخية وأدبية.

من هنا كان تقديرنا لهذا العمل الذي أنجزه صديقنا المصري الأستاذ يسرى شاكر، في إطار جمع الحكايات الشعبية المغربية.

وهو عمل جليل وضخم تطلب منه سنوات طويلة من التتبع والجمع في غير قليل من المعاناة المضنية المرهقة، وكان سبق له أن أطلعنا على مشروعه منذ أزيد من ثلاثة أعوام، فأشفقنا عليه مما قد يصيبه من المشقة والعناء. ولكننا لم نلبث أن شجعناه، حين ألفيناه مصمما وبروح قوية عالية على المضي في البحث الميداني عن الحكاية هنا وهناك، وعلى مواجهة الصعوبات التي تعترضه مادية ومعنوية. وكنا قد تعرفنا عليه من خلال مسلسل "للا غنو" الذي قدمت التلفزة المغربية حلقاته الناجحة، فأعجبنا بالعمل وقدرنا صاحبه.

ولاشك أن الحس الفني الذي يتمتع به الأستاذ يسري، باعتباره مخرجا تلفزيونيا، ساعده إلى حد بعيد في انجاز مشروعه الذي يقدم في هذا الكتاب أولى مجموعة منه. والحكاية الشعبية التي تعرض هذه المجموعة تمثل أقاصيص قديمة لا يعرف مؤلفها ولا زمن انشائها، وان كانت في مجموعها ترجع إلى عمق ضارب في التاريخ، لما تكشف عنه من ملامح عريقة ؛ وقد انتقلت عبر العصور والأجيال ولا تزال عن طريق الرواية الشفوية، وإن وجدنا بعضها مدونا عند الذين عنوا بها في مرحلة متأخرة، وخاصة من المستعربين.

وهي إبداع شعبي، يعكس مدى الثقافة والخيال لدى المجتمع المنتشرة فيه، على الرغم مما قد يلاحظ من التشابه بينها وبين حكايات متداولة في مجتمعات أخرى كالمجتمع المصري.

وتلك ظاهرة لا تعني النقل بقدر ما تعني التماثل في التجربة والتقارب في الأصول الفكرية. كما أنها تثبت عملية التبادل الثقافي الذي كان دائماً موجودا بين الشعوب، وخاصة حين تجمع بينها أواصر الجنس والعقيدة وروابط اللغة والتاريخ ووحدة قضايا المصير.

ويمكننا أن نميز من بين حكاياتنا ما يعتمد التاريخ وسير الأنبياء والأبطال، وما يتخذ شخوصه من الحيوانات الوحشية والأليفة، وما يلجأ إلى الجن في إبراز العلاقات بينه وبين الإنس، تختلف تأييدا ومحاربة، وقد تصل إلى حد الحب والعشق والزواج. وأنها قبل هذا كله نوع يرتكز على الأساطير. والأساطير تعني كل ما هو خارق وفوق الحول الإنساني، ولكنها نمط في التعبير عن واقع معين ووجود متميز يتسم بالخوارق، انطلاقا من تصورات معينة للكون والإنسان وتكشف عن حقائق ترتبط بتاريخ المجتمع وواقع عقليته

وتفكيره وعقيدته عبر الزمان. وهي حقائق تدل على مدى ما كانت تقوم به من وظائف ثقافية منبثقة في الغالب من قيم خلقية أو دينية. فمثل هذا القصص يحكـي تجارب الإنسان في حياته الخاصة والعامة، ويحكي صورة ممارسته للوجود بما تفرض من مواجهة وصراع، لم يكن في المرحلة البدائية الأسطورية قادرا على التعبير عن موقفها دون التوسل بما يسعفه به الكون – والعلوي خاصة – من صور وأنماط مرئية ومتخيلة ؛ ثم لم يلبث أن تخلص نفسيا وفكريا وذهنيا من التعلق بهذا العالم، ليرتبط قليلا أو كثيرا بالأرض، ولكنه حتى في هذه المرحلة المتطورة، أعمل تخيله وتصور أن الأرض تتسع لمخلوقات خارقة مهولة، فأنشأ أقاصيص خرافية.

والحكاية الشعبية بعد هذا تلح على التجسيم في تناول الوقائع، وعلى تشخيص الحيوان والجماد. وقد يفضي هذا التشخيص إلى إيجاد تداخل بينها وبين الإنسان، سواء في الشكل أو الصفات، إذ نصادف أناسا بأطراف حيوان، كما نصادف بهائم وأحجارا تفكر وتنطق.

وهي تفصل الأحداث، وتهتم بعناصر الدقة والتحليل والتعليل، مع عدم استنادها إلى علم أو منطق أو عقل.

ثم إنها تعتمد على الدين، وترتبط به حتى ما كان منها يرجع إلى أصل بدائي. بل إننا نجد خرافات الخوارق تعتبر أن في الجن مسلمين وغير مسلمين.

ويبدو واضحا أن الارتكاز على الدين والجانب الغيبـي منه خاصة، كان دائما يقرب الخرافة إلى الجماهير ويجعل لها تأثيرا في أنفسهم أقوى وأعمق، والغالب أن يلتزم القاص الشعبي تصميما فنيا يعرض في بدايته

الأحداث والشخوص، وهم عادة بدون تعريفات خاصة، وإنما يحملون أسماء مثل : السلطان والوزير والفقيه والساحر والعجوز واللص والحطاب والصياد.

ثم يصل الراوي إلى العقدة وقمة الصراع، بما في ذلك من تأزيم للوضع أو الموقف، ومن إحراج يختبر فيه ذكاء البطل أو قدرته الجسمية. وقد يبدو انفراج في الأزمة بتمويه في الحل، ينطلق من افتراضات ناتجة عن مواقف. وفي النهاية يتضح الحل الصحيح، وهو غالبا ما يكون انتصارا للبطل أو لقيمة الخير.

وللقاص تقليد في السرد، إذ يبدأ ويختم بعبارة معينة، كما أنه يستعين بالغناء والدعاء، وقد يتوسل بالحكم والأمثال وعبارات الوعظ والإرشاد، وبالكلمات المسجوعة والتراكيب الألغازية، وخاصة في تجسيم لأحد المواقف أو الرمز لقيمة ما ؛ بالإضافة إلى ما للغز من دور محوري حين يتعرض البطل للحظة دقيقة، يضطر فيها إلى إظهار القدرة على حله.

والقاص الشعبي لا يهتم كثيرا بالشكل والإطار، ويتعامل مع الحكاية بحرية تتدخل فيها ثقافته ومزاجه وذاكرته وظروفه الزمانية والمكانية وموقفه الخاص.

ولكنه إذا كان لا يحفل بالشكل الفني، فإنه يحفل بالجوهر والمضمون، لارتباط الحكاية بأدوار تؤديها تهدف إلى التوجيه الخلقي، وإلى نقد أنواع معينة من السلوك، وتهدف إلى التوعية الوطنية والقومية وإلى بث القيم والمثل الإنسانية، كما تهدف إلى التسلية والترفيه والترويح.

وبعد، فإن هذه المجموعة تحتاج إلى دراسة ترصد جوانب كثيرة كما أسلفنا. وقد كان على الأستاذ يسرى شاكر أن يثير بعضها في المقدمة التي كتب، ولكن حسبه أنه قصد إلى جمع شتات مبعثر، وذلك في حد ذاته عمل له قيمة يستحق عليه كل تنويه ؛ وإن وعد بإنجاز هذه الدراسة في الجزء الثاني من المجموعة. وما أظنه إلا موفيا بوعده وموفقا إلى ذلك. وإذا كنا ندعو إلى دراسة هذه الحكايات، فإننا لا نخفي أن مهمة دراستها ودراسة الأدب الشعبي عامة ليست سهلة على الإطلاق، فهي إذا كانت تحتاج إلى شجاعة أدبية لخوض غمار الريادة فيها، فإنها أكثر من ذلك تحتاج إلى حس وطني وإلى ضمير واع يلزمهما في الدارس حتى يهتدي إلى العناصر الحية والجوانب الإيجابية، فيلح عليها ويبرزها ويلغي من الساحة كل الشوائب والسلبيات.

ولاشك ان طلابنا في الدراسات العليا ممن يميلون للتراث الشعبي مهيأون لينهضوا بهذه المسؤولية. وهم مطالبون بذلك حتى لا يتركوا المجال فارغا للباحثين الأوروبيين والأمريكيين الذين يقبلون على دراسة آدابنا وفنوننا الشعبية، وكذلك العادات والتقاليد، بإيعاز وتشجيع من حكوماتهم التي ترصد الأموال لذلك وتهيئ المراكز والمعاهد. وأضننا في غنى عن الإشارة إلى ما يشوب بعض عمل هؤلاء وما لهم فيه من خلفيات.

ولعله خير لنا أن نبادر إلى دراسة آدابنا الشعبية بروح وطنية وقومية، من أن نترك المجال للمحرفين والمغرضين يعبثون به ويوجهونه لخدمة أهداف هدامة.

مع الأستاذ محمد الحلوي
في مسألة الرؤيا والرؤية

تعقيب نشر في جريدة "العلم" عدد يوم الخميس 20 سبتمبر 1973.

عودتنا جريدة "العلم" الغراء نشر مقالات مفيدة وممتعة في هذه الأيام، يحاول أصحابها مشكورين تصحيح بعض ما هو ذائع على الألسنة والأقلام من "أخطاء شائعة".

وإن لغتنا – منطوقة ومكتوبة – لفى أمس الحاجة إلى مثل هذه التصويبات التي من شأنها ان تنبه إلى بعض مواطن الزلل في التعبير، وتُقوم ما قد يكون في هذا التعبير من اعوجاج، خاصة في مرحلة تطورية كالتي نجتاز، تتعرض فيها جميع بنياتنا الحضارية والثقافية للاهتزاز والاحتكاك والصراع، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي لهذه البنيات.

وإذا كنا نشعر بضرورة هذا العمل وأهميته والحاجة الملحة إليه، فإننا لانراه إيجابياً ومجديا إلا إذا توافر له شرطان أساسيان :

أولهما : أن يكون مراعياً لما في اللغة العربية من غنى وعمق واتساع. وهذا شرط يقتضي من المقومين أن يكونوا مستوعبين لهذه الظاهرة أو واعين بها على الأقل، أي قادرين على إدراكها وتحقيقها بالبحث القائم على استقصاء المصادر المعجمية واستقراء النصوص.

الثاني : أن يكون مراعياً في نفس الوقت لحاجة اللغة العربية إلى مزيد من التطوير والتجديد عن طريق عملية تفجيرية من الداخل، وأخرى تطويعية مع الخارج، وفق المقاييس والقوانين والقدرات التي تسمح بها طبيعة هذه اللغة في نطاق ظروف تاريخية وتطورية معينة.

من هذا المنظور كان اعتباري للتصويب الذي نشره الأخ الشاعر محمد الحلوي يوم الخميس الماضي في الصفحة الأخيرة من هذه الجريدة الموقرة، والذي أخذ فيه عليَّ استعمالي كلمة "الرؤيا" مكان "الرؤية". وهو استعمال استوقفه – على حد قوله – في فصول كثيرة قرأها من كتابي عن "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه" ج 1. وزاد بأن "تكرارها بهذا الشكل ينفي أن تكون غلطة طبع أو زلة قلم. ومثل هذا الخطأ شائع في أكثر ما يكتب ويقرأ، وكأن لا أحد يفرق بين الرؤيا التي يراها النائم حلماً في أحلامه وبين رؤية العين. وهما معاً يجمعان على رؤى ولكن أية واحدة منهما لا يمكن بحال أن تستعمل مكان الأخرى".

ومع تقديري لغيرة الأستاذ الحلوي على اللغة العربية فيما كتب ويكتب من تصحيحات، فإني لا أخفي استغرابي للطريقة التي سلك، إذ جرت عادة المصوبين للأخطاء الشائعة أن يتتبعوها من خلال الألسنة والأقلام دون تحديد لنص معين أو كاتب بذاته، طالما أنها ذائعة ومنتشرة، وطالما أنها ليست من أخطاء الخواص التي تحتاج إلى درة الغواص. وهو المنهج الذي سار عليه السيد الحلوي نفسه في تصحيحات سابقة وأخرى ضمنها نفس المقال؛ ولكن بدا له أن يحيد عنه بالنسبة لكلمة "الرؤيا" التي ضايقه أن يراها تتكرر عندي في كتاب "الأدب والمغربي".

* * *

ومع ذلك، فإنه ليس صحيحا أن "الرؤيا" لا تستعمل إلا في المنام، وأن "الرؤية" لا تستعمل إلا للنظر بالعين. فقد ورد في معظم معاجم اللغة الكبيرة أن الأولى تستعمل مكان الثانية. ففي "اللسان" نقلاً عن ابن بري أن "الرؤيا"

تكون في اليقظة، وأورد على ذلك شواهد كقول الراعي النميري، وهو من هو فحولة أكسبت شعره حجية قوية في هذا الباب :

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفسا كان قبل يلومها

ومثله قول أبي الطيب :

مضى الليل والفضل الذي لك لا يمضي

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وإذا كان البعض قد أخذ على المتنبي هذا التعبير، فهو من باب "حسنات الأبرار سيآت المقربين"، إضافة إلى أن القضية فيها أخذ ورد، وهي تدل على إمكان الاستعمال وجوازه ووقوع هذا الاستعمال بالفعل. ثم إن المثبت مقدم على النافي كما يقول الأصوليون.

وبهذا المعنى فسر قول الله تعالى في سورة الإسراء : "وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس". بل إن بهذه الآية الكريمة استدل الذين قالوا بأن الإسراء كان ببدن الرسول عليه السلام وفي يقظته، وهم علماء السلف وجمهرة المسلمين. وقد ذكر ابن عباس أنها "رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به". ثم إنه عز وجل يقول في سورة النجم متحدثاً عما رآه عليه السلام حين عرج به إلى السماء : "ما زاغ البصر وما طغى"، والبصر من أعضاء الذات وحواسها وليس من أجزاء الروح. هذا فضلا عن حجج أخرى كالبراق الذي ذكر المفسرون صفاته وأنه لم يكن لازماً لو لم تكن الرحلة بالجسم. ولو لم تكن كذلك – أي لو كانت بالروح ومناماً فقط– لكانت مفرغة من أي مضمون وخالية من أي دليل يثبت نبوة الرسول

وحجية رسالته عليه السلام، ولما كانت فتنة للناس عامة وقريش خاصة التي استعظمت الأمر، وقالت انه صلوات الله عليه "تعشى فينا وأصبح فينا ثم زعم أنه جاء الشام في ليلة ثم رجع. وايم الله إن الحدأة لتجيئها شهرين شهراً مقبلة وشهراً مدبرة". وإن عظمة هذا الأمر لتبدو كامنة في التسبيح الذي استهلت به السورة، وهو قوله تعالى : " سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله".

وحتى الذين قالوا بإسراء الروح دون الجسد – وهم قلة – لم يشيروا إلى أن مدلول الآية الكريمة يفيد الرؤيا المنامية، ولكنهم استندوا فقط إلى بعض الروايات التي ترجح الرحلة الروحية والتي رفضها معظم المفسرين والمحدثين ومدوني السيرة النبوية. ولو كان الدليل اللغوي يسعفهم في ذلك لطرحوه حجة قاطعة على ما يرون في القضية.

* * *

ولست أريد أن أطيل في هذا الباب، ولا أن أتحدث عن مصدرية الرؤيا والرؤية وفعلهما المشترك وإمكان نيابة إحداهما عن الأخرى، فلعلي أخشى أن ندخل في جدل عقيم يبعدنا عما نشعر ويشعر جميع المخلصين بضرورة تقديمه للغة العربية، حتى تخرج من المحنة التي تجتاز، أي حتى تصبح لغة علم وتعليم وعمل وإدارة ولغة الحياة اليومية المعاصرة بكل ما تقتضيه؛ ولكني أريد أن أخلص إلى أن استعمال "الرؤيا" مكان "الرؤية" ليس خطأ كما ظن الأستاذ الحلوي، ولكنه وارد؛ قد يكون هذا الورود قليلا ولكنه مثبت في نصوص قوية على حد ما رأينا، أي نصوص من القرآن الكريم والشعر العربي القديم.

وأود أن أضيف في النهاية أني في ميلي لهذا الاستعمال، لا أقصد إلى التوسل بالنادر من الصيغ كما قد يتوهم، فالعكس هو الصحيح، ولكني اعتدت في كتاباتي، وحتى في محاضراتي وما إليها من التعبير الشفوي، أن أنقاد لسياق إيقاعي تنغيمي قائم على نظم وانسجام أجد نفسي منقاداً لهما بعفوية وتلقائية. ولا أخفي أن كلمة "الرؤيا" تسعفني أكثر في هذا السياق، وتأتي أنسب وأطوع في كثير من جوانبه. وما أظنني أحتاج إلى شرح أطول في هذا المجال وأنا أتحدث إلى صاحب شاعرية كالأستاذ الحلوي.

فله مرة أخرى عظيم تقديري على ما ينشر من تصويبات، والله الموفق.

مع الأستاذ محمد طه الحاجري

في كتابه :

مرحلة التشيع في المغرب العربي

وأثرها في الحياة الأدبية

نشر في مجلة "الكتاب المغربي" عدد 2 — مارس 1984. يقع كتاب "مرحلة التشيع" في 152 صفحة من الحجم المتوسط (23 x 16)، وهو صادر عن "دار النهضة العربية الحديثة" — بيروت — الطبعة الأولى 1403 هـ — 1983م.

موضوع هذا الكتاب يكتسي أهمية بالغة لسببين : أولهما أنه يتناول قضية دقيقة في تاريخ المغرب العربي، تتصل بالفترة التي تسرب له فيها المذهب الشيعي. والثاني أنه ينظر في هذه القضية من حيث علاقتها بالأدب ومدى تأثيرها فيه. وكلا الأمرين يتسم بصعوبة لا يدركها إلا المعنيون الذين يمارسون البحث في مثل هذه الموضوعات. ولعلى في غير حاجة إلى القول بأن مؤلف الكتاب الدكتور محمد طه الحاجري المعروف باهتماماته الأندلسية المغربية، هو واحد من أولئك الدارسين الذين توافرت لهم امكانات علمية تؤهلهم لخوض الميادين التي لا ترتاد بيسر وسهولة.

بدون أي تقديم مهما كان، هجم المؤلف على بحثه الذي قسمه إلى سبعة فصول. في الأول الذي يحمل عنوان (الوضع السياسي في المغرب العربي إبان قيام دولة العبيديين)، انطلق المؤلف من الاضطراب الذي عرفته دول الأغالبة والرستميين والأدارسة، ليتحدث عن التشيع الذي ظهر وأخذ يتقوى مستفيداً من هذا الاضطراب، إذ أقام على أنقاض حكم تلك الأسر دولة قوية هي دولة العبيديين التي لم تلبث أن بسطت نفوذها على معظم أقاليم المغرب العربي، بعد أن تمكنت من القضاء على الرستميين بتاهرت وبني مدرار في سجلماسة، وكذا من مواجهة انتفاضات الخوارج في افريقية، والوضع المضطرب في المغرب الأقصى، بسبب التبعية لها تارة والانفصال عنها أخرى.

وركز المؤلف على المدن التي أقامها العبيديون، كالمهدية التي أنشأها عبيد الله المهدي والتي كان لها دور حضاري تجلى في تطوير المجتمع والنهوض بالحياة العقلية والأدبية، وكذا مدينة صبرة التي أنشأها الخليفة الفاطمي المنصور

بالقرب من القيروان، والتي سميت بعد بالمنصورية نسبة له. ومثلهما مدينة المسيلة المقامة في بلاد الزاب من المغرب الأوسط، وتعرف بالمحمدية، نسبة إلى محمد بن عبيد الله المهدي الملقب بالقائم ثاني خلفاء الدولة.

وانتقل المؤلف للفصل الثاني حيث تحدث عن (النشاط الفكري والديني في دولة العبيديين)، لم يقصد من ذلك إلا الإشارة العابرة إلى ما قام به الدعاة، بدءاً من أبي سفيان والحلواني إلى أبي عبد الله الداعي، موضحاً أن الدولة كانت تسعى إلى تحقيق هدفين : أحدهما سياسي يتمثل في تكوين دولة إسلامية جديدة موحدة، والثاني مذهبي يقتضي صبغ المسلمين جميعا بالصبغة الشيعية.

ويلتقي مع موضوع هذا الفصل موضوع الفصل الثالث الذي تناول فيه المؤلف (الحياة العقلية والأدبية في الفترة الأولى من مرحلة التشيع). وفيه تعرض لبعض الأحاديث التي وضعت عن المهدي، وللدعوى التي تزعم بأن هناك علماً يسمى (علم الحدثان) ينبئ عن أحداث العالم إلى انقضائه، وهو مما أستأثر به الأيمة من الشيعة. وأورد بعض النصوص الشعرية التي تعكس نبوءات هذا العلم، مما كان يتخذ في نشر الدعوة، كما أورد نصوص بعض الكتب التي كانت تلقى على الناس لنفس الغرض. ثم ذكر بعض ما كانت الدولة تحاوله لاستمالة فقهاء أهل السنة حتى يسيروا في ركابها، أو إرهابهم حتى ينطووا على أنفسهم فلا يثيرون عليها ثائرة العامة. وغالباً ما كانت تلجأ في ذلك إلى أسلوب المناظرة، وخاصة في بعض المسائل، كاستحقاق الإمامة بما بين الأيمة وفاطمة من وشائج. ويضيف المؤلف أن الخطابة نشطت كذلك في هذه الفترة، إذ توسل الدعاة بها في التبليغ والإقناع.

أما الشعر فكان نصيبه موفوراً، سواء في جانب العبيديين الذين كان لهم شعراؤهم الذين يمجدونهم ويشيدون بمآثرهم ويذيعون مبادئهم ويسبغون عليها مختلف الزخارف والتهاويل، من أمثال سعدون الورجيني وعلي بن محمد الإيادي؛ أو في جانب خصومهم الذين كانوا يها جمونهم ويسفهون آراءهم، كأبي سهل الوراق وأبي القاسم الفزاري، وهما من شعراء أهل السنة، وإن بدا في بعض أشعارهما روح خارجي يظهر في الميل لأبي يزيد، ولكن ليس حباً فيه وفي الخوارج، وإنما كراهية لخصومهم، وكأنما ذاك الميل يدخل في حدود ما هو مشترك بينهم وبين أهل السنة من العمل على تقويض دولة العبيديين.

وفي الفصل الرابع الخاص ب (الحياة الأدبية في عهد المعز لدين الله الفاطمي)، استعرض المؤلف جوانب مما كان بلغه نظام الدعوة من اضطراب وما داخله من فساد نتيجة الغلو والإفراط. وهو واقع زادت في استفحاله الحرب العنيفة التي كانت تعم المنطقة كلها، والتي اجتذبت إليها مختلف الطوائف، إلا أن المعز استطاع أن يواجه الأحوال ويعالج الأمور بشيء من الاتزان والعقل، معتمداً على دعاة – كالقاضي النعمان – من غير أولئك الذين اتخذوا الدعوة حرفة تحثهم على الكذب والزيف والمبالغة؛ فكان أن ازدهر فن المناظرة والمراسلة والخطابة والتأليف. ومن أبرز ما ألفه القاضي النعمان للمعز كتاب (دعائم الإسلام) و(كتاب الدينار) و(المجالس والمسايرات)؛ في حين لم يكن للشعر الذي صدر متصلاً بهذه الفترة كبير شأن، وخاصة ما ورد للإيادي وسهل بن ابراهيم الوراق، إلا ما كان من شعر (ابن هانئ الاندلسي) الذي اشتهر وذاع، مما جعل المؤلف يخصص له فصلاً مستقلاً هو الفصل الخامس من الكتاب، حيث حاول أن يوجد ألواناً من

التشابه بين ابن هانئ والمتنبي، سواء من حيث الطموح أو من حيث البيئة الحافزة إلى التطلع؛ ليتحدث بعد ذلك عن اتصال الشاعر الأندلسي بجوهر مولى المعز ومدحه إياه، وكان يقود جيش الدولة لإخماد الفتن الناشئة في المغرب ؛ ثم ليتحدث عن مدح ابن هانئ لولاة الزاب، وخاصة جعفر بن على ابن حمدون الجذامي وأخاه يحيى وابنه ابراهيم. إلا أنه لم يلبث أن انتقل إلى افريقية ليصبح شاعر المعز وشاعر الخلافة الفاطمية؛ مما أثار عليه الشعراء الذين ما كانوا يستطيعون منافسته، فامتلأت قلوبهم بالقلق والخشية والرغبة في النيل منه والغض من شعره. واستمر ابن هانئ يبدع في المعز قصائد تنسمت جو التشيع، فانفتح لها به عالم حلقت فيه ودومت في آفاقه، والتقت فيه نوازع الشاعر القديمة الكامنة بما يموج به هذا الجو من عقائد وأوهام وأخيلة، واستطاعت أن تحقق فيه إبداعها في الخلق والتوليد والتوشية والمبالغة، على حد قول المؤلف الذي يعزو إيغال ابن هانئ في هذا السبيل المذهبي إلى المنافسة التي كانت بينه وبين معاصريه من شعراء البلاط.

وكان الشاعر في مدائحه يستحث المعز على أن يولي وجهه نحو المشرق، باعتباره مهبط الوحي ومهد النبوة والرسالة؛ ومنه انبعثت الإمامة وفيه ثارت حولها الخصومة، وتعبيراً عن الرغبة الكامنة في نفوس الشيعة. وهذا ما حدا بالمؤلف إلى أن يعقد فصلاً عن (دور ابن هانئ في انتقال الدولة العبيدية إلى مصر)، بدأه باستعراض تحرك الدولة في بحر الروم، وما كان له من انتصارات خلدها الشاعر في قصائد أشاد فيها بالمعز وأسطوله، على نحو يقربها من سيفيات المتنبي. وفيها عبر عن رغبته في أن يتجه المعز إلى المشرق وإلى مصر، خاصة بعد أن مات كافور. وقد استعد فعلاً لتحقيق هذه الرغبة بجيش

ضخم قاده مولاه جوهر، وخرج المعز لتوديعه؛ مما أتاح للشاعر مجالا للوصف والمدح، ولتحقيق ما يمتلئ به قلبه ويتطلع إليه المعز من نفوذ واسع. وهي مشاعر ستزيد تبلورا بعد فتح مصر وانتقال المعز إليها، وإن لم يتمكن ابن هانئ من اللحاق به لان الأجل وافاه.

ويأتي بعد هذا الفصل السابع والأخير عن (التشيع في المغرب بعد انتقال الدولة العبيدية إلى مصر). وفيه تناول المؤلف ماآل إليه المغرب العربي بعد رحيل المعز إلى مصر وإنابته عنه بلكين بن زيري. وكان أقصى ما يرجوه وهو يغادر افريقية أن تظل تابعة له ومعترفة به، غير طامع في صبغتها الشيعية. أما سائر المغرب، فهو يعلم ما يتجاذبه من عصبيات وأطماع وقوى متصارعة. واستعرض المؤلف أخبار أربعة أمراء صنهاجيين من أبناء زيري ولوا افريقية، هم بلكين وابنه المنصور، ثم باديس بن المنصور والمعز بن باديس، لم يعرف عن واحد منهم أنه اعتبر نفسه مسؤولاً عن التشيع يسعى في نشره أو يدافع عنه أو يحامي عن البقية الباقية من أتباعه في افريقية.

ولدا الحديث عن الشعر رجح المؤلف أن يكون الشعراء المذهبيون قد صحبوا المعز في انتقاله إلى مصر ليكونوا في بطانته، وليكونوا في ذلك الوطن الجديد لسان حال الدولة. كما أن الدولة نفسها كانت من جانبها حريصة على استصحابهم ليكونوا مظهراً من مظاهر أبهتها، ولشعورها بالحاجة إليهم فيما هي بصدده من نشر الدعوة.

أما شعراء البلاط الصنهاجي، وأكبر انفعالهم هو بالجو السائد حولهم، فلم يكونوا يرون في أمراء بني زيري إلا ما اشتهروا به وما يحبون هم أن يمدحوا به، من شدة البأس وقوة العارضة ودحر العدو والحزم في ضبط الأمور

وإقرار الأمن. ومن أبرز هؤلاء الشعراء : ابراهيم بن القاسم الملقب بالرقيق وأبو الحسن علي بن أبي الرجال.

ولقد أتيح للرقيق أن يزور مصر، فلم يؤخذ في إقامته بشئ من النشاط المذهبي المتعلق بالدعوة والدولة والخليفة الحاكم بأمر الله، ولكن بما استهواه من مواطن الجمال والمتعة التي لم يلبث بعد عودته أن وصفها في قصيدة تنهض شاهداً — في رأي المؤلف — على أن تحول الدولة الشيعية إلى مصر كان إيذاناً بأنها فقدت العناصر الأصيلة التي كانت تريد أن تؤثر بها في الحياة حولها وتطبعها بطابعها.

وإذا كنت لا أخفي إعجابي بهذا البحث، وتقديري لمؤلفه الكريم وللمجهود الذي بذله في جمع مادته وتحليلها، على ما تتسم به من ندرة واضطراب، فإني أستسمحه في أن أعرب عن بعض الملاحظات التي استوقفتني وأنا أقرأ بحثه وأتتبع فصوله بشيء غير قليل من المتعة والفائدة.

فعلى الرغم من رجوع المؤلف إلى كثير من المصادر والمراجع، فإنه لم يكن يحيل إليها إلا في مرات قليلة، وأحيانا يشير إليها دون ضبط أو تحديد، مما يضعف الجانب التوثيقي في هذا البحث القيم، وهو جانب ما أحوج هذا النوع من الدراسات إليه.

وقد أثار انتباهي في الكتاب ما ذهب إليه المؤلف في الفصل الأول، حين اعتبر أن التشيع الذي دخل المغرب في أواخر القرن الثالث على يد العبيديين كان مسبوقا بتشيع دخل في أواخر القرن الثاني على يد الأدارسة.

وفي اعتقادي أن الأدارسة – على الرغم من الصراع الذي كان لهم مع العباسيين من موقع التشيع – كانوا ملتزمين في المغرب بخط السنة لم يحيدوا عنه، وفي نطاقه شجعوا انتشار المذهب المالكي واعتنقوه.

ولا شك أن أسباباً كثيرة ساعدت على ذلك، لعل أهمها إحساسهم بعدم استعداد المغاربة لتقبل المبادئ الشيعية، ولو في إطار المذهب الزيدي المعتدل الذي كان عليه المولى ادريس.

وهذه قضية تفضي بي إلى ملاحظة أخرى حول ما ذهب إليه المؤلف حين تحدث في الفصل الأخير عن انعدام الرجاء في الصبغة الشيعية لافريقية، فقد رأى أن المغرب تتجاذبه عصبيات وأطماع وقوى لا مكان فيها لعقيدة أو مذهب، وأن الملك فيه لمن كتبت له الغلبة.

وهذا رأي إن كان يستند إلى الواقع المضطرب يومئذ في المغرب، فإنه لا ينبغي أن يؤخذ هكذا بإطلاق . ذلك أنه أتيح للمغاربة مباشرة بعد الفتح الإسلامي أن يحتكوا بمختلف المذاهب، سواء في مجال التوحيد أو الفقه أو الصراع السياسي الدائر حول مشكل الخلافة، واختاروا لأسباب – ليس هذا مجال تفصيلها – أن يكونوا سنيين منتمين لـــ : (أهل السنة والجماعة) بكل ما يعطيه المصطلح في معناه العام والخاص؛ وزادوا فاختاروا داخل الاتجاه السني أن يكونوا مالكيين، واستطاعوا أن يحموا سنيتهم ومالكيتهم طوال التاريخ، ويحافظوا عليهما في أدق الظروف وأصعبها بالنسبة لاختيارهم، وخاصة في عهد الموحدين الذين أقاموا دولتهم القوية على مذهب يقوم في أهم دعائمه على مبادئ الشيعة الإمامية؛ مما عد امتحاناً لاتجاه المغاربة المذهبي، وهو امتحان انتصرت فيه سنيتهم ومالكيتهم كما هو معروف.

كذلك كنت أود لو أن المؤلف، وهو يستعرض ألواناً من الصراع المذهبي الذي عكسه الشعر، أبدى بعض الالتفات إلى مادار بين عبيد الله المهدي وبعض شعراء المغرب، على نحو ما تمثله الأبيات التي كان عبيد الله بعث بها يهدد المغاربة إن لم يدخلوا في طاعته، والتي قال منها على حد ما هو وارد في بيان ابن عذاري (ج 1 ص 178) ومسالك البكري (ص 95) :

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم وإن تعدلوا عني أرى قـتلكم عدلا

وأعلو بسيفي قاهراً لسيوفكـم وأدخلهـا عنواً وأملأهـا قتـلا

وقد رد عليه شاعر سعيد بن صالح صاحب إمارة النكور بأبيات واردة في نفس المصدر، قال فيها :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ولا عرف الرحمن من قولك الفضـلا

وما أنـت إلا كافـر ومنافـق تميـل مع الجهـال في السنة الـمثلى

وهمتنـا العليـا لديـن محمـد وقد جعل الرحمن همتك السـفلـى

مع الشيخ المكي الناصري
في فلسفة التشريع الإسلامي

تعقيب على العرض الذي قدمه الشيخ رحمه الله في الندوة التي نظمتها اكاديمية المملكة المغربية يوم الخميس 6 ربيع الثاني 1406 هـ = 19 دجنبر 1985م بقاعة بنهيمة بوزارة الخارجية، والتي دارت حول "فلسفة التشريع الإسلامي". نشر ضمن أعمال هذه الندوة ابتداء من ص 93، بعنوان "ملاحظات بصدد بعض الطروحات المتعلقة بالشريعة ". مطبوعات الأكاديمية –سلسلة الندوات– رقم 1(1987)

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة مدير الندوة

زملائي الكرام

حضرات السادة

في البداية أود أن أعرب عن كبير إعجابي بهذا البحث وعظيم تقديري له، وأن أقدم الثناء وافراً وجزيلاً لصاحبه زميلنا الكريم فضيلة الشيخ محمد المكي الناصري، لما بذل فيه من جهد؛ وهو جهد تجلى في محاولة استيعاب جوانب فلسفة التشريع الإسلامي من منظور يجمع بين الأصالة والتفتح. وما أحوجنا في هذه المرحلة إلى الجمع بين الأمرين. وأظنني في غنى عن التنويه بالمكانة العلمية للزميل الفاضل وأهليته ليتناول بدقة وعمق مثل هذا الموضوع الحيوي الشائق والشائك في نفس الآن.

وليسمح لي حضرة الزميل أن أتبادل الرأي وإياه في بعض النقط التي استوقفتني في عرضه القيم، والتي حثتني على التأمل والتساءل؛ وما إخالها أو غيرها إلا استوقفت إخوة آخرين من الذين قرأوا هذا البحث وأفادوا منه، ووقفوا عند جوانب منه يغنونها بالنقاش. وقد استمعنا في جلسة الصباح إلى تدخلات جيدة قدمها أساتذة أجلاء، ومازلنا نستمع وسنستمع إلى تدخلات أخرى في هذه الجلسة المسائية.

والنقط التي أود طرحها أربعة :

الأولى : تتعلق بمصطلح "حكماء الشريعة". فقد أعطاه الباحث مفهوماً غير دقيق، هو الوارد في أول سطر من عرضه حيث يعتبرهم "نخبة من فحول النظار وكبار المفكرين". لي هنا جملة تساؤلات حول ما يعني بهم :

1 – هل يعني بهم فلاسفة الإسلام ؟ وهو ما يظهر عنده في بعض الأحيان، وكأنه يحاول أن ينسجم مع سياق الموضوع الذي يحمل عنوان (فلسفة التشريع الإسلامي).

2 – أم هل يعني بهم الفقهاء والأصوليين كما تقتضي طبيعة الموضوع الذي هو التشريع ؟

3 – أم هل يقصد إلى معنى أعم يشمل كل الشريعة ؟ لا سيما وهو يقول أثناء حديثه عن أعمالهم في ص 2 : "إنها ليست من قبيل الأبحاث المتخصصة في الفقه والأصول، إذ أنها أعم من ذلك وأشمل، فهي لا تخص جانباً دون جانب ولا باباً دون باب من جوانب الشريعة وأبوابها، وإنما هي ذات طابع عام ينطبق على عموم الشريعة ومجموعها...". ولعلنا في غير حاجة إلى أن نذكر في هذا المجال بأن الشريعة هي مجموع أحكام الله أو هي الدين عينه. يقول الله تعالى : "ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون" (الجاثية 17).

4 – بل إننا نجد العرض في نفس الفقرة المشار إليها – أي في ص 2 – يخرج الفقهاء وعلماء الأصول، خاصة حين يقول : " وإفادة لبقية العلماء، خصوصاً الفقهاء منهم والأصوليين، بادر حكماء الشريعة إلى...".

والحق أني كنت أود لو أن الزميل الكريم استعمل مصطلحاً آخر غير (حكماء الشريعة)، وليكن مصطلح الفقهاء أو رجال الشريعة أو علماء الإسلام بإطلاق. ثم إننا حين نتأمل العرض نجده يستعمل "الشريعة"، سواء مضافة إليها كلمة "الحكماء" أو غير مضافة، بمعنى الفقه أو هو يقصد بها الفقه وأحكامه، أو هو يعتبر الفقه وأحكامه جزءاً منها، بدليل حديثه في ص 34 عن كليات الشريعة وجزئيائها مما يدخل في نطاق الأحكام. وربما كان يستحسن تحديد المصطلح والتفريق بين ما هو شريعة وما هو فقه، أو على الأقل توضيحه بالنسبة للفقه. ولعل الفرق بينهما - فيما أظن - كامن في كون الشريعة تمثل الأصول الثابتة والأحكام القطعية الواردة في القرآن والسنة، وفي كون الفقه يمثل مجموع القوانين التي قامت على الاجتهاد والتفسير والتحليل، مع استيحائها من الشريعة واعتمادها على ما تقدمه من نصوص. وفي اعتقادي أن هذا التفريق أساسي في النظر إلى شؤون المسلمين، ذلكم أن ما هو شريعة — أي نصوص ثابتة وأحكام قطعية- لا مجال فيه لأي اجتهاد أو مراجعة، في حين أن ما هو فقه فالمجال فيه متسع للاجتهاد والمراجعة، انطلاقاً من فهم جديد للشريعة لتناسب كل زمان ومكان. وبهذا التفريق وحده نستطيع أن نوافق صاحب العرض على ما استنتجه من كون الشريعة لا تتعرض للتغيير والتبديل، طالما أنها متفقة مع الفطرة.

النقطة الثانية : أن الزميل الكريم أقام بحثه على ربط الشريعة بالفطرة والمصلحة، متتبعاً مجموعة من مظاهر هذا الربط. ذلك أمر جيد ينسجم مع قول الله عز وجل "فأقـم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيـم، ولكـن أكثر الناس لا يعلمون" (الروم 29).

وأثناء ذلك تحدث عن حكم الأحكام الشرعية وعللها، مركزاً على بعض صيغ التعليل، كلام التعليل وباء السببية (ص6). ثم تحدث عن منهج العلماء في الاستدلال على التعليل، فتناول الاستقراء (ص 9) لينتقل بعده إلى الحديث عن المصلحة باعتبارها هدفاً (نفس الصفحة)، فاستعرض معاييرها التي يسترشد بها في مختلف حالاتها، أي حالات المصلحة (ص 15).

عندي هنا بعض الملاحظات الصغيرة، لعلها أربعة كذلك :

1 — أن العلة من حيث إنها تعني الكشف عن الحكمة من التكليف، أي إبراز المصلحة أو المفسدة، فإنها لا تكون دائما مبررة بسبب ظاهر وبأداة تعليلية تظهر هذا السبب؛ ولكنها قد تعتمد في بعض أحوال التكليف على وصف هذا التكليف بما يكون مظنة وجود الحكمة كما يقول الأصوليون.

ومن الأمثلة على ذلك قصر الصلاة بالنسبة للمسافر، وحكمته درء المشقة، هذه المشقة التي تنتج عن السفر، مما يجعل السفر في النهاية سبباً أو علة لترخيص القصر.

2 — التركيز على التعليل للأحكام الشرعية يدخل في نمط معين من الأحكام، ذلكم أن الأحكام، أو بالأحرى الحكم الشرعي من حيث هو — وكما حلله الفقهاء وعلماء الأصول خاصة — ينقسم إلى نوعين :

الأول : حكم تكليفي، وهو ما يدعو إلى فعل أو ينهى عنه أو يخير بين أمرين. الأمثلة كثيرة، نذكر منها أداء الصلاة، والنهي عن أكل مال اليتيم، والتخيير في مسألة زيارة القبور.. من هنا كان الواجب والمندوب والمباح والحرام والمكروه، وكانت الرخصة كذلك.

الثاني : حكم وضعي، وهو الذي يربط فيه الشارع بين أمرين يجعل أحدهما سبباً أو شرطاً مانعاً. وقد بدالي أن على هذا الحكم - أو بالأحرى على وسائل تعليله - وقع تركيز العرض.

3 — ان ربط التشريع وأحكامه بالفطرة والمصلحة التي يقبلها العقل يدعو إلى التساءل عن هذا العقل... أين هو ؟ وما هو دوره الفعلي ؟ أي التساؤل عما يراه العقل حسناً أو قبيحاً ؟ وبالتالي : ارتباط الشريعة بطلب الحسن وترك القبيح، وكيف ؟ هل بحسب ما يدركه العقل ؟ وفي هذه الحال، فإن الناس يثابون ويعاقبون بحسب ما يدركون. أم أن الشريعة مترهة عن طلب القبيح وترك الحسن، فلا يتدخل إدراك العقل في ذلك، لاسيما وأن هذا الإدراك العقلي قد لا يتسنى لجميع الناس؛ دون أن ننسى أن بعض التشريعات يخفى حسنها أو الهدف منها.

ونود هنا أن نقرأ قول الله تعالى في سورة الإسراء : "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً"(الآية 15)، وكذا قوله عز وجل في سورة النساء (الآية 164)، معللاً لبعث الرسل : "رسلا مبشرين ومنذرين ليلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل".

ولعلنا في غير حاجة — ونحن نثير هذا السياق — إلى الدخول في تفاصيل الحسن والقبح من حيث ارتباطهما بالعقل، سواء أعطينا للحسن صفة الكمال في مقابل صفة النقص للقبح، أو أعطيناه معنى الملاءمة للطبع في مقابل عدم ملاءمته أو نفور الطبع منه، دون أن نبعد علاقة الحسن بالمدح والثواب وكذا علاقة القبح بالذم والعقاب؛ مع ما يمكن أن يطرح حول اختصاص العقل أو الشرع أو هما معاً بإدراك ما يمدح أو يذم، على حد ما ذكرت من قبل.

وربما أمكننا من مثل هذه النقطة أن ننطلق إلى مناقشات عقلية نظرية تمس العقيدة أكثر مما تمس الفقه. قد يبدو هذا الجانب بعيداً عن الموضوع الذي أود أن أعود إليه من هذه الزاوية، زاوية العقل، لأقرر أمرين اثنين :

الأول : أن معظم الأحكام - إن لم أقل جميع الأحكام في غير العبادات- معللة بما يقبله العقل.

الثاني : أن الشريعة لا تتعارض مع العقل، ولا ينبغي أن تتعارض معه. وقد سبق للعلماء أن تناولوا هذه القضية، فانتهوا إلى إثبات ذلك من وجوه :

أ — أن مسايرة الشريعة للعقل هي التي تسمح بتلقي التكاليف وإقرارها.

ب — أن هذه المسايرة هي التي تجعل تلك التكاليف قابلة للتطبيق في مجال العمل والتنفيذ.

ج — معروف أن التكليف مرتبط بوجود العقل، ومتى فقد العقل ارتفع التكليف.

وقد اعترض البعض على هذه الحقيقة — وهي مطابقة الشريعة للعقل — بوجود أشياء خارجة عن ضبط العقل، كفواتح السور التي لا يعلمها إلا الله، وكان جواب العلماء أن هذا أمر لا يتعلق بتكليف على أي حال. كذلك اعترض بما في الشريعة من متشابه؛ والحق أنه على الرغم من أنه عد من الخارج عن مقتضى العقل، فهو ليس كذلك، بدليل اللجوء في إدراكه إلى التأويل، وهو من صميم عمل العقل.

4 - من هنا أصل في هذه النقطة الثانية إلى ملاحظة رابعة تجعلني أعتبر أن ما ورد في العرض يعبر عن روح فلسفة التشريع الإسلامي، هذه الفلسفة

التي ذهب العرض إلى أنها مجموع النتائج التي توصل إليها حكماء الشريعة... (ص 3). في حين أن الفلسفة – ولا أعطيها هنا أي مدلول يربطها بالشك أو يقربها منه – هي مبادئ وأصول ورؤية وأهداف وأدوات، أي أنها منهج، باعتبار المنهج منظومة متكاملة تبدأ من الوعي وتنتهي إلى وسائل البحث والتفكير. وهذا يعني أنها ليست مجرد نتائج. وعليه يبقى السؤال مطروحاً حول هذه الفلسفة، أي حول أدواتها ووسائلها الإجرائية، أعني حول منهجها؛ أقصد منهج علماء الشريعة في استنباط الأحكام، وكذا في البرهنة والاحتجاج. ونحن حين نبحث فيه، نجد أنه منهج عملي يبتعد عن التغييب والتجريد، ويسعى إلى إشباع الحاجة وتحقيق المصلحة. ونقطة الانطلاق فيه أنه يقوم على منطق لايهدف إلى تصوير الماهية على غرار المنطق الأرسطي، ولكنه يهدف إلى معرفة الشيء على ما هو عليه، للوصول إلى كنهه وحقيقته. ثم هو يقوم على الاستدلال الذي يتوسل بالعقل ويصطنع القياس، أي قياس الغائب على الشاهد أو المجهول على المعلوم، باعتباره – أي باعتباره القياس – يؤدي إلى الحقيقة واليقين، طالما أنه يعتمد الاستقراء والعلية. وقد تناول العرض جانب التعليل في الأحكام بما هو كاف كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

النقطة الثالثة : تتعلق بكيفية معالجة القضايا الطارئة، وفيها تحدث العرض (ص 36) عن القياس والاستحسان والاستصلاح وسد الذرائع، ولم يتحدث عن عنصرين اثنين هما العرف والاستصحاب :

1 – ففيما يتعلق بالعرف، لا يخفى أن المالكية والأحناف قد اعتمدوه كأحد أصول الاستنباط فيما ليس فيه نص قطعي، فقالوا : "إن الثابت بالعرف ثابت بدليل شرعي"، على أساس أن "مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله

حسن"، لا فرق في ذلك بين العرف العام الذي يكون منتشرا في جميع البلاد الإسلامية، وبين العرف الخاص الذي يكون سائداً في إقليم معين.

وكذلك قال بالعرف الحنابلة، إذا لم يتعارض مع نص شرعي. والشافعية أقرب إلى هذا الرأي، وإن بدا ظاهراً أنهم يمنعون العمل بالعرف . نعم، لقد أشار العرض (ص 33) إلى العرف والعادة كإحدى الحالات التي يسمح فيها بالتغيير والتبديل، بالنسبة لنصوص الشريعة، متى تغير العرف وتبدلت العادة.

ومن المعروف أن العلماء قالوا في شروط الاجتهاد بضرورة معرفة عادات الناس. وقد اعتبر غير قليل من العلماء أن العرف نوع من الإجماع، وإن كان الفرق بينهما غير خاف، من حيث إن الإجماع يقتضي الاستناد إلى دليل شرعي كما يقتضي اتفاق علماء الأمة.

2 — أما فيما يتعلق بالاستصحاب، فنعرف أنه يعني بقاء الأمر على ما كان عليه، ما لم يوجد ما يغيره — نفياً وإثباتاً— ؛ مثلا : الأصل في الأطعمة الإباحة، فتبقى الإباحة إلى أن ينهض دليل التحريم. من ذلك تحريم الخمر، فهي محرمة ما لم يحدث ما يغير الحكم، كحدوث تغيير في أوصافها كزوال صفة الإسكار. ويعتبر الاستصحاب حجة عند المالكية والحنابلة، وحتى عند بعض علماء الشافعية والأحناف.

النقطة الرابعة والأخيرة : تتصل بما استخلصه العرض في نتيجته التي انتهى إليها من "أن الشريعة الإسلامية قادرة على تلبية حاجات المسلمين ومسايرة تطورهم في كل عصر، وأنها صالحة لكل زمان ومكان بفضل أصولها ومبادئها العامة الثابتة والدائمة التي تلهمهم الحلول المناسبة لعلاج مشاكلهم في

كل وقت، وبفضل فروعها وجزئياتها التي يمكن أن ينسجوا على منوالها ويشرعوا من الأحكام ما هو على مثالها، وبفضل مناهج الاستنباط والاجتهاد القويمة والسليمة ..." كذا ورد في ص 37.

هذا كلام عام كان ينبغي فيه بعض الضبط والتحديد، ولا سيما في نقطتين اثنتين منه : الاجتهاد من جهة، والحاجات المستجدة من جهة ثانية.

1 – أما الاجتهاد فلا اختلاف في أنه ينبغي فتح بابه لاستنباط الأحكام فيما جد في حياة المسلمين أو تغير عما كان عليه. لي في هذا المجال أسئلة أربعة:

الأول : يتعلق بالاجتهاد في صلته بهذه الفلسفة ومدى صلاحيتها وإمكان استمرارها الآن، والمذاهب مستقرة. هنا تطرح قضيتان :

أ- هل يمكن فتح باب الاجتهاد في مفهومه المطلق، أي ولو بمخالفة المذاهب أو بعضها ؟

ب – أم هل يقتصر الأمر على استنباط بعض الأحكام الجزئية في نطاق المذاهب، لإثبات صحتها وسلامتها؟ وبعبارة أخرى، هنا تطرح قضية المذاهب ومدى إقرارها في المرحلة الراهنة.

الثاني : ما هو مجال الاجتهاد ؟ أي ما هو المجال المباح فيه الاجتهاد ؟ معروف أن العلماء تحدثوا عن المجتهد فيه، فقالوا "إنه كل حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي". ولكننا الآن بدأنا نسمع أصواتاً تنادي مثلاً بضرورة إعادة النظر في الوصايا والفرائض، ولا سيما فيما يتعلق بنصيب المرأة بالقياس إلى نصيب الرجل، مع أن النص القرآني واضح في ذلك.

الثالث : متى يفتح باب الاجتهاد ؟ هل إذا لم يوجد حكم في أي من المذاهب المعتبرة (وهي المذاهب الأربعة وكذلك المذهب الظاهري والزيدي والإمامي) ؟ أم أن على أصحاب كل مذهب أن يجتهدوا فيما لا يجدون له حكماً في مذهبهم ؟

الرابع : لمن يفتح باب الاجتهاد ؟

أ – هل يفتح لكل من توافرت له شروط الاجتهاد ولو كان فرداً ؟

ب – هل يفتح لجماعة فقهاء المذهب ؟

ج – أم هل يفتح بشكل جماعي واسع يشمل جميع المذاهب؟

2 – وأما الحاجات المستجدة، فوصلت مرحلة غدت بها مشاكل يعانيها المسلمون اليوم، وهي تحتاج إلى حل يكون فاصلاً فيها وصالحاً للتعميم، وليس إلى مجرد محاولة أو تجريب على حد ما هو حادث الآن. وسأكتفي من تلك الحاجات بأربعة منه :

الأولى : المعاملات البنكية المختلفة من حسابات وقروض وما إليها مما يقوم على الفوائد، وضرورة تبيين ما هو من هذه الفوائد جائز و ما هو ربا محرم.

الثانية : أنواع التأمين الذي تمارسه الشركات ويمارسه الأفراد كذلك، ولا سيما التأمين على الحوادث وعلى الحياة، وما إلى ذلك مما أصبح عاماً أو كاد.

الثالثة : تحديد النسل أو تنظيمه أو ترشيده، وما إلى هذه وتلك من تسميات تقصد إلى مدلول واحد، ولجوء البعض في تحقيقه إلى وسائل غير مشروعة كالإجهاض.

الرابعة : قضية تحديد أوائل الشهور القمرية وتوحيدها وما يترتب عنها كالأعياد، وإمكان اللجوء في ذلك إلى الحساب أو رؤية واحدة يتبعها جميع المسلمين.

سيدي الرئيس

أخي الكبير فضيلة الشيخ

حضرات الزملاء الكرام

أيها السادة

هذه مجرد تأملات وتساؤلات طرحتها على نفسي، وأنا أقرأ بإمعان هذا البحث الجيد الرصين، وقد رأيت أن في إثارتها ما يمكن أن يوسع آفاق المنظور الذي كتب به. وما أحسب إلا أنها تزيد في إبراز قيمته، بل ما أحسب قيمة أي بحث إلا كامنة فيما يثيره قراءه وناقدوه.

وشكراً لكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

مع الأستاذ محمد عزيز الحبابي

في مسألة :

الألوهية في الفلسفة وعلم الكلام

تعقيب على العرض الذي قدمه الأستاذ الدكتور محمد عزيز الحبابي في ندوة "الألوهية في الفلسفة وعلم الكلام"، وكانت اكاديمية المملكة المغربية قد نظمتها في قاعة بنهيمة بوزارة الخارجية يوم الخميس 17 جمادى الثانية 1406 هـ = 27 فبراير 1986م. (لم تطبع أعمال هذه الندوة). وقدتوفي السيد الحبابي رحمه الله يوم 4 ربيع الأول 1414 هـ الموافق 23 غشت 1993م.

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدي مدير الندوة

زملائي الكرام

حضرات السيدات والسادة

أرجو منك – أخي الأستاذ الدكتور محمد عزيز الحبابي – أن تعذرني إن لم أبدأ تدخلي بما ينبغي من الثناء عليك وعلى عرضك، فأنت بما بذلت من جهد في هذه الصحائف المائة العامرة، في غنى عن أن تزجى لك عبارات الشكر والتقدير التي ما أظن الوقت المخصص يسعف في تقديمها على الوجه المستحق.

ومن ثم أستسمحك في أن أدخل مباشرة لهذا العرض الذي أثارت قراءته الممتعة والمفيدة في ذهني كثيرا من الملاحظات أرجو أن يتسع لها صدرك؛ وسأعرضها بسرعة وإيجاز حتى لا أتجاوز الوقت المحدد للمناقشة؛ على الرغم مما قد يكون في ذلك من إخلال بما أريد تناوله.

وأبدأ بملاحظة منهجية بدت لي لأول وهلة ومن مجرد قراءة عنوان العرض، وهو : "الألوهية في الفلسفة وعلم الكلام".

ذلكم أن الموضوع جاء واسعاً، لأنه يطرح قضية الألوهية أولاً، ويطرحها بعد ذلك في اتجاهين عريضين وربما متباعدين، هما الفلسفة وعلم الكلام.

وقفت عند موضوع الألوهية وتساءلت : ماذا تعني به ؟ هل تعني به عرض قضية وجود الله ؟

أم تعني تناول مختلف الموضوعات التي أثيرت وتثار حول الألوهية، من وجود وذات وصفات وأفعال وغير ذلك؟

ثم .. هذان الاتجاهان : الفلسفة وعلم الكلام، كل منهما يحتاج إلى تحديد :

1 – علم الكلام ... في أية مرحلة من مراحله ؟

هل في بدايات ظهور التسأولات أو المناقشات الكلامية على يد الجبريين والقدريين ؟ أم على يد المعتزلة الذين بلوروا علم الكلام في قضايا مضبوطة محددة ؟ أم عند الأشاعرة الذين دخلوا مجال علم الكلام عند تناولهم لنفس القضايا، ولو في نطاق الرد على آراء المعتزلة ؟

2 – والفلسفة ... أية فلسفة يقصد إليها العرض ؟

أهي الفلسفة الشرقية القديمة المتسمة في معظمها بالغنوصية ؟

أهي الفلسفة اليونانية ؟ أم الفلسفة الإسلامية التي تأثرت بالفكر اليوناني؟ أم فلسفة المتصوفة الذين ركبوا موجة التفكير الفلسفي، مبتعدين قليلاً أو كثيراً عن خط التصوف السني ؟

أم الفلسفة المسيحية ؟ أم هي الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة ؟

لماذا طرحت على نفسي هذه الملاحظة المنهجية لأول وهلة وأنا أقرأ العنوان ؟

لأني كنت أخشى أن يحاول العرض مس جميع هذه العناصر، في غير حصر ولا تحديد، وكنت أرجو ألا يقع العرض في ذلك حتى لا يضيع الموضوع —وهو في غاية الأهمية — وسط شتات من القضايا متعددة ومتنوعة. ولكني عند القراءة، وجدت أن العرض قد وقع بالفعل في خضم واسع وعميق لم يكن الزميل الكريم يواجهه ويحاول اجتيازه على النحو الذي يسعفه ويحقق سلامته.

ويبدو لي أن صاحب العرض كان في غمار هذه القضية أو القضايا الكبيرة، يسبح بأفكار لم تخل من شطحات؛ بالإضافة إلى أنها جاءت متناثرة وغير مستندة في الغالب إلى ما يدعم أو يقنع، أو يساعد على متابعة السياق الذي أراده الزميل العزيز، والذي وضع فيه أقسام العرض الأربعة التي جاءت منفصلة أو تكاد.

ويبدو لي أن شخصية الحبابي الفيلسوف ظهرت طاغية بما قدم من تأملات وانطباعات حول الموضوعات التي تناولها، وذلكم لا شك من صميم حقه.

بعد هذه الملاحظة الأولى أستسمح الزميل الكريم في أن أنظر معه بعض ما جاء في العرض من خلال أقسامه الأربعة :

في القسم الأول الذي جعل له عنواناً هو "الألوهية في تطورها التاريخي"، تناول مجموعة من الأفكار المتعلقة بوجود الله، كنت أود لو أنه وقف عندها، ولو أنه أثار من خلالها مفهوم الألوهية عند المتكلمين وكذا عند الفلاسفة اليونان أو المسلمين. بل بدا لي أن العرض في الصحائف الثلاثة

والثلاثين التي شكلت هذا القسم لم يشر إلى المتكلمين إلا في جملة قصيرة هي الواردة عنده أسفل الصحيفة الحادية عشرة، وفيها يقول : "عارض المتكلمون تلك الاتجاهات اللاعقلانية". ثم إنه في هذا القسم لم يذكر أرسطو إلا في جملة عابرة واردة في الصحيفة الثامنة والعشرين، تتعلق بنظريته في علم الفلك، وإن أشار إليه في قسم آخر (ص 71) حين ذكر الجوهر الدائم.

لماذا ألفت الانتباه إلى أرسطو وإلى المتكلمين ؟

لأن المتكلمين كان لهم مفهوم للألوهية، ولأن أرسطو ومن إليه من الفلاسفة اليونان كان لهم مفهوم كذلك. وكان ينبغي تناول هذه المفاهيم وغيرها مما نجده عند فلاسفة المسلمين.

فمعروف أن أرسطو اعتبر الله المحرك الأول، وإن جعله لا يتحرك، أي لا يعلم ولا يتابع الحركة التي أطلقها في البداية.

ومعروف كذلك أن المتكلمين أعطوا للألوهية مفهوما من حيث إن الله واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً على الحد الذي يستحقه؛ وهو بذلك غير مشبه، أي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. ومن ثم فهو ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة، ولا لحم ولا دم، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن (وعدم التحرك هنا ليس كما فهمه أرسطو وقد مر). ثم إنه ليس بذي أبعاض ولا أجزاء ولا جوارح وأعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق

وتحت، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات، وليس بمحدود ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار ولا تدركه الحواس، ولا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه، ولا تجري عليه الآفات ولا تحل به العاهات ... وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له. لم يزل سابقاً متقدماً للمحدثات، موجوداً قبل المخلوقات، ولم يزل عالماً قادراً حياً لا كالعلماء القادرين الأحياء. وانه القديم وحده ولا قديم سواه، لا شريك له في ملكه ولا وزير له في سلطانه ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سابق، لا يجوز عليه اجترار المنافع ولا تلحقه المضار، ولا يناله السرور واللذات، ولا يصل إليه الأذى والآلام. ليس بذي غاية تتناهى، ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص. تقدس عن ملامسة النساء وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء. وبعبارة أخرى، فهو كما قال الناظم في بيته الجامع لمختلف أوصاف السلب التي استبعدوها عن الذات الإلهية :

وكل ما يخطر قل ببالـــك   فربنـــا مخالـــف لذلـــك

ومعروف بعد هذا أن فلاسفة المسلمين – أو بعضهم على الأقل – كان لهم رأي يكاد يكون قريباً من هذا الذي عبر عنه المتكلمون. فالكندي مثلاً يعتبره الفاعل الحق الذي يقول عن خلقه أنه تأييس من ليس، أي خلق من عدم، دون أن يتأثر بأي جنس من أجناس التأثر. وهذا يعني أنه فاعل الكل، وأنه لا ينفعل البتة، وأنه بذلك العلة الأولى لجميع المفعولات.

لي كذلك على هذا القسم الأول بعض الملاحظات السريعة التي أود الإشارة إليها :

في ص 8 ورد أن الإيمان بإله واحد كسب إنساني متأخر جداً عن التعدد والعبادات المجسدة في الأشياء.

هذا رأي يحتاج إلى مراجعة ومناقشة وإن ادعته المدرسة السوسيولوجية، ذلكم أن التوحيد كان دائما موجوداً وإن بين فئة قليلة، وكان بهذا يصارع التعدد وما إليه من ألوان المعتقدات الأخرى.

في ص 11 جاء أن طائفة المرجئة عرفت الإيمان بأنه اعتقاد باطني راسخ في الأعماق. وقد كرر هذه العبارة في ص 74.

والحقيقة أن هذه الطائفة انطلقت من موقف سياسي طرحته ظروف الحكم الأموي وملابساته التي أفرزتها الخلافات بين المسلمين. ومال هذا الموقف إلى المهادنة والاستسلام للأمر الواقع، مما جعل المرجئة يفرقون بين الإيمان والعمل، ويقولون – عكس الخوارج – بأن مرتكب الكبيرة مومن وأن أمره متروك لله، لينتهوا إلى أن الأمويين مومنون. وبذلك أرجأوا العمل وأجلوا الحكم فيه وأخرجوه من دائرة الإيمان.

في نفس الصحيفة (11) وردت جملة عابرة عن الصوفية أصحاب وحدة الوجود والحلول : الحلاج وابن الفارض وابن عربي.

وعندي أن الأمر ليس بهذا التعميم، ولكنه يحتاج إلى فصل بين اتجاهات ثلاثة :

الأول : الحلول وما يتبعه من اتحاد، وهو الذي قال به الحلاج حين اعتبر أن ذات الإلاه تحل في الإنسان فتصبح ذات الصوفي وذات الحق ذاتاً واحدة.

الثاني : وحدة الوجود، وهي التي نادى بها محيى الدين بن عربي، وتعتبر ناتجة عن نظرية الحلول؛ وتذهب إلى أن الكمال يتحقق في تمازج الطبيعتين الإلهية والبشرية في وحدة، وتذهب إلى مفهوم للألوهية يجعلها مجموع ما ظهر وما بطن ولا شئ سوى ذلك.

أما الاتجاه الثالث : - والذي قال به عمر بن الفارض – فهو وحدة الشهود التي تختلف عن وحدة الوجود، إذ تعني أن الصوفي في مرحلة قصوى من سلوكه ومجاهدته يصل إلى مرحلة ذوقية هي حال فناء، أي أنه يفنى عن ذاته فناء تاماً ويبقى بربه فلا يشاهد في الوجود غيره.

في ص 13 يتحدث العرض عن نظرية الفيض من حيث هي تعلل خلق العالم فيعزوها إلى ابن سينا.

والحق أنه مسبوق فيها بالفارابي، وبينهما نحو مائة عام، إذ توفي الأول في عام 428 هـ في حين توفي الثاني سنة 339 هـ.

وهي نظرية يرجع أصلها إلى أفلوطين الذي اعتبر الخلق فيضاً عن الله.

وكنت أنتظر من العرض أن يثير مفهوم هذه النظرية للألوهية، ذلكم أن الفارابي ذهب إلى أن ماهية الله تقتضي أن يكون تاماً واجب الوجود، مكتفياً بذاته أزلياً غير معلول، ومتميزاً عن جميع الموجودات بوحدة ذاته التي هي علة وجوده. ومن ثم فهو عنده متصف لزوماً بالكمالات، ومنـزه عن المادة

والصورة والغاية، ولا يمكن — نتيجة ذلك — أن يكون إلا عقلاً أي أنه عقل خالص وعقل بالفعل. وهو جوهر معقول لذاته، بل هو عقل وعاقل ومعقول. وقد لجأ الفارابي إلى نظرية الفيض الأفلوطينية ليبرز العلاقة بين الله والموجودات، مما جعله يطرح قضية العقول العشرة كما هو معروف. وإذا كان الفارابي قد ذهب إلى أن توليد الموجودات عن الله يتم دون اختيار أو رغبة منه، وإنما بانبثاق تلقائي وفيض يصدر عنه، فإن ابن سينا يرى أن هذا التوليد مرتبط بإدراك ذاته.

في ص 14 ورد مصطلحا Déisme وThéisme، وشرحهما العرض بأن الأول يعني وجود الله بواسطة معطيات القدرات البشرية وحدها، في حين أن الثاني يسلم بوجود إلاه واحد مغاير للعالم.

هذا شرح - على أهميته - لا يخلو من غموض يحتاج إلى توضيح، فالديسم يعتمد على إثبات وجود الله بالأدلة الطبيعية والعقلية. أما التييسم فيعتمد في هذا الإثبات على العقل، وعلى النقل كذلك أي الوحي.

في ص 32 وفي آخر جملة من القسم الأول ورد كخاتمة له أن مأوى الإيمان هو القلب، فآمن ثم برهن، فليقتنع القلب أولاً عن طريق تجاربه المباشرة الوجودية، ثم فليجدّ العقل للبحث على الأدلة.

ولعل الأمر ليس بهذا القطع، ذلكم أنه لاجدال في أن القلب هو مأوى الإيمان وأن الإيمان ينطلق من التجربة القلبية، ولكن هذا يتعلق بنوع معين من الإيمان، أو بمرحلة منه فقط كإيمان العجائز والعوام. ولكن الإيمان في حالات كثيرة يأتي نتيجة الاقتناع العقلي والبرهنة. وأعتقد أن انطلاق الرؤية الإسلامية

للألوهية والإيمان بها هو الميدان الواقعي الطبيعي الذي تتجلى فيه ذات الله وقدرته، مما يفسر لنا إلحاح القرآن الكريم على لفت النظر إلى خلق الله وعظمة الكون والطبيعة، للوصول من ذلك إلى الإقرار بالله وقدرته، أي الوصول إلى الإيمان.

بعد هذا أنتقل للقسم الثاني من العرض، وهو المتعلق بالذات. وكما سبق أن قلت، فقد جاء هذا القسم منفصلاً عن الأول، مما اضطر الزميل الكريم إلى أن يبدأه بمقدمة يصل بها إلى الذات الإلهية. ولو انه تعرض في القسم الأول للمفهوم الألوهي عند علماء المسلمين والمتكلمين لأفضى به هذا المفهوم مباشرة إلى تناول قضية الذات.

ودون أن أتحدث عن القفزات التي جعلت العرض يستطرد للحديث عن الإنسانية والقيم والوطن والوحدة والعبث والرحمة وما إلى ذلك مما تعرض له أحوال الكائن البشري (من ص 43 إلى 47)، وهو كله – في نظري – مقحم على موضوع الذات الإلهية. ودون أن أتحدث كذلك عن الطرح التأملي الذي جعل العرض أثناء تناول الذات والصفات والآيات المتشابهة يدخل في متاهات وعرة حول إمكان إطلاق صفة "شخص" على الله. ودون أن أتحدث بعد هذا عن المبحث الذي أنهى به هذا القسم الثاني من العرض، والذي تناول فيه قضية خلق القرآن من زاوية الميل إلى الفصل فيها، بالتفريق بين ما هو كلام وما هو قول مما تطول مناقشته.

أقول : دون تتبع ما جاء في مباحث هذا القسم من أفكار بدت لي – على أهميتها – مشتتة، إذ بعدت بالعرض عن تناول موضوع الذات، يكفيني

أن أختصر القول من خلال ما ذهب إليه المعتزلة الأشاعرة وبعض الفلاسفة في هذا المضمار مما لم يشر إليه العرض.

فقد كان المعتزلة الأوائل متأثرين بالجبرية أو الجهمية في قولهم بنفي الصفات، مما نجده على لسان واصل بن عطاء الذي كان يقول إن من أثبت لله معنى أو صفة قديمة فقد أثبت إلهين. إلا أن المعتزلة لم يلبثوا أن طوروا هذا المفهوم – تحت تأثير الفكر الفلسفي لا شك والأفلاطوني الحديث منه خاصة – وميزوا بين نوعين من الصفات :

أولا : صفات ربطوها بالذات الإلهية وجعلوها قائمة بهذه الذات غير مستقلة عنها، واعتبروها من ثم قديمة؛ وهي صفات العلم والحياة والقدرة. وقالوا إن الله عالم بذاته لا بعلم، وحي بذاته لا بحياة، وقادر بذاته لا بقدرة. وذهبوا إلى أنها – أي هذه الصفات – لو كانت مستقلة عن الذات لشاركتها في القدم وبالتالي في الألوهية. وزادوا فقالوا إنها لو كانت مستقلة لاقتضت أن تكون زائدة ومن ثم مكتسبة، كالإنسان يكون جاهلا فيتعلم العلم فيصبح عالماً. وفي احتجاجهم كذلك لهذا الأمر قالوا – على حد رأي ابن الخياط – إنه لو كان تعالى عالماً بعلم، فإما أن يكون ذلك العلم قديما أو محدثا، ولا يمكن أن يكون قديما لأن هذا يوجب وجود اثنين قديمين، وهو قول فاسد. ولا يمكن أيضاً أن يكون علماً محدثاً لأنه لو كان كذلك يكون قد أحدثه الله في نفسه أو في غيره أولا في محل. فإن كان أحدثه في نفسه أصبح محلا للحوادث، وما كان محلا للحوادث فهو حادث، وهذا محال. وإذا أحدثه في غيره كان ذلك الغير عالما بما حله منه دونه، كما أن من حله اللون فهو المتلون

به دون غيره؛ وكما أن من حلته الحركة فهو المتحرك بها دون غيره؛ ولا يمكن أن يكون أحدثه لا في محل. فلا يبقى إلا حال واحد، وهو أن الله عالم بذاته.

على أن بعض علماء المعتزلة كالعلاف قال إن الله عالم بعلم وعلمه ذاته، وقادر بقدرة وقدرته ذاته، وحي بحياة وحياته ذاته، أي أن علم الله هو الله، وقدرته هي هو، وحياته هي هو.

ثانيا : صفات غير قائمة بذات الله وغير قديمة، فهي محدثة، أي حدثت بحدوث ظروف وملابسات اقتضت هذا الحدوث؛ وهي صفات الإرادة والسمع والبصر والكلام. ومن هنا جاء رأي المعتزلة في القرآن وأنه مخلوق، وسأعود إلى هذه النقطة.

أما الأشاعرة فتناولوا الصفات في علاقتها بالذات من خلال معادلة صعبة ودقيقة، حين أثبتوا الصفات من حيث أن الأفعال دالة عليها، واعتبروا أنه لا قسيم فيها لله ولا نظير، وأن الصفات زائدة على الذات وقائمة بها في نفس الوقت. ومن ثم قالوا إن الله عالم بعلم وقادر بقدرة ومريد بإرادة وحي بحياة، إلا أنهم خشية الوقوع في المحظور أو فيما يتنافى مع مفهومهم، زادوا فقالوا إنه لا يحق اعتبار الصفات هي الله حتى لا تنفى هذه الصفات، كما لا يحق اعتبار الصفات غير الله حتى لا تثبت الغيرية. وهذا ما جعل معادلتهم تذهب إلى أنه لا يقال : هي هو، ولا يقال هي غيره، لكي لا يقعوا في تعدد ينافي التوحيد. وعندهم أن القول بأن الله خالق لا يعني بقدرته وعلمه، ولكن يعني أنه على ذلك قادر وبه عالم، وأنه تولى ذلك بنفسه ولا شريك له في تدبيره وصنعه، لا أن قدرته وعلمه غيره ؛ بل أنه الواحد الذي لاشيء يماثله.

وإلى قريب من هذا الرأي أشار ابن رشد حين ذهب إلى أن ذاته التي يسمى لها صانعا ليست شيئا أكثر من علمه بالمصنوعات.

هنا – وتعليقاً على ما ورد في العرض من طرح قضية الصفات في علاقتها بأسماء الله تعالى –أود أن ألفت الانتباه إلى الموقف السلفي الذي كان للمهدي بن تومرت في قضية الصفات على الرغم من أشعريته. فقد أعطاها بعداً بسيطاً جعله يربطها بأسماء الله الحسنى، لا يجيز فيها أي اشتقاق أو قياس أو اصطلاح. فعنده أن أسماء الباري سبحانه موقوفة على إذنه، لا يسمى إلا بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه، لا يجوز القياس والاشتقاق والاصطلاح في أسمائه. يسمى المخلوق فقيها سخياً لعلمه وكرمه، ولا يقاس عليه الخالق سبحانه. ويسمى المخلوق رامياً قاتلاً لرميه وقتله، ولا يقاس عليه الخالق سبحانه. ويسمى المخلوق زيداً وعمراً يولد ليس له اسم فيصطلح على اسمه، وليس للمخلوق أن يتحكم على خالقه فيسميه بما لم يسم به نفسه في كتابه. ما نفاه عن نفسه في كتابه نفاه عنه، وما أثبته لنفسه أثبته له من غير تبديل ولا تكييف، يسميه بأسمائه الحسنى ويدعوه بها.

أما قضية خلق القرآن، فرأي المعتزلة فيها منسجم مع مذهبهم في الصفات. فطالما أنهم يعتبرون أن الكلام صفة محدثة يحدثها وقت الحاجة إليها، وبما أن القرآن كلام الله، فهو لذلك –أي القرآن– مخلوق غير قديم، بمعنى أنه ليس قائماً به تعالى، بل خارجاً عن ذاته. وكانوا لا شك يسعون بذلك أول الأمر إلى مخالفة النصارى الذين قالوا بقدم الكلمة أي المسيح، واستندوا إلى ذلك لتأليه عيسى بن مريم. واحتج المعتزلة لإثبات خلق القرآن بأدلة عقلية ونقلية متعددة، منها :

1 – كون الله جعله أي خلقه.

2 – ارتباط القرآن بظروف وملابسات طارئة مخلوقة.

3 –كون المخاطب به وهو سيدنا محمد صلى الله عليهم وسلم مخلوق.

4 – تضمنه أوامر موجهة لقوم محدثين هم المسلمون.

5 – اشتماله على قصص تتعلق بأمور محدثة.

6 – وروده محكما ومفصلاً مما يقتضي وجود من يحكمه ويفصله.

7 – نزوله، وكل مترل محدث.

8 – إحاطة اللوح المحفوظ به، ولا يحاط إلا بمخلوق.

وقد وقف الأشاعرة موقفاً شبيهاً بما وقفه ابن احنبل، فذهبوا إلى أن القرآن هو كلام الله في اللوح المحفوظ وفي صدور الذين أوتوا العلم. وهو مكتوب في المصاحف، ومحفوظ في الصدور، ومتلو بالألسنة، ومسموع في الحقيقة. وهو بذلك ليس ملفوظاً باللسان، لأن اللفظ في لغة العرب معناه الرمي. ومن ثم لم يجوز الأشعري القول بأن شيئا من القرآن مخلوق لأن القرآن بكماله غير مخلوق.

على أنه ينسب للأشعري القول بحدوث الألفاظ وقدم الكلام النفسي، إذ يفرق في القرآن بين ما هو معنى وما هو لفظ، أو ما هو كلام نفسي وكلام محدث، فيرى أن كلام النفس ليس بصوت ولا حرف، بل هو المعنى القائم المعبر عنه باللفظ، في حين أن الكلام المحدث حروف وأصوات. فالأول قائم بذاته لا يتغير بتغير العبارات ولا يختلف باختلاف الدلالات، وهو المقصود

بكلام الله حقيقة والموصوف بالقدم؛ والثاني أي المقروء والمكتوب فهو حادث ومخلوق.

حين ننظر في القسم الثالث المتعلق بالأفعال، نجد العرض يعود بسياق تأملي إلى طرح قضية الألوهية من جانب وجود الله وطبيعته وصفاته ومشيئته، ولا يتحدث عن الموضوع الأساسي إلا في فقرتين قصيرتين :

الأولى وردت في ص 75 حين قال متحدثاً عن رأي الأشاعرة إن الله يفعل ما يشاء، يعذب من يشاء ويعفو عمن يشاء متى شاء، فلا يمكن الاعتقاد بأنه يجب عليه كذا أو كذا مما يحدد من حريته وإرادته. كل الأفعال تخضع لقضائه وقدرته.

والفقرة الثانية – وهي أقصر من سابقتها وتقع في ص 76 – تقول إن الأطروحة الاعتزالية تدعي بأن الإنسان يخلق أفعاله. أما الأطروحة الأشعرية فتقول بالكسب (عطاء من الله).

هذا كلام ينبغي وضعه في سياقه المرتبط بأفعال الله تعالى من حيث هي دالة على عدله. فالعدل عند المعتزلة لا يخرج عن مقتضى العقل والحكمة والصواب، مما يجعله عدلاً مطلقاً، لأنه عز وجل – كما يقولون – لا يحب الشر والفساد، وهو بريئ من كل ذلك، ولا يخلق ولا يفعل إلا ما فيه مصلحة للعباد. ولو خلق الشر لتأثر به. ومن ثم فإن ما يلقاه الإنسان من ثواب أو عقاب إنما هو استحقاق على ما قدمت يداه بمحض حريته واختياره، لأن أفعاله من تصرفه وحادثة من جهته، باعتباره فاعلاً على وجه الحقيقة لا على جهة المجاز، وباعتبار الله تعالى قد منحه الاستطاعة التي هي أداة تحقيق الإرادة

والاختيار والتنفيذ بعد ذلك. وحيث انه يستحيل على الله أن يسوي بين المطيع والعاصي، فإنه من الواجب عليه عقلاً أن ينفذ وعده ووعيده. وهذا ما جعلهم يرفضون الشفاعة بالنسبة للفاسقين، لتعارضها في رأيهم مع ما يقتضيه الاستحقاق. إلا أنهم في الوقت الذي يرفضون الشفاعة بالنسبة للفاسقين ويرون إمكان حدوثها بالنسبة للمومنين حتى ترفع درجاتهم، يقولون باللطف الإلهي الذي يشمل الله به عباده عن طريق منح العقل للناس وبعث الرسل بالكتب والشرائع.

أما الأشاعرة فيرون أن العدل هو التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم، أي أن الله عادل من حيث هو يفعل ما يشاء ولا يفعل ما لا يشاء، دون أن تتأثر ذاته بما يخلقه، مما يجعله يخلق الظلم مثلاً دون أن يكون تعالى ظالما. ويرون أن قضية الثواب والعقاب ليست من المدركات العقلية التي توجب على الله أي التزام، لأنهم من باب التأدب لا يوجبون أي شيء على الله، ولأنهم يعتبرون أن عمل الإنسان لا يستحق هذا الوجوب. وهم بعد ذلك يقولون بإمكان الله أن يعكس الاستحقاق فيعذب المومن ويجازي الكافر، لأن إرادته مطلقة، وهو المالك في خلقه يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد. فلو أدخل الخلائق جميعاً الجنة لم يكن حيفاً، ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً :

لو رحم العاصي وعذب المطيع   أو رحم الكل وعذب الجميع

لكان ما فعل من ذا ممكنـــا   وكان حكمه جميلاً حسنا

وعندهم أن الشفاعة تدخل فيما يتفضل الله به على عباده إن شاء.

والكسب الذي قال به الأشاعرة لا يعني – كما جاء في العرض – عطاء من الله، ولكن يعني أن الإنسان لا يخلق أفعاله خلقاً يؤدي إلى تقييد إرادة الله وتعطيلها كما قال المعتزلة، ولكنه يكسب هذه الأفعال بقدرة حادثة يخلقها الله في اللحظة التي يريد الإنسان أن يكسب تلك الأفعال ؛ أي أن الله خالق الكسب، والعبد مكتسب له. كما أن الله خالق الحركة والعبد متحرك. وعندهم أن الكسب يختلف عن الخلق، لأن الكسب يكون من قدرة محدثة، والخلق يكون من عدم. ثم إنه لا يقتضي مثل الخلق العلم بتفاصيل الفعل من كل وجه، كما لا يقتضي الإتيان بالشيء على أحسن هيئة. وعندهم بعد هذا أن الكسب يدخل في نطاق مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وبالتالي في نطاق الثواب والعقاب، إذ "كل نفس بما كسبت رهينة".

وفي النهاية نصل مع العرض إلى القسم الرابع والأخير الذي خصه للخير والشر، فنجده سلسلة من التأملات تبدأ من التساؤل عن مبررات وجود الشر، وتنتهي إلى الحديث عن الإيمان والإلحاد، دون أن يطرح قضية الخير والشر كما تناولها علم الكلام والفلسفة.

ولو أن الزميل الكريم بحث في القسم الذي خصه للأفعال عما ذهبت إليه الأطراف المختلفة في نظرها إلى هذه الأفعال، وارتباطها بالحرية الإنسانية وبالعدل الإلهي، على نحو ما بينا بعض جوانبه في الملاحظات التي أوردناها متعلقة بهذا القسم، لأمكنه أن يضع القضية – أي قضية الخير والشر– في إطارها الحق.

ذلكم أن القدريين الأوائل من أمثال معبد الجهني وغيلان الدمشقي أولئك الذين كانت آراؤهم الأصل في نشأة الفكر الاعتزالي، نزهوا الله عن

أن يصدر الشر عنه، وقالوا إن الشر إنما يصدر عن الإنسان. وكانوا بذلك يتخذون موقفاً من تصرفات الأمويين المستندة إلى فكرة الجبر.

ثم جاء المعتزلة ففرقوا بين نوعين من الشر :

1 - **الشر الخلقي** الذي يرتكبه الإنسان، والذي هو الظلم والفساد؛ ونفوه عن الله، واعتبروا أن الإنسان يتحمل مسؤوليته فيه، لارتكابه عن حرية واختيار.

2 - **الشر الذي لا يصدر عن الإنسان،** مما له صفة طبيعية أو ميتافيزيقية، كالمرض والكوارث والموت، فذهبوا إلى أن الإنسان يسميه شراً، وهو ليس كذلك، أي ليس فسادا.

أما الأشاعرة فقالوا بخلق الله للخير والشر، إلا أنهم ربطوه بالعدالة الإلهية التي لا تخضع لما تعارف الناس عليه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ونفوا أن تكون ذات الله متأثرة بما يخلق من شر.

وحاول العرض بشيء من التمحن أن يتعرض في هذا القسم الأخير (ص 83) للآية الكريمة : "**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً**"، فذهب إلى أن الأمر لم يصدر عن الله لتوسل الشرط بإذا وليس بإن. ولا أريد أن أطيل في موضوع هاتين الأداتين، فمبحثهما في النحو معروف. وما بينهما من فوارق في العمل يمس جوانب أخرى غير ما هو متصل بسياق الآية، من حيث نوع الفعل الذي تدخل عليه كل منهما ومدى عملها فيه، كالقول بأن الأصل في إن عدم الجزم بوقوع الشرط، وفي إذا الجزم. ولهذا تدخل إن على النادر والمحال دون إذا، وغلب في

إذا لفظ الماضي لدلالته على الوقوع قطعاً. وهذه قضية لخصها اللغز الذي قيل في الأداتين وجوابه.

يقول اللغز :

سلم على شيخ النحاة وقل لــه عندي سؤال من يجبه يعظـــم

أنا إن شككت وجد تموني جازماً وإذا جزمت فإنني لم أجـــــزم

ويقول الجواب :

هذا سؤال غامـــض في كلمـــتي شرط وإن وإذا مزاد مكلم

إن إن نطقت بها فإنك جـــازم وإذا إذا تاتي بها لم تجـــزم

وإذا لما جزم الفتى بوقوعـــــه بخلاف إن فافهم أُخي وفهم

أما الآية ففسر العلماء الأمر فيها – على حد ما نجد عند ابن كثير – على أنه أمر قدري، أي أن الله سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب، أو أنه أمرهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. ولعلنا هنا ألا ننسى قراءة التشديد (أمَّرنا) بمعنى جعلناهم أمراء، وفسر الأمر هنا بتسليط الأشرار، كما فسر بالإكثار أي أكثرناهم. وفي تفاسير المعتزلة –كالكشاف– أنهم خولوا النعم وأمروا بالشكر ففسقوا وكفروا. وفيه أن الأمر مجاز وأنه غير الإرادة.

وأستسمح الزميل الكريم، وأنا أنهي هذه الملاحظات، لأطلب منه مراجعة تعابير وردت عنده في العرض – وإن جاءت في بعضها من قبيل الحكي – كتشبيهه الله في ص 20 بالبعير، وفي ص 23 بالروبو أو الإنسان

الآلي؛ وكقوله في ص 46 بأن الله هو الضمير الحي، وفي ص93 بأن الله قيمة ؛ تتره الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا.

هذه –حضرة الزميل الكريم – هي أهم الملاحظات التي وددت إثارتها معك وطرحها على نظرك وأنظار بقية الزملاء والأساتذة، فلعلها أن تكون إضافة لما قدمت في عرضك القيم من أفكار وتأملات لها قيمتها الكبرى لاشك .

والله الموفق.

الفهرس

القسم الأول: وفاء وعرفان

القسم الثاني: تقدير وتكريم

القسم الثالث : تنويه وتعقيب

من أعلام الجزء الثالث

- الذي سيصدر لاحقا إن شاء الله ومد في الأجل -

* طه حسين في آخر محاضراته بجامعة القاهرة
* أبو بكر بناني شيخ أدباء الرباط
* محمد بوجندار الأديب المؤرخ
* محمد بن العربي العلوي العالم السلفي
* الحاج عثمان جوريو الأديب المربي
* الحاج أحمد معنينو المعلم المجاهد
* محمد بن الراضي الشاعر الوطني
* محمد المدور مثال الوطنية الصادقة
* محمد الخمار الكنوني وإبداع الدرس والشعر
* الحسين بن المكي الفنان الأصيل